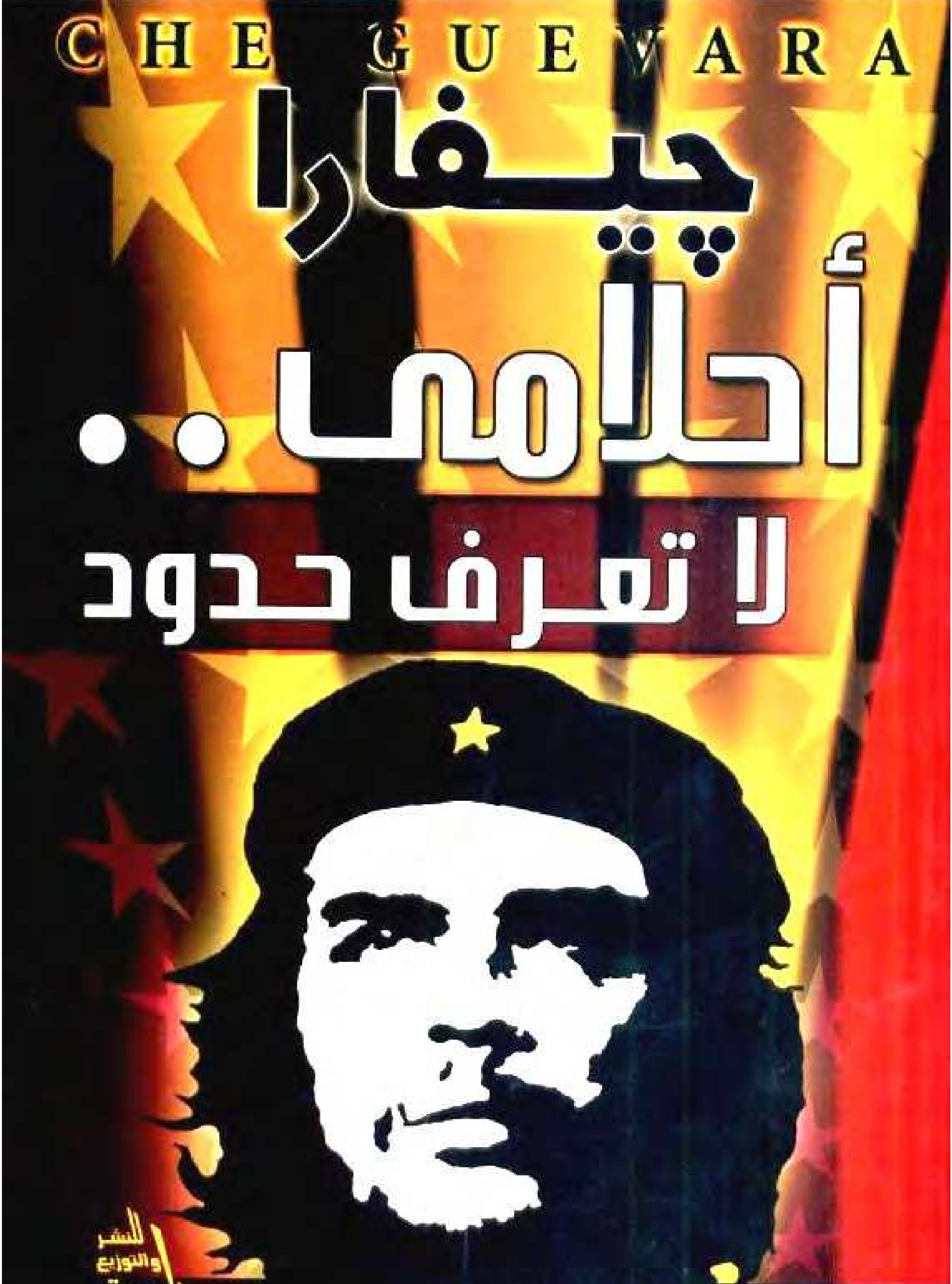


بقلم تى شى جيفارا



الحرية
للنشر
والتوزيع

٣ ميدان عرابى وسط البلد - القاهرة
ت: ٥٧٤٥٦٧٩ - م: ٠١٢٢٣٨٧٧٩٢١



اسم الكتاب: احلامى لا تعرف الحدود

ارنستو تشي جيفارا

الناشـــــر: الحرية للنشر والتوزيع

٣ ميدان عرابى - وسط البلد - القاهرة

ت: ٥٧٤٥٦٧٩ـ م: ٠١٢٢٣٨٧٧٩٢١

رقم إيداع: ١٢٢٧ / ٢٠٠٧

الترقيم الدولي: 6 - 19 - 25 - 977

توطئة

كان الإرباك يعتريه أكثر فأكثر مع اقتراب الامتحانات النهائية، وكانت تطول كالتاريخ، وهو يغوص في الكتب الدراسية بجهود لامتناهية. لكن، بدا له وكأن هذا العلم من دون نهاية. فيا لكثرة ما كان يتذكر في تلك الأيام كلمات البروفسور بيزاني: من غير الممكن دراسة الطب في أوقات الفراغ فقط.

ها هي النهاية قد أشرفت. فقد خرج من قاعة الامتحانات الأخيرة واضعاً يديه في جيوب سرواله، وهو يغادر ميدان الجامعة للمرة الأخيرة. لقد بدأت مرحلة جديدة في حياته، فهو من الآن فصاعداً ـ طبيب. أخذ يسير في الشوارع، يراقب الناس بعينيه وهو يفكر في طريقة مثلى لإنفاق ما تبقى في جيبه من نقود.

في إحدى حانات النبيذ التقى بصديقه القديم كاليكا، وكم من مرة أجهزا على زجاجات النبيذ أيام الدراسة. وبعد أن تناولا عدداً من كؤوس الشراب الأحمر، انتقلا إلى الحديث عن تطلعاتهما المستقبلية.

ـ إرنستو، إنِ أول عمل سأقوم به شخصياً هو تجميع الثروة شيئاً فشيئاً قدر الإمكان. فقد مللت من تعداد ما في جيبي من

نقود صباح ـ مساء. ولست راغباً في الجوع. ها هي فنزويلا تشهد الآن حركة عمرانية ضخمة، وسأذهب إلى هناك.

ـ معك حق، خصوصاً عندما ترتفع أمام ناظريك ورشات البناء. لكن، ما لا أفهمه بعد هو: أين يبنون كل ذلك؟ فالبنايات تحيط طولاً وعرضاً بكاراكاس.

ـ آه يا صاحبي. نحن المهندسين نبني أينما شئت. حتى إذا انتهت الأرض، نهدم البيوت الحقيرة ونبني مكانها الناطحات.

شعر إرنستو بانقباض، إذ لا مكان للناس وهمومهم في خطط كاليكا. ولم يكن يرغب في إشعال النقاش. لكن، لا يمكنه في الوقت نفسه التغاضي وكأنه لا وجود لهذه المشكلة.

ـ ما عسانا نفعل بأولئك الذين يعيشون في هذه البيوت الصغيرة؟ أيذهبون معكم لبناء هذه الناطحات؟ وهل سيعيشون فيها أيضاً؟.

تهرّب كاليكا من الإجابة.

ـ آه يا إرنستو، إنك تتحدث وكأنك لا تحتاج إلى المال، لكنني أتذكر حالتك أيام الدراسة، وأتذكر ما كنت تفعله حتى تكفيك نقودك! ألم تكن تصرف على نفسك بنفسك؟ وألم تكن تنوي السفر بعد الامتحانات؟ وإذا لم تخني ذاكرتي، ألم تقل إنك ستغادر إلى عند غرانادوس؟ على فكرة، أيسكن في كراكاس أيضاً؟

ـ إنه يسكن على مقربة من هذه المدينة، على الشاطىء. لقد اتفق معهم على تأمين مكان لعملي. تخيّل! سأقبض ثمانمئة دولار في الشهر. أنا لا أصدق أنني سأتسلم هكذا مبلغ. ويمكننا أنا وغرانادوس أن نكمل أبحاثنا.

ـ ماذا تريد أكثر من ذلك؟ بوجود المال يمكنك أن تمارس هوايتك بسهولة، وأن ترى جميع المناطق الأثرية في أميركا اللاتينية، أم أنك تخلّيت عن علم الآثار؟

هزَّ إرنستو رأسه قائلاً:

ـ لا، على العكس من ذلك! إنني متعلق بالثقافات القديمة أكثر من أي وقت مضى، إذ بدراستها يمكنني التعرف على أميركا اللاتينية وتاريخها قبل أن يحولها الإسبان إلى أطلال.

فكّر قليلاً وهو يداعب الكأس بأصابعه، ثم صبّ ما تبقى في الزجاجة من نبيذ، فجأة، اقترح فكرة طرأت على ذهنه:

ـ اسمع يا كاليكا، هيا نسافر معاً.

أصابت كاليكا الدهشة:

ـ نسافر؟ كيف؟ صفر اليدين؟

ـ إنني أرفض السفر بالطائرة منذ الآن. لأنه عندما عدت من الولايات المتحدة إلى هنا، أخذت الطائرة تدور كعقارب الساعة، ولكثرة التحليقات الدائرية التي قامت بها فوق المدرج، هرعت سيارات الإسعاف والإطفاء، تخيّل حالتي حينها. وأسوأ ما في الأمر ـ أن الواحد منّا كان عبداً للظروف، لا يستطيع القيام بأي شيء ـ اجلس وتخيّل ما ينتظرك. أنا يكفيني ما كان، لا أريد السفر بالطائرة.

ـ حسناً، إذاً كيف تفكر في الموضوع؟ بحسب ما فهمت، لديك خطة كاملة.

أخذ إرنستو يتلذّذ بنبيذه المحبب، يحدّث كاليكا عن انطباعاته عن جبال ماتشو ـ بيكتشو. ويصف له تلك القلاع الحجرية والمعابد الجميلة. لقد كان إرنستو مصمماً على العودة إلى هذه المنطقة مهما كلّف الأمر. لقد خطط للسفر من بيونس ـ آيرس إلى بوليڤيا، ومن هناك يصل، بطريقة ما، إلى البيرو، ومن ثم عبر الإكوادور وكولومبيا إلى فنزويلا مباشرة، ثم إلى صديقه غرانادوس.

واتفقا على السفر معاً.

نهض إرنستو من مكانه متثاقلاً، وأكمل شرب ما تبقى في الكأس، ثم قال:

ـ أتعلم يا صديقي، عليّ أن أقوم قبل السفر بعمل ما غير مريح.

ـ قصة حبّ جديدة؟

ـ لا، المسألة تختلف تماماً، عليَّ أن أودِّع البروفسور بيزاني.

ـ حقّاً، أريد أن أسألك حول هذا الموضوع بالذات، فأنت محط ثقة بالنسبة له، وهو يعتمد عليك كثيراً، ألست أنت من اشترك معه في عمليات الإحصاء ودراستها؟ فربما يقترح عليك العمل معه...

ـ هو ذلك بالضبط. لكنني لا أريد أن أتحول إلى عجوز هرم قبل الأوان. بل أريد أن أعرف كل شيء. إذ عندما كنت مسافراً مع غرانادوس، برزت لديّ عدّة أسئلة يحيطها الغموض. ولو كنت معنا، لرأيت بعينيك ذلك الفقر، وتلك المظاهر للظلم الفاحش. تنظر أحياناً، فترى الثروات. لكن، ما هو نصيب العامل أو الفلاح من ذلك؟ وكأنه حُكم على سكان تلك القرى بالنسيان الدائم. ترى الأمية، والظلم، والحرمان من أية مساعدات طبية، فهذه أمور لا أنساها ببساطة.

ـ كل ذلك اسمه: اليانكي يسرقون بلادنا.

ـ بالضبط، هذا صحيح يا كاليكا. لكن، ما هو البديل عن ذلك؟ أنا لم أجد الجواب بعد، لكنني، ورغم كل ذلك، أريد السفر إلى فنزويلا. ترى، ما الذي ينتظرني فيما لو وافقت على اقتراح البروفسور بيزاني؟ ربما أصبحت بروفسوراً بعد خمس سنوات من العمل! ثم أدرِّس في الجامعة حتى تداهمني السنة الخامسة والستون. لحظة...، هذا يعني أنني سأحال على التقاعد في عام 1993. ـ وأشار إرنستو بيده تعبيراً عن الرفض ـ

لا، لست بحاجة إلى تلك الحياة. فأنا أريد أن أخوض التجارب، وأريد أن أرى العالم. وأعتقد أني سأعود بعد عشر سنوات إلى الأرجنتين لأعمل كطبيب.

* * *

نقل نظره عن الطاولة عدة مرات وأرسله نحو ذلك الملصق المعلّق على الجدار. لقد علّق هناك منذ سنوات عدة، فكم طبقة من الغبار تغطي ألوانه اللامعة؟ لكنها، رغم ذلك، تبدو له براقة جداً.

كان يشعر بذاك الوجه على الملصق يتغير بشكل غريب. فقد مرّت أيام كان يبدو فيها حازماً وقاسياً، ثم أخذت نظرته تعبر عن كراهية يتخللها نداء لشيء ما. بعد ذلك، أعجب بتلك البسمة التي تلهو على وجه تشي، خصوصاً عندما كان يغوص في كثرة المواد التي تجمعت لديه عن صاحب الملصق. وفي أيام أخرى، أخذت عيناه تشعّان بتفاؤل جديد.

رصّ الكتب واحداً فوق آخر: دفتر مذكراته في بوليڤيا، خطابات فيدل كاسترو، مواقف من الحرب الأنصارية، مواد وأبحاث حول نشاط المخابرات المركزية الأميركية، دفتر مذكرات بومبو، تسعة مجلدات لخطابات ورسائل تشي نفسه.

لقد قرأ في السنوات الأخيرة الكثير الكثير من الكوميندان(*) إرنستوتشي غيڤارا. ومرّ في ذاكرته شريط من المقاطع الأولى: أسماء المشهورين وأسماء المناطق الجغرافية. لكنه، في كل مرة

(*) كوميندان (Comendante): رتبة عسكرية تعرف في سوريا ومصر بـ ـ رائد في الجيش ـ وفي العراق بـ رئيس أول، وهي أعلى رتبة عسكرية في الجيش السري، حاز عليها غيڤارا بعد سنة واحدة من انخراطه في صفوف هذا الجيش الذي قام بالثورة الكوبية بقيادة فيدل كاسترو. (المترجم).

كان يعتقد فيها أنه يقترب من تشي كان يشعر بخيبة الأمل من جديد.

كانت صورة تشي في ذاكرته تتغير بشكل غريب: كان يراه عقلانياً فوق العادة، فجأة، يراه متناقضاً ـ وأخرى، يبدو كل ما في ذاكرته عن تشي خالياً من أي إثبات ووضوح. لم يشعر أن كثرة الشواهد لا يمكنها أن تشكل بمجموعها العشوائي صورة لإنسان حي، بل يجب تتبع سيرة حياة هذا البطل بطريقة مشوقة!

قرر أن يدرس طفولة تشي وشبابه بصورة أعمق، مدركاً أن فهم الإنسان لا يتم من دون دراسة طفولته. فوجد في تلك الكتب التي صاغت حياة تشي، وهو ابن الثامنة من عمره، مستقبلاً واضحاً، فهو ثوري أو رجل دولة أو متهوِّر، بحسب الأرضية السياسية للمؤلف.

لذلك، أخذ يجمع أحجار الفسيفساء كي يشكل صورة متكاملة، وليتمكن من تقديم فترة شبابه بشكل واضح ومحدّد. لكن، هل يمكن لهذه الصورة المتكاملة أن توجد، في الوقت الذي تتزاحم فيه الشهادات، والمذكرات، والأساطير، والأحداث الميدانية والتاريخية؟

كان لا يزال يتساءل ويتساءل، حتى أخذ يختار كل مادة بتعمّق وشك، ويحاول اختبار كل شهادة بمدى قدرتها على الإقناع.

بعد ذلك، حان وقت تقديم الأسئلة، فأراد أن يستوضح سر اختيار إرنستو غيڤارا لهذا الخط في الحياة، وسر اختياره لهذا المصير.

تي تي

كان إرنستو يلاعب أخاه الصغير روبرتو، والملل بادٍ على وجهه:

ـ لست راغباً في اللعب أكثر يا روبرتو. ما رأيك لو نذهب إلى منزل الجيران؟

ـ آه، سيكون عندهم اجتماع كالعادة.

ـ ما المناسبة، ألا تعرف؟

ـ ما هو شأني بذلك.

ـ هيا بنا، يوجد هناك في بعض الأحيان ما هو ممتع. أتذكر تلك العجوز الشقراء عندما دعت أحد الرجال بنصف عاقل؟

ابتسم روبرتو، وذهب مع أخيه بحماس. كانت الأصوات تسمع حتى الشارع، لكنها لا تدل على جو مرح وضحك. تسلل الولدان نحو والديهما عبر الغرف المكتظة بالبشر. كان إرنستو يحبو تحت المقاعد، أما روبرتو فتناقلته أيدي الجالسين. كان جو الغرفة ضبابياً بسبب الدخان.

ـ يجب البحث عن طريقة أخرى للاحتجاج، فهذا الثمن للكهرباءلا يمكن أن يسمى إلاّ نهباً. لاحق إرنستو يد الخطيب، حيث كانت ترسم في الهواء أشكالاً تنم عن انسجام كامل، وحماس شديد لِما يطلقه من كلمات، دون أن يلاحظ رماد سيجاره يتساقط يمنة ويسرة. أخذ إرنستو ينتظر سقوط الرماد على

صاحب السيجار، وهو يرتدي سروالاً أبيض اللون، مما يسبب بقعة عليه. أو يسقط على جارته التي ترتدي فستاناً رمادي اللون، وهي تنتظر فرصة للكلام.

كان الخطيب يتفوه بكلمات تدل على مزاج قتالي:

ـ فلنحطّم أضواء الطرقات والمشكلة تحلّ.

ـ هراء! قالت جارته معترضة، وأشارت بالشاهد على جبينها.

في هذه اللحظة سقط رماد السيجار على ركبتها، عندها ابتسم إرنستو في سرّه.

ـ بالضبط! يجب تحطيم جميع الأضواء في الشوارع، وفي كل أنحاء المدينة! وعلى شركة الكهرباء، بحسب القانون، أن تتحمل كافة النفقات لإصلاحها في يوم واحد، وإلاّ تدفع غرامة مالية. فإذا قمنا بتحطيم المصابيح دفعة واحدة فإن. . .

قطعت كلامه ضحكة صاخبة. لم يكن أحد يحمل اقتراحه على محمل الجد. نظر إرنستو إلى أخيه نظرة تساؤل، فلم يكونا بحاجة إلى كلمات حتى يقيّما الوضع ويتآمرا.

غادرا الاجتماع، بعد أن أعجبتهما الفكرة. فما كان منهما إلاّ أن جمعا أصدقاءهما من الأطفال والمراهقين، وانقسموا إلى مجموعات انتشرت في المدينة، وانهمرت على المصابيح بالحجارة.

شعر البوليس أنه معني بالأمر، إذ أصبحت حماية أعمدة الكهرباء والمصابيح، من العابثين، من واجبات البوليس. لكن الأولاد انتشروا في المدينة كالفطر، وأخذوا يجمعون الحجارة بدل اللعب بالكرة، حتى انتهت الإضاءة في المدينة كلها تقريباً. أما شركة الكهرباء فقد أجبرت على إصلاح ذلك على نفقتها، لكنها لم تتراجع عن قرارها برفع أسعار الكهرباء.

لقد ملّ إرنستو وأخوه من لعبة رنين الزجاج المحطم. وانتقلا إلى ممارسة هواية جديدة. أخذ إرنستو يقرأ كتاباً ضخماً من مكتبة والده هو: دونكيشوط.

* * *

ما إن وضعت والدته سماعة الهاتف حتى أيقن أن من كانت تتحدث إليها هي مدرّسته. وغلب الجد على وجه أمه، وشابها بعض الحزن:

ـ إرنستو، تعال إلى هنا. ما الذي حصل في المدرسة اليوم؟

وقف على مسافة آمنة منها وتمتم:

ـ لقد قالت لك تلك البقرة العجوز، أليس كذلك؟ إنها لا تدري ما تفعل، وهي مجنونة، صارمة وغبية. ومن الأفضل لها أن تعمل راعية للبقر.

اقتربت منه والدته ببطء:

ـ إرنستو، لقد أخبرتني المدرّسة بأنك لم تتصرف بشكل لائق في المدرسة و...

ـ إنها بقرة عجوز وغبية!.

ـ أحقاً، كادت أن تحطم يدها بسبب حجر الطوب؟

ـ كان عليّ أن أدافع عن نفسي. لقد أرادت أن تعاقبني، فوضعت قطعة الطوب تحت السروال.

ـ لكن، ما كان لمدرّستك أن تضربك من دون مبرر يا إرنستو.

ـ دعيني لحالي في النهاية!.

قال ذلك، عندما أراد مغادرة الغرفة، لكن والده الجالس في الغرفة المجاورة، كان قد سمع الحديث، ودخل غاضباً:

ـ كيف تجرؤ على محادثة والدتك على هذا النحو، سأعطيك نصيبك الآن!

وقفت كارمن أرباس بينهما. وهي مربية جاءت للعمل عند عائلة غيڤارا منذ ولادة إرنستو، كانت تعتني بالأطفال الأربعة. وكان إرنستو محبوبها الدائم. فكم من المرات أنقذته من عقاب صارم.

ـ سيد غيڤارا، سيد غيڤارا، لا تعاقب تي تي المسكين!

ـ دعك من هذا، إنه يربي ولداً معاقاً، كنتِ دائماً تحمينه. لكن، لا يمكن السكوت عن تصرفاته الآن، فقد تخطى كل الحدود.

لحق الأب بابنه، وهو يلهث من شدّة غضبه. أما إرنستو، فقفز إلى الحديقة الكبيرة عبر الدرج السري، وبعد أن أصبح على مسافة بعيدة، أخذ يصرخ:

ـ ها أنذا! حاول اللحاق بي إن أردت! وتابع طريقه.

كان والده يغلي من شدّة الغضب.

توقفت أعمال حفر الخندق التي كانت تدور قرب بيت عائلة غيڤارا، ووقف الجميع ينظرون إلى هذا المشهد المسرحي المجاني. عاد الأب وهو يلهث، وعندما أصبح بمحاذاة العمال أخذ يسرع في خطاه.

كان إرنستو يتتبعه. واختبأ خلف أضخم العمال جسداً. فقال الأب للعمال.

ـ أينما عملتم، تواكبكم الرغبة في اللهو ـ يا للكسالى.

شاهد إرنستو من بعيد زاخارياس، وهو غلام في الخامسة عشرة من عمره، يبيع كل يوم بعض الحلوى التي تصنعها والدته، كي يساعد العائلة على تحصيل بعض النقود.

ـ زاخارياس، دعاه والد إرنستو، كيف حال البيع اليوم؟ كما أرى لا يزال الصندوق مملوءاً. اسمع، ما رأيك لو أعطيتك خمسة بيزوات وبقي الصندوق لك ـ مع العلم أنه لا يستحق هذا الثمن كله مقابل أن تمسك لي بإرنستو، فهو يختبىء بين تلك الأشجار!

ذهب زاخارياس، وبعد ساعة من التعب عاد بخفي حنين؛ لأن إرنستو كان يراه وهو يأخذ البيزوات الخمسة، فما كان منه إلاّ أن تسلل إلى البيت دون أن يلحظه أحد.

أخذ الخوف يدبّ في قلب الوالدين شيئاً فشيئاً، فالغابة تمتد لمائتي هكتار خلف البيت، ومن السهل ضياعه فيها. لكن إرنستو الموجود في المطبخ، أخذ قطعة من الخبز، ودون أية ضجة، دخل غرفته، ونام في الفراش. ومن هناك، أخذ يسمع أصوات والديه من الطابق السفلي وهما يبحثان عنه في الحديقة، حتى داهمه النوم.

* * *

ـ لكن، لماذا يسمح للغلمان الآخرين؟ ألا نستحق ذلك نحن يا ياما؟ قال إرنستو راجياً والدته.

ـ ربما كان الأمر كذلك. لكن، عمرك لا يتجاوز الحادية عشرة، وأخاك لا يزال في التاسعة، وتريدني أن أدعكما تذهبان وحدكما!

ـ ولو لشهر واحد يا ماما.

ـ لماذا لا يسافران؟ قال الأب متدخلاً. عندها نظر إليه إرنستو نظرة شكر، ودبّ الحماس عند روبرتو.

ـ ماما، لن نزعج أحداً!

ـ كثيرون ممن هم في عمريهما يعملون في قطف العنب. وهما بذلك يتعرفان على العمل الحقيقي، ويحصلان على نصف بيزو في اليوم، ويمكنهما التهام العنب بنهم في تلك المزارع.

أخيراً، تمكن الوالد من إقناع الأم، فوافقت على ذلك.

كان في نيّتهما البقاء طيلة شهر كامل. لكن، ما إن مرّ اليوم الرابع حتى كانا يقفان على عتبة المنزل، والوسخ يغطيهما من الرأس حتى أخمص القدمين، والجوع يعصرهما.

ـ ماذا حدث لكما؟

قدم إرنستو تقريراً كاملاً:

ـ يا له من وغد! لقد اشتغلنا ثلاثة أيام كالملعونين. لكن، انتابتني نوبة ربو قوية، حاولت بعدها أن أستمر في العمل، لكن دون جدوى. عندها، ذهبنا إلى صاحب الأرض، وقلت له إنني لا أستطيع أن استمر في العمل. وطلبت أجرتنا، لكنه لم يعطنا سوى نصف ما نستحق. ابن العاهرة!

ـ لماذا فعل ذلك؟

ـ لقد ادعى أننا لم نلتزم بعقد العمل، ونحن كنا قد اتفقنا على شهر كامل.

ـ ماذا ستفعلان الآن؟

ـ هيا بنا يا بابا نهشم وجه ذلك الحيوان!.

* * *

كانت نظرات الاحتجاج تملأ الشوارع. وأعداء بيرون(*) من المعارضة توحدوا فيما بينهم. وعقدت الاجتماعات المتتالية في الجامعة لمناقشة المظاهرات المقبلة، وصعوبات المظاهر الاحتجاجية.

اقتحم البوليس حرم الجامعة، ورمى الطلبة في المعتقلات دون محاكمة أو تحقيق. سمع إرنستو ذلك من صديقه توماس غرانادوس الذي قال:

ـ لقد اعتقل البوليس أخي دون سبب أو تهمة. يجب أن آخذ إذناً لزيارته.

ـ توماس، إذا سمحوا لك بزيارته، اصطحبني معك.

ـ لكن، لا تعرفان بعضكما جيداً.

(*) رئيس الأرجنتين في ذلك الوقت.

ـ أود أن أتعرف إليه عن قرب. فهو الذي يعيِّن أعضاء فريق السيبول، وأنا أحلم في أن أكون واحداً من هذا الفريق.

ـ يضمونك أنت؟ أتعتقد أن ألبرتو يقبل غلاماً في الثالثة عشرة من عمره في فريق السيبول؟

ـ أعلم ذلك، ولا أريد أن أكون عضواً في الفريق الأساسي. لكن ألبرتو هو الذي يحدّد من يقف خلف الملعب لالتقاط الكرة، وستكون فرصة لي.

ـ حسناً، سأحاول الحصول على إذن بالزيارة.

تمت زيارة ألبرتو في مركز إدارة البوليس، حيث الزنزانات المكتظة بالمعتقلين. لقد بدا لإرنستو أصفر الوجه، لكن الغضب يملأ عينيه.

ـ إنهم يعتقلوننا بشكل غير قانوني، ودون قرار من المحكمة.. يجب أن يعرف الجميع ذلك. يجب إخراج الناس إلى الشوارع. وهم يرفعون شعار إطلاق جميع الطلاب المعتقلين.

هزّ إرنستو رأسه قائلاً:

ـ ما الذي تقوله يا ألبرتو. نخرج إلى الشوارع بهذه البساطة، حتى يسحقوننا بهراواتهم؟ أنا مستعد للخروج إلى الشارع شرط أن أحصل على مسدس.

* * *

انضم إرنستو إلى جموع الناس الهائجة. كانوا يتقدمون باتجاه نادي ـ جوكي. كان إرنستو يسمع من والده أن من شروط عضوية هذا النادي أن يكون لديك مال كثير، واسم مشهور.

ـ فليسقط المتخمون بالمال! فليسقط المتخمون بالمال! كان يهتف المتظاهرون.

وقف بعض أعضاء النادي في الباب. عندها، شعر إرنستو أن الوقت قد حان. دوّى الحجر الأول، فهوى زجاج واجهة الخزانة. انضم إرنستو إلى المهاجمين. هتف أحدهم.

ـ انصرفوا من هنا، خنازير! إلى الولايات المتحدة وبئس المصير!

أخذت الحجارة تتساقط بغزارة. اصطف أعضاء النادي أمام الباب. اعتقد إرنستو أنهم سيدافعون عن أنفسهم لأن البوليس قد تأخر. كاد صوته أن ينقطع، لكنه استمر بالصراخ:

ـ تقدموا إلى هنا، أيها الجبناء! أم أنكم لا تقوون على ذلك من دون كلابكم؟

ضربهم بحجر واحتمى خلف أحد الجدران. وبينما كان يهم بالتقاط الحجر الثاني صرخ أحدهم:

ـ الثيران(*)!

بالفعل، لقد هاجمهم البوليس من الخلف. تمكن إرنستو من عدّ أكثر من دزينة من الجنود فوق سيارة واحدة من سياراتهم الكثيرة.

ـ خفّوا أرجلكم! فليختفِ الجميع! لقد اقتربت الثيران.

ألقى إرنستو حجراً آخر عندما كان يفرُّ هارباً، لكنه لم يَرَ كيف طار الحجر وإلى أين. كان له من العمر ستة عشر عاماً. ومن الطبيعي أن يكون ولد بهذا العمر جالساً في البيت يحضّر دروسه، لا أن يقذف نادي ـ جوكي بالحجارة.

لحق به رجلان من البوليس. لكنه لم يكن رياضياً سيئاً، والإمساك به لم يكن أمراً سهلاً، إلاّ إذا داهمه الربو. لقد انقبض صدره، أخذ يفكر برعب، يجب التنفس بانتظام يا إرنستو، بانتظام فقط.

ـ لقد تعثر أحد رجال البوليس وسقط على الأرض، لكن رفيقه قام بمساعدته على النهوض، أما إرنستو فقد اختفى مع حلول الظلام في الطرقات المتعرجة. وهكذا نجا من اعتقال محتّم.

(*) الثيران: هكذا كان يلقب البوليس بقصد إهانته.

بعد ذلك، نزل في ضيافة صديقه ألبرتو. وهما يشربان المتّة سمع إرنستو عتاباً شديداً:

ـ يا لك من إنسان عجيب، صحيح أنني اشتركت في عدة مظاهرات طلابية، واصطدمت مع البوليس، لكنك أنت، مع من سرت إلى نادي ـ جوكي؟

هزّ إرنستو كتفيه:

ـ لا هم لي بذلك، سوى أنني منذ مدة طويلة كنت أتحين الفرصة كي انتقم من أولئك المتخمين، والمتكرشين القابعين في ذلك النادي.

* * *

الحزن، الدموع، الغضب. كان إرنستو يضع يديه على عينيه، ويشعر بمغصٍ في معدته. لا، لا يمكن أن يصدِّق ذلك.

سبعة عشر يوماً وهو يجلس قرب فراشها، يراقب احتضارها برعب، لقد خارت قواه. ها هي جدته تموت. لم يكن قادراً على تحمل هذا الحدث الجلل، ولا على استيعابه. كان يشعر برغبة في أن يعاني من ألم جسدي، ربما ينسيه صراعه الداخلي، أو يخرجه منه. هام على وجهه في الشوارع. أخذ يسير دون أن يعي إلى أين تقوده قدماه، وإلى أي حي يتجه. هناك في الزاويةِ، فرّ أحدهم هارباً، ولحق به آخرون، وأحدثوا ضجيجاً. كان الضجيج يصمّ أذنيه عن كل الأصوات. لم يبق إلاّ هو، أخذ الكثير من الهواءفي فمه، طرقت ضربات على الرقبة. والوجه مملوء بالبويا، بدا قابلاً للسقوط.

لم يبق في ذاكرته، من الأفكار المتقطّعة التي تزاحمت في رأسه، سوى بعض منها، أعطت صدى على صدغه:

ـ عدم الجلوس مكتوف الأيدي دون مقاومة.

ـ عدم الاكتفاء بالمراقبة السلبية!

تعلم الصراع مع أي مرض كان.

ـ الدراسة الحثيثة كي تصبح مهندساً!

مرّت أيام، وهو لا يفكر بغير هذه الأفكار، حتى اتخذ قراره بعدم دراسة المواد التكنيكية، وقرّر دراسة الطب.

* * *

لاحظ إرنستو في حركات تشنتشينا شيئاً من العصبية، فأخذ يراقب صديقته المضطربة بفرح واستمتاع:

ـ ما بك يا تشنتشينا؟

خفضت تشنتشينا رأسها وهي تهزه، وكأنها تريد التأكد من لون تنورتها البيضاء، ثم قالت، دون أن تنظر إليه:

ـ كم من مرّة ارتكبت فضائح نتيجة تصرفاتك غير اللائقة في هكذا تجمعات. وها أنت تقوم بذلك من جديد. فما هو هذا المظهر الذي أنت عليه؟ كنت على استعداد للذهاب معك إلى السينما، وأنا مسرورة. لكن دولوريس أصرَّت على حضورنا هذا الحفل. أنا لا أستبعد وقوعها في حبك.

انفجر إرنستو ضاحكاً:

ـ تلك العجفاء، أثارت غيرتك؟

ـ ما الغريب في الأمر؟ أجابت تشنتشبينا، غباء! أنت ابن عائلة محترمة، وأمامك مستقبل لامع كطبيب. ومع ذلك ترتدي ملابسك وتتصرّف كما لو أنك تربيت على قارعة الطريق. غير أن ذلك يمنحك رونقاً يثير الاهتمام.

كان إرنستو يعرف جيداً مقاييس أصحاب الذوات من كودوفي واهتماماتهم. لكنها لم تكن تعني له شيئاً، وتبعد كثيراً عن اهتماماته. واليوم أيضاً لم يحظ مظهره بأي اهتمام منه، لم ينظف حذاءه المهترىء، والرقعة الموجودة على سرواله كانت تمنحه طابعاً خاصاً، أما سترته الأزلية فكانت على كتفيه كالكيس. حاول

إرنستو أن يزيل شكوك تشنتشينا، فتوجها إلى منزل دولوريس مويانا مورتين. وفي الطريق رجته أن يتصرف بشكل لائق.

هناك، أخذ كأساً من النبيذ الأحمر، وامتنع عن التدخين، وراح يبحث عمن يشاركه في لعب الشطرنج. كان يريد التهرّب من الرقص. فالجميع يعرفون عنه أنه لا يميز بين رقصة الفالس والتانغو.

لفت انتباهه في الحفل عم تشنتشينا، فهذا المتكرّش قصير القامة، يرتدي ثيابه باهتمام فائق. كان كثير الكلام. لقد استمع إليه إرنستو لبعض الوقت ثم همس في أذن تشنتشينا:

ـ من يكون هذا الأهبل؟

أحست تشنتشينا الخبث في سؤاله:

ـ هذا عمّي، لكنه بعيد القرابة. وقلّما يأتي إلى هنا. لا داعي لأن تفسد عليه أمسيته، فقد أدار منذ قليل اسطوانته المحببة: انكلترا.

أخذ إرنستو يدير الكأس في يديه وهو يستمع إلى ذلك المتكرّش:

ـ إنني أرى تشيرتشل عبقرياً، لحزمه وبعد نظره السياسيين، ونحن مدينون له بالانتصار في الحرب العالمية الثانية. إنني أنحني إجلالاً واحتراماً لهذا الرجل. فهو أمثولة للسياسي المحنك والحقيقي. كان فضله مباشراً في الانتصار على الفاشية.

ضحك إرنستو بصوتٍ عالٍ، فنظر إليه العم بغضب.

ـ أتضحك مني أيها الشاب؟ وأومأ إلى إرنستو.

ساد صمت رهيب ينذر بعاقبة وخيمة. فقرر إرنستو أن يشرح موقفه:

ـ تشيرتشل! هذا الـ «بودلوغ»(*) الانكليزي! ماذا يعني: «النصر

(*) بولدوغ: نوع من الكلاب. (المترجم).

من فضله المباشر»! فكل ما سعى إليه هو المحافظة على الأمبراطورية من أجل العائلة المالكة، وأكياس النقود.

نهض العم من مكانه مغتاظاً!

ـ إنك تحمِّل نفسك الكثير! إن من يسمح لنفسه أن يهين تشيرتشل فهو يهينني! تشيرتشل ليس بولدوغاً! ثم، كيف تسمح لنفسك بالظهور في مجتمع راقٍ بهذه الملابس؟ ألا تملك نقوداً، أم أن هذا المظهر نوع من الفوضوية؟ هلا نظرت إلى سروالك!

نظر إرنستو إلى سرواله متعجباً، ثم عاد ونظر من جديد إلى السيد المتكرّش قائلاً:

ـ السروال سروال! وعندي سروال آخر غيره، لكنه أكثر قِدماً!

فقد العمّ القدرة على الكلام للحظة قصيرة. ضحكت تشنتشينا لهذه النكتة، وابتسمت دولوريس كذلك.

ـ أنا لا أسمح أن يجعل مني أضحوكة! سأغادر هذا المكان! كفى! لن أسمح بإهانتي أكثر! قال العمّ هذه الكلمات وهو يهم بالمغادرة، ومضى متثاقلاً.

ـ تحياتي القلبية إلى جميع البلدوغيين الانكليز! قال إرنستو ذلك وهو يلح عليه. في هذه الأثناء، توقف الجميع عن الضحك. فلم يكن من الصعب على إرنستو أن يدرك أنه عاد من جديد إلى تصرفاته غير اللائقة. وقد لامه الجميع.

* * *

اتكأ إرنستو إلى المنضدة، وهو يقوِّم جيمع الاحتمالات. لقد كان ملكه مهدداً. هل يضحي بوزيره لإنقاذ الملك؟

أخذ يبحث مطولاً عن احتمال لانقاذ ملكه بأقل الخسائر. رشف قليلاً من الشاي، وبدأ يحسب الخطوات الممكنة لحصانه الأخير. كان مستغرقاً في اللعب بكل قواه، حتى أنه لم يكن يلاحظ ما كان يدور خلف الطاولات المجاورة. كان يجلس دون

حراك، ينظر إلى كل مربع من مربعات الشطرنج وعيناه تبحثان عن سبيل للإنقاذ، ويحسب اللعبة خطوة خطوة. إنها مجزفة، ولا سبيل سواها، بل على العكس، ستتيح لي مجالاً للتقدم.

فجأة، دخل زميلهما في الجامعة أوغستو:

ـ يا شباب! هناك مظاهرة طلابية صغيرة تنظم الآن ومشاركتكما ضرورية! نهض خصم إرنستو من مكانه:

ـ ما بك يا إرنستو؟ أوقف نظرك عن اللوحة! قيل لك، هيّا! لكن إرنستو لم يتحرك، فقد أخذه اللعب بشكل غريب.

ـ اجلس، من الأفضل أن نكمل اللعب.

ـ ماذا تقول يا إرنستو؟

اجلس.

* * *

كان إرنستو قد حزم أمتعته فوق دراجته الهوائية ـ النارية(*)، عندما مرّ والده من أمامه:

ـ أيها الشاب، هل جربت المحرّك قبل حزم الأمتعة؟

ـ لا داعي لذلك، محركات «ميكرون» ذات كفاءة عالية.

ـ ألا زلت مصمماً على رؤية المقاطعات الاثنتي عشرة بكاملها؟ أليس ذلك بكثير؟

ـ لقد حددت مساري، ولا أدري، ربما لحقت بي شاحنة ما على الطريق، فهذا كثيراً ما يحصل.

ـ انتبه يا بني. لكن، كيف ستتجه؟

ـ في البداية إلى كوردوفا، ومن هناك إلى شلالات كاسكادا ـ دي ـ لوس ـ كوليليوس بصحبة توماس وأخيه غريغوري. ثم

(*) الدراجة الهوائية النارية: نوع من الدراجات الهوائية يثبت عليها محرك لتسهيل حركتها، وهي تعمل به ومن دونه. (المترجم).

ننصب خيمة، ونجول في القرى الجبلية. بعد ذلك نتوجه إلى سان فرانسيسكو ـ ديل ـ تشينار، وهناك تبدأ مغامراتي العظيمة.

ـ ما هي هذه المغامرات؟

ـ كما ترى، أريد أن أقطع الصحراء الأرجنتينية وحدي، على دراجة هوائية، ومعي نصف ليتر من الماء. أريد أن أحس بحرّ الشمس في تلك الوهاد الرملية المهجورة!

ـ بماذا تفكر في نفسك؟ ما الذي يضطرك إلى السفر وحدك؟

ـ ليس لدى الآخرين وقت كاف لذلك، سيعودون أدراجهم.

ـ اسمع يا تي تي. هذا كلّه لا يعجبني. فالمزاح مع الصحاري سيِّىء. وإذا كنت مصراً على ذلك، عليك بالاحتياط من الماء. ولا تنسَ قطع الغيار للدراجة، لأن سالیناس ـ غراندس خطيرة، فهي صحراء من الرمال الملتهبة تمتدإلى ثلاثمئة كيلومتر طولاً ومئة عرضاً. وهي خالية من أية حياة. أرجو أن يرعاك الله.

ـ لقد قرأت عنها مئة مرة. وسترى يا أبي أنني سأقطعها!.

* * *

ها هو أخيراً، يقف أمام تلك الصحراء التي طالما حدَّثوه عن مخاطرها. أما ألبرتو وتوماس فأخذا يحذرانه للمرة الألف، لأنهما قرآ عن مخاطرها أيضاً.

كان الوضع يزداد سوءاً بعد كل كيلومتر يقطعه، وعالم النبات يتغير أمام ناظريه. لكن، سرعان ما ظهرت أمامه أشجار الصبّار. فتوقف على مسافة ستة أمتار من إحداها. ترجّل عن دراجته، وأخذ يكتب بعض الأسطر في دفتر مذكراته: «كل من تحدثت إليه عن رحلتي هذه، كان يؤكد لي أن قطع صحراء سالیناس بخمسمئة غرام من الماء مستحيل. لكن، هذه الكمية ستكفيني في رحلتي المجيدة، فاقتنعوا أيها الناس!».

طوى دفتره، وبدأت المغامرة.

كانت الطريق تزداد جمالاً للمسير، عندما كانت النباتات تقل وتختفي. فجأة، ظهرت أمامه طريق معبدة بالإسفلت. إنه مدرّج رائع. كان يلتقي كل اثنين من الكيلومترات بمظلة. وبعد مسير ثلاثين كيلومتراً، توقف تحت إحدى المظلات للراحة. لكن الطريق المعبدة لم تنته بعد. وعند مدخل المظلة كان يقف رجل ضخم ذو لحية كثيفة. نظر إلى إرنستو الذي بادره بالسؤال:

ـ ألا يوجد في حوزتك ماء أملأ به زمزمتي؟ لقد سخن الماء الذي معي من حرِّ الشمس. أم أن ما في حوزتك لا يكفيك؟

ـ ها هي البئر، فانتشل منها أيها الشاب.

لم يكن إرنستو يظن أن عليه انتشال الكمية القليلة المطلوبة من عمق كبير. نظر إلى البئر لتحديد عمقها: «أقل من ثلاثة أمتار»، همس في نفسه بيأس وتعجب.

يبدو أن ما كتب عن سالييناس ـ غراندس قد شاخ، وعلى الأغلب أن الأب وتوماس وإرنستو كانوا قد قرأوا الكتاب نفسه.

كان مسار الرحلة مريحاً. لقد وصل إلى توكومانا، ومن ثم إلى سالتي. في آخر المساء، أخذ يبحث عن مخفر البوليس قبل أن يذهب إلى التجمع السكاني. لقد سمح له مناوبان من رجال البوليس، كما هي العادة في هكذا مواقف، أن ينصب خيمته بمحاذاة المخفر. بعد ذلك، أخذ يجول في المنطقة متنزهاً، وهو يفكر في السؤال الذي طالما أرهقه.

جلس على الأرض متكئاً إلى جذع إحدى الأشجار، تناول دفتره وهو ينظر إلى التلال المحيطة به. ثم بدأ في تدوين ما جرى معه: «وصلت إلى سالتي في الساعة الثانية عشرة ظهراً، وأول ما قمت به هو التفتيش عن أصدقائي العاملين في المستشفى المحلّي. لقد دهشوا عندما عرفوا أنني قطعت هذه المسافة في يوم واحد. بعد ذلك خطر لي سؤال، بقي دون إجابة: ما الذي أريد أن

أعرفه؟ على أية حال، أنا لست بذاك السائح الذي يبحث عن التواريخ الجامدة في الشوارع: «هذا معبد... وتلك حانة مشهورة...». لا، لن تتمكن من ذلك، إذا كنت تريد معرفة الشعب، ولن تتمتع بفهم الحياة ـ حياة البشر. ليست تلك البنايات الأثرية سوى جمال جامد. لكن، روح الشعب وصفاته تسكن في العجائز، وفي عابر سبيل تتحدث معه. لكن، أنّى لك أن توضح ذلك وتعكسه، وأنت لا تراهن على فهم ذلك أصلاً؟».

سجل في دفتره: «لن يدفعني التسابق مع الكيلومترات إلى الأمام. لقد قطعت أربعة آلاف وخمسمئة كيلومتر في جميع أرجاء المقاطعات الاثنتي عشرة، وعلى دراجة عادية يضاف إليها محرك صغير، فهذا ليس كأكل الزبيب. رغم كل شيء، ما هي الفائدة من كل ذلك؟ سؤال أصدقائي ـ في الصميم».

حلَّ الظلام، وعاد إرنستو إلى خيمته بخطى سريعة. فوجد رجلين من البوليس يحتسيان المتّة بقربها. اقترب منهما وجلس.

ـ أمن الصعب أن أجد شاحنة في الصباح؟ المرتفعات صعبة هنا.

ـ أشك في أن يحالفك الحظ، لأن الشاحنات نادرة في هذا المكان.

عاد رجلا لبوليس إلى حديثهما. فقد كانا يتحدثان عن الحيوانات المختلفة الموجودة في المنطقة. وكان أحدهما يتحدث بصوت عال، أما الآخر فكان همّه الوحيد شرب المتَّة. أخذ إرنستو يصغي إلى حديثهما المشوق. فسألهما عن البغل، لكنه توقف عن الكلام وأحس بالحرج عندما شعر أن الجواب عن سؤال مفهوم. فالرجلان فهما ما كان يريده، لكنهما لم يجيبا ثم ساد صمت عميق، وغاب الثلاثة كل في عالمه الخاص، عندها أيقن إرنستو أنه من الصعب الدخول في عالم هؤلاء الرجال.

* * *

كان يجلس في منزل تشنتشينا وفي يده مجلة «الغرافيكا»، أخذ يقرأ عليها والابتسامة على وجهه: «23 شباط 1950: إلى ممثلي شركة الدراجات النارية «ميكرون»: أيها السادة، أبعث إليكم بدراجتي الهوائية ـ النارية من نوع ميكرون، التي قطعت بها أربعة آلاف كيلومتر في مختلف مقاطعات الأرجنتين الإثنتي عشرة، من أجل فحصها»، هل سمع الجميع؟ نعم أيها الرجال».

انتزعت تشنتشينا المجلة من يده، وأخذت تقرأ:

«خلال الرحلة، كان عمل الدراجة الهوائية ـ النارية على ما يرام، ولم ألاحظ أي خلل فيها. أرجو إعادتها إليّ في حالتها الأصلية.

إرنستو غيڤارا سيرنا».

ـ طفلنا المشاغب انحدر إلى الدعاية التجارية لدراجته، شيء مضحك! بالفعل إنه مضحك!

استدارت تشنتشينا نحو إرنستو، وبدا على وجهها غضب شديد. كانت مندهشة إلى حد أنها كادت تنفجر بالصراخ في وجهه، لكنها ضبطت أعصابها وسألته بعتاب:

ـ ما الذي أجبرك على العلاقة مع هذه الشركة؟ أمن أجل الدعاية؟ إنك من عائلة عريقة بعاداتها واسمها! أتريد أن تصبح كلمة يلوكها الناس؟

نظر إليها إرنستو نظرة تعبر عن عدم فهم. ثم ابتسم قائلاً:

ـ ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ لقد ذابت العجلات، وعدة قطع من المحرك أصبحت تتطلّب التغيير، ولم تكن في حوزتي نقود لإصلاحها. وبفضل هذه الرسالة أصلحت كل شيء مجاناً، وتابعت سيري.

* * *

أشار كارلوس إلى إرنستو عن إعلان في الصحيفة:

ـ انظر، يعلنون عن بيع أحذية بأسعار مخفضة.

ـ ماذا يعني ذلك؟ هل اهترأ حذاؤك؟

ـ لا، لا أقصد هذا، انظر، فالاعلان عن بيع بالجملة.

ـ وماذا أفعل بجملة من الأحذية؟

ـ ننتقي كمية منها، أفضلها، ثم نبيعها بسعر مضاعف، أو ثلاثة أضعاف. ما رأيك في هذه الفكرة؟

أعجب إرنستو بالفكرة، خصوصاً أنه كان يحتاج إلى المال.

لقد بيعت الدفعة الأولى من الأحذية الممتازة، ولم يكن بإمكانهما شراؤها لأن سعرها مرتفع. ثم بيعت الدفعة الثانية الأقل جودة، كذلك لم تكن تتناسب مع إمكانياتهما. بعدها عرضت المجموعة الثالثة، الأسوأ، لكنها لم تبع. وكانت تتناسب مع رأسمالهما. عندها، سرّ كارلوس، وهمس لإرنستو:

ـ هذه فرصتنا!

لم يعترض إرنستو على شرائها. وفي المساء، تحوّل منزل الأهل عند إرنستو إلى حانوت لبيع الأحذية. أخذا بتصنيفها. فكان بعض الأحذية من النوع الجيد. أخذها الصديقان إلى شوارع بيونس ـ آيرس، وباعاها كلها، لكنها لم تكن كثيرة العدد.

ـ ماذا نفعل بهذه الحثالة؟

ـ نرتبها باللون والحجم، ونبيعها بثمن بخس.

استعاد الصديقان، رأس المال. لكن الأحذية المتبقية كانت تختلف عن بعضها. ولا تتشابه حتى لزوج واحد.

بدا على إرنستو الانزعاج، لأنه كان ينتظر من بيع الأحذية تأمين رسوم الجامعة لإكمال الدراسة. لكنه، عاد يقول مبتسماً:

ـ كارلوس، يا صديقي الشيخ، بما أنه لم يبق إلاّ أحذية متفرقة، لا تشكل زوجاً واحداً، لدينا فرصة واحدة...

ـ ما هي؟ تكلم، ولا تطل الحديث.

ـ قرب البئر، مقابل الحديقة، يوجد رجل يصنع الناي من القصب.

ـ وما يعنينا من أمره؟

ـ إنه برجل واحدة.

ـ بالضبط.

حملا ما استطاعا حمله، وتوجها نحو البئر. بدت على الرجل الفرحة قبل أن يتفوه بكلمة واحدة؛ لأنه كان عادة يضطر لشراء زوجٍ كاملٍ من الأحذية.

ـ فكرة عبقرية. الآن أقضي حاجتي بنصف الثمن، ومن غير أن أشتري فردة ثانية لا حاجة لي بها. أتعملان في هذا المجال منذ مدة بعيدة؟

ـ لا، إنها البداية.

ـ إذا شئتما عنوان صديقي غونسالس، فهو برجل واحدة أيضاً، لقد تعرض لحادث سير. ويشكي دوماً من شراء زوج كامل. سيصبح زبوناً عندكما كما أعتقد. لكنه يسكن في حي آخر.

ـ هذه ليست مشكلة. أقدامنا لا تزال قوية. وسنذهب إليه.

وبالفعل، ذهبا إليه. ثم أخذا يسألان جميع الأصدقاء في الجامعة عن رجال برجل واحدة، حتى تمكنا من بيع الأحذية الباقية.

بعدها، أخذ إرنستو يفكر في طريقة مثلى للحصول على المال.

* * *

اشتم والد إرنستو رئحة كريهة تنبعث من الكاراج، وصلت إلى البيت والجوار. فقرر الذهاب لمعرفة المصدر، فوجد إرنستو يحمل بالونين، والأبيض يغطيه من رأسه حتى قدميه، وهو يسعل:

ـ ما الذي يحدث هنا؟ سأل الأب.

خرج إرنستو من الكاراج وهو ينفض الغبار عن ثيابه. أشار إلى الكاراج وهو يقول:

ـ هنا سيُبنى معملي الخاص الذي سيصنع مبيدات للحشرات.

ـ ماذا؟ ماذا تقول؟

ـ كما ترى، ربما سمعت عن مسحوق «غاميكلسان» الذي تصنعه وزارة الزراعة. فقد أثبتت تجاربي أنه مادة فعالة ضد الحشرات، لكنها قوية أكثر من المطلوب. لذا سأخلطها مع البودرة بنسبة 80% حتى تعطي فعالية عالية بأقل التكاليف.

ـ لكن رائحته حادة.

ـ لكنني لا أقدر عليها. أتساعدني في تعبئة المسحوق في البالونات؟ لقد اخترتها من حجم مئة غرام.

لكن الوالد رفض المساعدة.

ـ اعتبرني مطروداً من العمل. فأنا لا أتحمل هكذا رائحة. اذهب وفتّش عن عمال آخرين من أصدقائك وزملائك في الدراسة!

بعد أن همّ الوالد بالخروج، عاد وسأل إرنستو:

ـ أخبرني، هذه العملية طويلة أو مؤقتة، هل تنوي فتح ورشة للعمل؟

ـ أنوي ذلك.

ـ إذا كنت تريد المساعدة، سأسأل صديقاً لي يساهم معك في رأس المال.

ـ أعتقد أن مشروعي يدنّس أموال أصدقائك! لا.

في البداية، كانت أموال المشروع جيدة، وأثبت فعاليته، حتى أصبح الحديث عنه في كل مكان. لكن أحداً لم يتقدم لمساعدة إرنستو بسبب رائحته القوية. حتى اضطر للعمل فيه والرائحة تعلق

بثيابه وحده لفترة طويلة، مما جعله يملّ العمل، ويقفله، رغم أن عائداته كانت كبيرة.

* * *

كان يحدق بالملصق المعلق على الجدار. وكان يقرأ الكثير عن تعلق إرنستو غيڤارا بالمغامرات والرحلات. لكن، ما وراء كل ذلك؟

أهو تعطش للذكريات؟ أم هو طموح لرؤية العالم، أو رؤية البلاد الغريبة بصفة سائح؟ أم هو طموح لمعرفة الناس؟

كان يدرك أن ثمة لحظات نجد فيها ضرورة لنتعمَّق أبعد من المرئي والبدهي. فإذا كنت تريد معرفة نفسك، عليك أن تدرك العلاقة الخفية بين الأشياء، وأن تبحث عن القوى التي تقف وراء هذا العالم وتحركه، حتى لا تترك لها مجالاً للسكينة. وأول خطوة تخطوها في هذا المجال هي الاستعداد لفهم الآخرين ومعرفتهم، وعدم الاستسلام لما يبدو وكأنه قدر عليك إلى الأبد. عندها فقط، يمكنك أن تترك أثراً على هذه الأرض.

في طرقات أميركا اللاتينية

عندما انطلق إرنستو وألبرتو للترحال في دول أميركا اللاتينية، خبأ كل منهما مسدساً في حذائه للدفاع عن نفسه من خطر الحيوانات المفترسة. انطلقا على دراجة نارية، حاملين معهما خيمة يأويان إليها في حال عدم عثورهما على مكان للنوم.

بعد مسير ثلاثة آلاف كيلومتر، تعطلت الدراجة النارية، ولم يتمكنا من الوصول عليها حتى إلى سنتياغو ـ دي ـ تشيلي. فتركاها واستمرا في رحلتهما حاملين خيمتهما في الطرقات الوعرة. لقد بدت الطريق إلى ڤالبارايسو أمام إرنستو من دون نهاية. كانت قمصانهما المبللة بالعرق تلتصق بجسميهما، وحقائب الظهر أخذت تتثاقل مع كل خطوة، رغم سيرهما على سفوح الجبال.

في الطريق، جلسا على إحدى التلال المشرفة على ڤالبارايسو طلباً للراحة، والتمتع بجمال الطبيعة. عندها أنزل إرنستو الحقيبة عن ظهره، وبدا أنه يريد متابعة الترحال بسرور كبير، رغم هذا المسير الطويل والشاق. ثم أشار إلى ساحل ڤالبارايسو، وإلى السفن الراسية فيه قائلاً:

ـ آه، لو أنني أرى نفسي أبحر على إحدى تلك السفن باتجاه جزيرة باسخر. فهذا حلمي الوردي!

لا ينقصنا إلاّ هذا! فكّر الآن كيف تعالج قدميك المتورمتين، وكيف تخرجهما من هذا الحذاء.

ـ ألبرتو، اسمعني فقط: في جزيرة باسخر الرجل الأبيض بالنسبة للمرأة شرف رفيع. أما العمل: فهو أمنية، لأنهم جميعاً يقومون بكل الأعمال. وهي منطقة جميلة، طقسها رائع، ونساؤها تنطق الصخر بجمالها. وطعامها لا أطيب ولا ألذ. باختصار، هناك الجنة التي يتحدثون عنها. لمَ لا نبقى هناك سنة أخرى؟ الدراسة؟ الأبحاث العلمية؟ الواجبات العائلية؟ شكاوى؟ فهناك الجبال والنار.

ـ ها أنت تغوص في الأحلام من جديد! هيا، من الأفضل لنا أن نبحث عن مكان للنوم، وأظن أنهم سيطلبون الكثير مقابل ذلك.

ـ بالنسبة لي، سأبحث عن عيادة في الميناء، فربّما يحالفني الحظ بمن يبحر عبر المحيط.

بعد أن انطلق كل في طريقه، التقيا في المساء.

ـ لقد تبددت أحلامي بجزيرة باسخر كما يتبدد الدخان. فقد سألت جميع من في الميناء، فلن تكون هناك أيّة رحلة إلى الجزيرة قبل نصف عام.

ـ أرى أن حظي لم يكن أفضل من حظك. لقد عثرت على أولئك الأطباء الذين كنا نبحث عنهم باهتمام، لكنهم لم يرغبوا حتى بالحديث معي. فيا للحظ السيِّىء.

توجه ألبرتو في اليوم التالي للبحث عن أطباء آخرين. لكن، دون جدوى. وعند عودته، كان إرنستو يجلس قرب مدخل البنسيون، وهو يطرق في تفكير عميق، كما يدل مظهره، على ذلك وقال بصوت خفيف:

ـ لقد عالجت امرأة عجوز مصابة بالربو.

لم ينطق بغير تلك الكلمات. ثم جلس وحيداً يكتب على دفتره: كانت تلك الفقيرة تستدعي العطف على معاناتها. فالرائحة تنبعث من غرفتها، وتختلط مع الغبار الذي يغطي الأثاث القليل. ناهيك عن نوبات الربو والخلل في نشاط القلب. عندما يصدم الطبيب بهكذا حالة، يدرك أنه يفقد أية قدرة على إيجاد حل؛ لأن ذلك يتطلب تغيير أسلوب الحياة، ووضع حد لهذا الوضع الذي ينضح بالظلم. فهذه العجوز تقدمت منذ شهر بطلب للعمل في مشغل للخياطة. وكانت تتكىء على الطاولات أثناء قيامها بالتنظيف في العمل. ألا تستحق هذه المرأة أن تعيش عيشة إنسانية مكرمة معززة!

عندما يتعرف الفقير على ظروف الحياة الجديدة، تولد في داخله عدوانية يصعب إخفاؤها، عدوانية تجاه أولئك الذين لا يردعون أنفسهم عن نهش الآخرين. عندها، لا يعرف أباً أو أمّاً، أخاً، أو أختاً... ففي الصراع من أجل الوجود لا يوجد إلاّ عامل واحد فقط هو العامل السلبي. أو بكلمات أخرى، هناك موضوع عدواني نقيض لمجتمع الأصحاء. هناك مرض فيه شيء مهين للأصحاء؛ لأن على أصحاب تلك الأمراض أن يطعموا سيدهم.

ففي حياة شغيلة كل بلدان العالم، أولئك الذين يكون أفق أحلامهم في المستقبل الآتي، تكمن المأساة. وتكون واضحة في تلك العيون التي تقارب على الانطفاء، والتي يبرق منها الرجاء والدعاء والتسامح. فهي تبرق بالعيون الناظرة إلى اللاشيء.

إلى متى ستبقى هذه الحالة المبنية على فهم مشوّه للحياة؟ لا أستطيع الآن أن أقدم إجابة عن هذا السؤال. لكن، آن الأوان كي تعي السلطة أن من واجبها تخفيض نفقات الدعاية لرجالها الأخيار، وزيادتها أكثر من أجل تحسين ظروف معيشة الناس.

ما الذي كان بإمكاني أن أقوم به من أجل مساعدة تلك المريضة؟ لقد وصفت لها نظاماً للأكل، وقدمت لها ما كان في حوزتي من حبوب الدرامين. حتى خرجت وهي تدعو لي بالخير، وتنظر إلى أقاربها دون مبالاة.

أغلق إرنستو دفتره، أيُّ جحيم هذا! ألم يحن الوقت حتى يتغير شيء ما لا يمكن الاستمرار على هذه الحال.

عندما توجها إلى الشمال، قررا استطلاع مناجم تشوكيكامات التابعة لإحدى الشركات الأميركية.

ـ انظر إلى هؤلاء الهنود الحمر، لقد جفّت أجسامهم من الجوع.

ـ أشك في أن يعيش واحد منهم أكثر من ثلاثين عاماً. من الواضح أن معظمهم يعاني من مرض في الرئتين، عدا سوء التغذية، وقسوة الطبيعة، والعمل الشاق كل يوم.

حاول إرنستو مع صديقه التحدث إلى بعض الهنود، لكنهم تهربوا. وبدا رجل من بعيد، لا يشبه الآخرين بحجمه، يلاحقهما بريبة، ثم اقترب منهما يسأل عن حاجتهما.

ـ إننا أطباء، باحثون، من الأرجنتين. قررنا استطلاع أميركا اللاتينية.

ـ ليس عندي اعتراض على سيّدين متعلمين. أنا هنا سائق وسكرتير المدير العام، وأقوم بمراقبة العمال كي لا يقوموا بأي تمرد.

تساءل إرنستو بحقد:

ـ معظمهم مرضى؟

ـ نعم، نعم، وبعضهم يشارف على الموت. يموتون كالذباب. نحن هنا بحاجة دائماً لمن يملأ الفراغ. لكن، يوجد الكثير من هذه الأوباش الهندية، وتكفي لوقت طويل.

ـ ألا تخافون من أن تقوم هذه «الأوباش» بتمرد ضدكم في يوما ما؟

سأل إرنستو بقسوة.

لكن، على ما يبدو أن هذا السائق ـ السكرتير كان من الغباوة بحيث أنه لم يدرك نية إرنستو غير الطيبة من وراء هذا السؤال. أو أنه على الأغلب، لم يكن يعتبر أن شابين متعلمين يمكن أن يكونا متضامنين مع الهنود.

وقال ضاحكاً:

ـ وممّ تخاف، هه؟ كل شيء تحت تصرّفي. فليجرؤ أحد منهم على ذلك. حقاً هناك من يلعب بذنبه في النقابة، ويعمل لإعاقة عمل شركتنا، ويحاول الأضراب كلما سنحت له الفرصة. لكنني أعرف كل ذلك. وقد أعطاني المدير بعض النقود، اشتريت بها عجلاً، ودعوت هؤلاء الخنازير المساكين إلى بيتي، لكنهم لا يعرفون كيف يقدِّمون الشكر على هذا التشريف. وبقيت قيادة النقابة وحدها. وهؤلاء الخنازير بعد أن ملأوا معداتهم، حبلت أعينهم. هه، هه، هه!

بعد عدة ساعات، وبعدما أطلّ القمر، توقف إرنستو الذي كان يحمل الخيمة على ظهره، ملأ رئتيه بالهواء، نظر من حوله، لوَّح بيديه، ثم عبَّر عمّا يكنه من غيظ في نفسه:

ـ ها هما وجهان لعملة واحدة! جمال البلد وثروته من جهة، والاضطهاد والتقليل من شأن الإنسان من جهة ثانية.

وانحدرت الأرض ببطء

عبر نظام الغابات المحتضرة

إليك يا ماتشو ـ بيكتشو الذي لا تطال

يا من تحتضن الغيوم على درجاتك الصخرية.

آخر مدينة تلك التي هي جوهر الأرض.

وهناك كما المتوازيان الضريران.

يتهادى الإنسان والبرق

بين خرائب ماتشو ـ بيكتشو قرأ إرنستو لـ «غرانادوس» تلك الأشعار لبابلو نيرودا. لقد هزّت هذه المناطق أعماقه. استنشق الهوءا بعمق، وبدا أنه كان يميز رائحة الأجداد العتيقة. أغمض عينيه مصغياً، فسمع أغانيهم، وعويلهم عندما جاؤوا إلى هنا مختبئين من الإسبان. لم يُكتشف هذا الملجأ في يوم من الأيام. فلم يكن لعين غريبة أن تدركه. هذه المدينة الصخرية المحاطة بالتلال الجبلية، كانت تحميها الطبيعة.

ـ في مكان ما من هنا، يجب أن يكون آخر كنز ذهبي لأجدادنا! قال إرنستو ذلك وعيناه مغمضتان. وبعدما نهض كان العرق يملأ وجهه، لكنه كان سعيداً، سعيداً جداً، كما لو أنه عاد إلى وطن كان قد هجره منذ زمن.

اقترب من بعض الورود كي يشتم عبيقها. كان منظر الزهور، والصخور العارية من خلفه قد جعلاه يسمو، ينتقل إلى عالم آخر، حيث الجمال والأساطير وطبيعة الجنة. تخيل وكأن الأرض ستنشقُّ الآن ليبرز منها محارب هندي أحمر، يحمل بيده مهمازاً ينتهي بكرة ذهبية، يدعوه للقاء قائد القبيلة. وكأن بإمكانهم وضع الخطط لمواجهة المحتلين الإسبان. وتخيل أنه سيلتقي في الممرات الأبدية ـ السرية في ماتشو ـ بيكتشو حسناء هندية بجلدها الذهبي الناعم، ستقدم له النبيذ و...

ـ إنني أموت عطشاً.

أخرج صوت ألبرتو إرنستو من عالم الأساطير.

ـ انظر، في أسفلنا نهر، أتراهن على أن ماءه بارد ومنعش؟ ما رأيك لو انحدرنا إلى هناك. في المناسبة..

لن أذهب إلى الأسفل مهما كانت النتيجة!

قفز إرنستو إلى الأعلى على الأدراج الصخرية، وكان يرفع رجليه إلى الأعلى حتى تقارب وجهه.

ـ أراك تقوم بالتدريب الرياضي هنا يا صاحبي؟

ـ إنك عديم الفهم يا ألبرتو! لم هذه الأدراج مرتفعة هكذا؟ لا يمكن أن تصعد عليها كما تصعد على سلّم طبيعي.

ـ ما رأيك لو بقينا هنا لبعض الوقت؟ اقترح عليه صديقه.

ـ وننصب الخيمة. أومأ إرنستو بفرح. ثم أبعد يديه رافعاً إياهما كأنه يريد ضم ماتشو ـ بيكتشو كلّه وقال حالماً:

ـ القرف، هذا الدرج الضخم يحيِّرني. لقد بني هذا العجيب أناس مثلي ومثلك. انظر إلى هذه البيوت والمعابد! سيأتي يوم يفجر فيه أحفادنا سلاسل عبودية بناة هذه المدينة.

وأخذ الحلم ألبرتو أيضاً:

ـ سأتزوج من ابنة الأمبراطور الهندي، وسأعيِّنك رئيساً للوزراء. سنقوم معاً بثورة اجتماعية!

ـ لن تصنع شيئاً دون نضال. تصوّر: سيتوحد أحفاد هؤلاء الهنود في تجمعات ضخمة حتى يوجِّهون الضربة الانتقامية...

ـ سنلتحق بهم.

ـ بالطبع! وسنستعيد ألبيرو بجيوش الجبارة للهنود الحمر، وستملأ أصوات البشر ماتشو ـ بيكتشو من جديد. وتعلو أصوات الفرح في كل أنحاء البيرو.

لقد قضيا عدة أيام في ماتشو ـ بيكتشو. اهتم إرنستو خلالها بكل ما يتعلق بالحضارة الهندية.

ـ ماذا تريد أن تصبح في النهاية، طبيباً أو مختصاً بالآثار؟

ـ في البداية يجب الوصول إلى كوستو. فهناك توجد مكتبة كما

أظن. أريد أن أقرأ كل ما كتب عن هؤلاء الأجداد، ناهيك عن أن أفضل طريقة لقضاء أوقات الفراغ هي أن تقبع في المكتبة.

لقد وصلا إلى المستشفى بعد عدة أيام من الإرهاق الذي فعل بهما ما فعل: ففي الإحدى عشرة ساعة الماضية، كان المطر غزيراً، ولم يترجلا عن ظهر البغل. سأل إرنستو أحد عمال المستشفى عن إمكانية المبيت إلى حين تحسن الطقس.

ـ ربما يستمر الطقس على هذه الحال عدة أيام، فلن يكون بمقدوري ذلك. لكن، هناك صاحب بيّارة، يسكن على بُعد خطوات من هنا، ربما سيكون سعيداً باستضافة زائرين من الأرجنتين.

بالفعل، كان صاحب البيّارة مضيافاً وسعيداً بضيوفه. وكان الاستقبال ملوكياً: نبيذ، فاكهة، لحوم، خبز طازج. كما قدم لهما الطعام بسخاء، وملابس نظيفة، وفراشاً دافئاً. إنها ظروف ممتازة، يمكن لهما أن يتوقفا عدّة أيام للراحة، ينتظران بها الطقس الجيد، ويجمعان قواهما لاستكمال ترحالهما باتجاه ليما عاصمة البيرو.

عندما كانوا يحتسون النبيذ، حدثهم صاحب البيّارة عن أحواله:

ـ إنني أحتاج إلى الكثير من الأيدي العاملة، ومراقبي العمال. لقد اخترعت طريقة عبقرية في زراعة قصب السكر. فأنا أوزع الأرض على الهنود الحمر كي تفلح كل عائلة قطعة أرض منها. فهم يعملون دون أن يرفعوا أظهرهم، ينظفون الأرض كما يجب. وعندما يصبح العمل على خير ما يرام، وبعد زراعة قصب السكر، أستعيد الأرض منهم، وقد يحظى القليل منهم بجزء من قطعته التي زرعها. لكنني أطرد معظمهم، وأوكل إلى مراقبي العمال بتنظيف الأرض من الأعشاب الحمراء المتبقية. ثم أبعث برجالي لزرع الأرض المحرّرة. بذلك أقتصد كل عام مقدار... سأحسبها الآن...

كان إرنستو قد أبعد عن نفسه كأس النبيذ وطبق الطعام منذ بداية الحديث:

ـ هكذا تتصرف مع الهنود الحمر إذاً، ونحن لنا الطاولة مليئة بالطعام؟ كانت تظهر في صوت إرنستو نبرة تنمّ عن عدم الرضا الواضح.

ـ نعم، ولكن. . . ولكنكما من البيض.

ـ أيها الوغد! إنني أحتقرك! ألا يهمك أمر أولئك المعذّبين الذين يحتضرون من الجوع خلف نوافذ بيتك.

صرع صاحب الأرض من المفاجأة والإهانة، فهبّ واقفاً:

ـ بما أنني رجل حضاري، فلن أضطركما إلى المغادرة تحت المطر. لكن، عندما يصحو الطقس اعتبرا أنفسكما مطرودين من هذا البيت مباشرة.

ـ لا!

ـ ماذا تعني بلا؟

ـ لن ننتظر في هذا البيت حتى يصحو الطقس. قال إرنستو صارخاً. ومن الأفضل لنا الذهاب إلى الغابة حيث الهنود الحمر.

* * *

وصل إرنستو وصاحبه إلى بوغوتا على متن إحدى طائرات شركة الطيران الكولومبية.

ـ ما الذي يريده هذا الـ. . .؟

ـ أعتقد أنه يريد خنجرك يا إرنستو.

ـ خنجري؟ هيا أبعد يدك عني، وانصرف إلى الشيطان.

دفع الجندي إرنستو بطريقة وقحة:

ـ قلت لك هات الخنجر، هيا. ألا يعجبك كلامي!

لا يعجبني، فماذا أنت فاعل؟

هزّ الجندي الكولومبي بندقيته في وجه إرنستو.

ـ ما الذي تعتقده يا هذا، إذا كان في حوزتك بندقية، وعلى كتفك رتبة تستطيع التلاعب يمنة ويسرة. أليس كذلك؟ أتعمل بمبدأ «أفعل ما أريد»؟ قال إرنستو غاضباً.

هدّد الجندي من جديد ببندقيته مصوباً إياها باتجاه إرنستو. لقد تعقد الوضع. فهذا الوقح، يعتقد أن حالة الطوارىء العسكرية تسمح له بمصادرة كل ما هو جارح.

ـ انصرف من هنا أنت وبندقيتك، اختف من أمام ناظري، ولا تجعلني أرتكب خطيئة! قال إرنستو مهدداً الجندي بهذه الكلمات، مما زاد الوضع تعقيداً، وجعل من هذا الجندي وحشاً هائجاً. فالحديث لم يعد يدور حول سكين صغيرة، إنما أصبحت القضية ـ قضية شرف عسكري. وقرر الجندي أن يوجّه لكمة إلى إرنستو. لكنه، ما إن لوّح بقبضته حتى شعر وكأن التنفس قد انقطع، فهمَّ بضربة أخرى، لكنه ما إن أفاق على نفسه حتى وجد نفسه مطروحاً على الأرض وقد جرّد من سلاحه.

اعتقل إرنستو وألبرتو بعد هذه الحادثة بقليل. لكن إرنستو لم يأخذ هذا الحدث بجدية إلاّ بعد زيارة السفير الأرجنتيني لهما في السجن، وعندها أدركا أي مستنقع قد تورطا فيه.

ـ إن انتزاع السلاح من جندي في أوج حالة الطوارىء العسكرية وحده كافٍ لاعتقالكما. لقد رجوت لأجلكما الرحمة. آمل أن أتمكن من مساعدتكما. لكن، عليكما مغادرة كولومبيا فور إطلاق سراحكما. لقد وجهتما إهانة مميتة إلى شرف الجندي، وهو الآن متعطش للانتقام. وربما يشاركه في ذلك زملاؤه.

فحياتكما في خطر.

بعد إطلاق سراحهما، توجها مباشرة إلى مطعم طلابي متواضع، والأحلام الرومانسية بوجبة طعام تملأ معدتيهما تجول في رأسيهما. وهناك، التقيا بمعارفهما القدامى:

ـ أما زلتما على قيد الحياة؟ لقد سمعنا أنكما جردتما أحد الجنود من سلاحه!

ليس نحن من فعل ذلك. أوضح ألبرتو محتجاً على صيغة الجمع.

صمت إرنستو تواضعاً.

ـ يا لكما من مرحين، تحبّان اللعب بروحيكما. عليكما الهرب بأقصى سرعة. لأن أصدقاء ذلك الجندي يملأون المدينة طولاً وعرضاً. إنه الآن لا يراهن على روحيكما. لكن، إذا وقعتما في قبضته، فعلى ذكراكما السلام.

ـ هذا صحيح يا إرنستو، يجب أن نهرب إلى فنزويلا.

ـ أنا لست ضد الهرب الآن، لكن من أين لنا النقود ذلك. يجب العمل في مكان ما ليومين على الأقل.

ـ لا وقت عندكما لذلك. يجب أن تختفيا بسرعة. وأفضل حل هو أن ننظِّم الآن في المطعم حملة تبرعات لكما.

قام بعض الطلبة بهذه الحملة، وجمع كمية تكفي لشراء تذكرتين في الباص الذي يذهب إلى فنزويلا.

في الطريق إلى فنزويلا تعطل الباص، وكان يحتاج إلى بعض الوقت للتصليح. نزل الصديقان على الشاطىء، وجلسا على الرمال الدافئة.

ـ لقد أخذنا نصيبنا من الترحال يا ألبرتو. وحان الوقت للتفكير أين لنا أن نستقر. إنني أشعر بالحنين إلى تلك اللحظة التي أتسلّم فيها شهادتي في الطبّ، وعندها...

ـ أما أنا أفكر في الاستقرار هنا، في مصح كابو ـ بلانكو في ضواحي لا ـ غواير.

ـ إذا تمكنت أنت من إيجاد فرصتك هنا، فربما أعود أنا أيضاً إلى هنا بعد امتحانات التخرّج. وأعمل حيث أنت. وبعد أن نتمكن من الحياة، نبحث عن السعادة في مكان آخر.

ـ أين؟

ـ لديّ رغبة تشدّني إلى غواتيمالا والمكسيك. ثم أضاف إرنستو، وهو يغمض عينيه حالماً: لكم تشدّني ثقافة المايوويين. سأدرسها بجدية هناك.

ـ أوه، أرى أنك لست طبيباً فقط، بل سيكون منك عالم آثار أيضاً. أما أنا فسأبقى في فنزويلا كي أخفف من معاناة الناس قدر الإمكان.

ـ وأنا أريد ذلك أيضاً. لكنني أشك في قدرة مهنتنا كأطباء على ذلك.

نظر ألبرتو إلى إرنستو مندهشاً لما يقوله:

ـ ألم تقل إنك تريد الحصول على الشهادة.

ـ بلى، وأريد أن أمارس مهنة الطب أيضاً. لكنني أرى ضرورة للتغيير. التغيير الحقيقي الذي يكفل القضاء عل مآسي البشر، وعلى أسباب المرض، وهذا لا يستطيع تحقيقه العلاج الطبي وحده.

ـ ماذا تريد أن تقول من وراء ذلك؟

أشار إرنستو بيده إشارة غير محدودة، ثم قال:

ـ أعتقد أن ثروات هذه البلاد من المعادن، ومن الأراضي الخصبة، يجب أن تخدم جميع الناس، لا أن تخدم بعض

العائلات الغنية فقط، أو الشركات الأميركية. فهؤلاء يشكّلون ورماً سرطانياً، لا يمكن القضاء عليه إلاّ باستئصاله النهائي.

* * *

حدّق إرنستو في تلك الرسالة بتمعُّن. لقد عانى الكثير من جراء السفر. وكانت قراءة خط عمّه صعبة جداً.

ظلّ في المطار حاملاً هذه التوصية طيلة خمسة أيام، حتى وجد، أخيراً، الطيار الذي كان عليه أن يسلّمه الرسالة، وهو صديق قديم لعمّه. قرأ الطيار الرسالة مباشرة، ثم قال:

لا اعتراض عندي، يمكنني اصطحابك معي إلى ميامي. ومن هناك سأنطلق إلى بيونس - آيرس.

كاد إرنستو أن يطير من الفرح، لأنها الفرصة المريحة التي أتاحت له المجال كي يعود إلى البيت قبيل بدء السنة الدراسية. لكن، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد حصل تغيير في طريقهم، إذ قضوا شهراً كاملاً في ميامي، حتى أصلح عطل أصاب محرك الطائرة.

* * *

كانت الفرحة تملأ صدره وهو يسير في ممرات الجامعة واضعاً يديه في جيوب سرواله. وبينما كان يقرأ إعلاناً على أحد الأبواب، فجأة عمَّ جسمه ضعف غريب. شعر للحظة وكأنه عصر كحبة ليمون. استنشق الهواء ليملأ به رئتيه، وكان عليه في هذه اللحظة بالذات أن يكون في قمّة نشاطه، لأنها لحظة الوداع للبروفسور سلفادور بيزاني الذي قدم له الكثير.

كان البروفسور يجلس خلف مكتبه يطالع في مجلة طبية عندما

رأى إرنستو. نهض من مكانه ليهنّىء الطبيب الشاب.

ـ عزيزي غيفارا! لا تتخيل كم كنت سعيداً أثناء دراستك التي كانت من نوع خاص. كنت أحسب هذه النهاية الناجحة. لقد تغيبت كثيراً، لكن، يبدو أنك تعرف قدرتك على الدراسة الذاتية. وأنا أعرفك وأعرف هذه القدرة لديك، فماذا عساني أقول لك بعد هذه السلسلة من النجاحات، حيث قدّمت أربعة عشر امتحاناً كاملاً خلال أربعة أشهر. فأنت تهب نفسك لأي عمل تختاره، أليس كذلك؟

ـ لكن، لم يكن ذلك بالأمر السهل. أجاب إرنستو والابتسامة على وجهه.

ـ ماذا تعني بـ «لم يكن ذلك بالأمر السهل»؟ هذا إنجاز رائع. إلى الأمام! هيا نتحدث باقتراحي: أن تقوم بالعمل معي كمساعد في البحوث العلمية. فأنا معجب بعملك. وأصبحت لديك خبرة غير قليلة بعد هذه السنوات من العمل في المختبر. ويمكنك إتمام الأبحاث التي بدأت بها أثناء الدراسة الجامعية. ولن تكون هناك مشكلة، فأنا سأهتم بذلك.

ـ أقدّر هذه الثقة، وأشكرك عليها. لكنني جئت لأودعك أيها البروفسور.

ـ ماذا؟ تساءل البروفسور. هل لديك عمل أفضل؟

ـ لا... قال إرنستو مجيباً. أريد أن أنطلق من جديد في طريق أدرس فيها أميركا اللاتينية. أريد رؤية قارتنا طولاً وعرضاً كي أتمكن من دراستها. وهذا يأخذ مني على الأقل مدة عشر سنوات.

نظر البروفسور إليه نظرة تشكيك.

ـ ماذا أنت؟ طبيب أم مشرد جوال؟ أم أنك تمزح. إذا كان ما تقوله من مزاحك المعهود فهو غير ناجح.

ـ لا. أنا جاد فيما أقول. لقد بعثت إلى صديقي غرانادوس بـ...

ـ غرانادوس! غرانادوس! يكفي أن أسمع هذا الاسم حتى أفهم كل شيء. سيوصلك إلى مصيبة. مثل رحلتكما الماضية التي استمرت ثمانية أشهر في ربوع أميركا اللاتينية، حين تركتما الدراسة. على كل حال أصبح ذلك من الماضي. لكن الآن، اسمع ما سأقوله لك: عندما تصبح طبيباً قادراً من الناحية المادية، اشبع من الترحال. عدا عن ذلك، ينتظرك في أبحاثك العلمية هنا ترحال بما فيه الكفاية.

ـ سأعمل مع غرانادوس في مصحٍ. وأيضاً سأقوم بالأبحاث هناك. قال إرنستو ذلك مظهراً عناده.

إما أن نحقق الحرية
وإما أن نبقى معذّبين

أطل العِكاك الضاغط على (غوياكيل). وتدفق قرص الشمس المتلظي سابحاً على شواطئ (غواياس). انطلق إرنستو من جديد بعد امتحانات التخرج مباشرة. وفي الطريق من بوليڤيا إلى الأكوادور، انضم إليه المحامي الشاب إرنستو روخو وكاليكا.

لقد تعرفوا في غوياكيل على ثلاثة شبان من الأرجنتين، كانوا يرغبون أيضاً في السفر إلى كولومبيا. لكن الرغبة وحدها لا تكفي. فالحصول على تأشيرة دخول إلى كولومبيا يتطلب إبراز تذكرة الطائرة إلى سلطات مدينة بوغوتا. لكن، للأسف، لم يكن مع أي منهم مبلغ من النقود يكفي ثمناً لهذه التذكرة، فاضطروا للبقاء في غوياكيل، واستأجروا غرفة صغيرة فيها سرير واحد. واتفقوا على أن النوم عليه يكون من نصيب أول العائدين إلى الغرفة، أما الباقون فيفترشون الأرض.

أثناء وجودهم في مطعم اتحاد عمال المدينة الصغير، لبحث الظروف الحرجة التي وقعوا بها، تبين أن لدى روخو رسالة توصية من قائد الاشتراكيين التشيليين السلفادور الليندي إلى أحد المحامين. اقترح على أساسها البحث عن هذا المحامي وطلب مساعدة مالية منه. وكان إرنستو مع وجهة النظر هذه، أما الأربعة

الآخرون فهزوا أكتافهم قائلين: «من تراه حتى يساعد جياعاً مثلنا؟».

كانت أبواب مقر اتحاد العمال مشرعة، حيث جلس الأصدقاء في الصالة التي قلّما تهب عليها نسمات خفيفة. أخذوا يحتسون البيرة المثلّجة، مع شرائح لحم الخنزير المحمصة، التي لم تكن مرتفعة الثمن في هذا المطعم، وهذا ما جذبهم إليه رغم وضعهم الحرج.

ـ هيا بنا يا خورخو، ستكون محاولة جادة إذا ما بحثنا عن هذا الحقوقي. قال إرنستو لصديقه. ثم نهضا بعد أن اتفقا مع الآخرين على انتظارهما في المطعم. كان لقاء المحامي مفاجئاً لهما حيث كان للرسالة وقع العصا السحرية عليه، إذ اعتبرهما من الحلفاء، فقدم لهم المساعدة، وبات بإمكانهم متابعة الرحلة...

بعد مغادرتهما مكتب المحامي، كادا يطيران من الفرح. وفي الطريق أخذا يرقصان ويمزحان حتى وصلا إلى المطعم. فصرخ إرنستو:

ـ كل شيء على ما يرام! ست تذاكر مدفوعة الثمن إلى سفينة الموز(*). ست! أريد كأساً من البيرة حالاً، يجب ع يكون مثلّجاً كالجليد.

ـ هكذا إذاً؟ ذهبتما إلى ذلك القانوني؟ سأل أحد الأرجنتينيين.

ـ ماذا تظن؟ قال إرنستو ضاحكاً. هل تعتقد أنني ذهبت من أجل خطوبة؟ قال ذلك وهو مستمر بالضحك طالباً وجبة مزدوجة من شرائح لحم الخنزير. وشرب ما تبقى في كأس كاليكا من البيرة. فاختطف كاليكا الكأس من يده وصرخ:

(*) يقصد بها الإكوادور. (المترجم).

ـ ما هذا؟ أعاجز أنت عن الطلب لنفسك؟

ـ لا.

ـ لماذا، هاه؟

ـ لأنني أنفقت كل ما في حوزتي من المال.

قام روخو بتقديم كأس من البيرة لكل منهم احتفاءً بالتذاكر المجانية.

ـ غيڤارا، هيا بنا إلى غواتيمالا. لكن، بحق جميع القديسين، ما الذي نسيته في فنزويلا؟ هناك، لا يوجد غير تبذير النقود!

أجابه إرنستو بجدية كاملة:

ـ أريد أن أبحث هناك عن صديقي غرانادوس. وأفكر في أن أعمل كطبيب عام في أحد المستوصفات، وفي الوقت نفسه أقوم بالأبحاث العلمية..

ـ أهذا كلام؟ وتشدك الأبحاث أيضاً؟ ألم تقل منذ فترة غير بعيدة إنك تريد دراسة الأماكن الأثرية في غواتيمالا، لأنه يمكننا أن نرى فيها ما هو أكثر أهمية ومتعة. حيث توجد فيها الآن ثورة حقيقية، وإصلاح زراعي، وعمل جادّ وواسع من أجل القضاء على الأمية، شيء ما حقيقي تحرك في بقعة ميتة. لقد بدأ اليانكي بفقدان سلطته وتأثيره. هيا بنا معاً، ولو لمدة شهرين على الأقل، بعدها تطير إلى غرانادوس، وتقوم بما يحلو لك.

ـ حقاً لديّ رغبة جامحة في السفر إلى غواتيمالا ـ قال إرنستو ـ وأرى هناك ثورة حقيقية. لكنني وعدت غرانادوس.

ـ هاه، هل أنت مخطوب له أم ماذا؟

بقيا يتحاوران حتى نام القيظ وغابت الشمس.

ـ أرجو الانتباه! غطى صوت إرنستو على عموم الهمهمة ـ التهرب من رؤية الثورة الحقيقية شيء مخجل. وعلى صديقي غرانادوس أن ينتظر. فإلى غواتيمالا!

ردّد الجميع بصوت عالٍ:

ـ إلى غواتيمالا! عاش الرئيس إرينس[*]!

يمكنني أن أساهم في الثورة كطبيب.

ـ عمل مقدّس.

ـ لذلك يجب أن نشرب. هل بقي مع أحدكم شيء من المال؟ قال إرنستو.

ـ أنا أرهن ساعتي.

ـ إذاً، نطلب ست كؤوس من البيرة!

طالت الجلسة حتى احتج صاحب المطعم. ولم تكن لديهم رغبة في العودة إلى تلك الغرفة الضيقة. وفي الطريق علّق أحدهم على موضوع النوم:

ـ كيف سننام هذه الليلة؟ ها نحن نعود معاً، وليس بيننا من سبّاق إلى السرير، فكيف ستتدبر أمرنا؟

اشتم إرنستو أن الظرف يسمح له، ولو لمرة واحدة، بالنوم العميق في سرير منفرد. صحيح أن الحر في هذا القفص الكبير لا يطاق. لكنه لا يؤدي إلى الشعور بالقرف إلى تلك الدرجة التي يشعر فيها أثناء النوم في تلك الغرفة ـ الزنزانة حيث الحر إضافة إلى رائحة العرق المنبعثة من أجسادهم يعتبران تعذيباً بحد ذاته.

ـ تعالوا نرى سروالي الداخلي، يمكنه أن يقف في أي مكان تضعه فيه. قال إرنستو.

ـ هاه، أنت بنفسك تقف على رجليك بصعوبة.

ـ لكن سروالي الداخلي يقف بقوة حديدية.

ـ أرغب في أن أراه بنفسي.

(*) إرينس: رئيس جمهورية غواتيمالا في ذلك الوقت.

خلع إرنستو ملابسه، وألقى بسرواله إلى الزاوية. بعدها خلع سرواله الداخلي، وقال:

ـ سروالي قذر إلى درجة يستطيع معها الوقوف كالعمود في أي مكان.

كان إرنستو كالساحر، لقد عرض سرواله على الجميع ووضعه على الأرض. وبالفعل، وقف كأنه مشمّع. وما إن كان الجميع يمسحون الدموع عن أعينهم من كثرة الضحك، حتى كان إرنستو في السرير، وأمّن بذلك ليلة هادئة إذا ما قورنت بالليالي السابقة. وهو يقول:

ـ مع الوقت، سأعلّمه على المشي أيضاً.

* * *

كانت الأيدي تتقارب وتتلامس، ثم تفترق من جديد أثناء حديثهما. كانت تتلامس تكراراً، لكن الفراغات بينها كانت تتسع ببطء. تتحرك لا شعورياً، وتتجه الواحدة نحو الأخرى دون توجيه. كانا يتحدثان عن أمور مختلفة تماماً. وينظر أحدهما إلى الآخر نظرات مليئة بالجدية.

ـ لا، لقد بعثت الثورة البوليفية اليأس في نفسي. تخيّلي، لقد طالب الهنود الحمر هناك بإعطائهم قطعة أرض واحدة فقط. لكن، أجاب الموظفون برشّهم بمسحوق أبيض يشبه الـ د.د.ت. لقد فكرت أنني سأنتهي في هذا المكان. سألتهم: ماذا يعني ذلك؟ شرح لي أحد هؤلاء المستخدمين أن هذا العمل ضروري كي لا يجلب الهنود الحمر الحشرات الضارة إلى المكتب. حتى أنك لا تتخيّلين كيف احترقت غضباً. هذه الثورة طريق غير الطريق التي أبقى من أجلها هناك، حيث...

قاطعته إلدا قائلة:

ـ لكن يا إرنستو، من غير الصحيح أن تحكم على ثورة من

خلال مواقف متفرقة وعشوائية. ثم تضع عليها علامة x؛ لأن واحداً منهم فقط لم يستوعب ما جرى. بحسب وجهة نظري، إن مبعث الذعر الذي يقبل المقارنة هو أنهم لم يصفوا مثلاً مسألة التبعية للاحتكارات الأميركية، وأنهم يستخرجون المواد الخام ليشترونها بضاعة جاهزة من الدول التي تصدر إليها. ثم من جديد، أين المفرّ من أن الولايات المتحدة هي المستورد الأساسي لقصديرهم، وهو كما تعلم، يشكّل المادة الأساسية في بوليڤيا.

زاد إرنستو حاجبيه تطيباً:

لِمَ لا يبيعون قصديرهم إلى الاتحاد السوفياتي، حتى يتخلصوا من قبضة التروستات الأميركية القاتلة.

ضحكت إلدا بشكل مفاجىء بصوت عال.

ـ ما بكِ؟ هل قلت شيئاً ينمّ عن غباء؟ أو شيئاً يدعو إلى الضحك؟

ـ لا يا إرنستو. طبعاً لا. اللهم إنني كلما تذكرت لقاءنا الأول لا أتمالك نفسي من الضحك.

ـ هاه. . . أنا لا أتذكر من ذلك اللقاء سوى أنني أحسست نفسي مصاباً بالجرب، وانتظرت نوبة الربو اللعينة.

ـ هكذا كانت المسألة بالضبط. ولهذا السبب ربما كنت تجلس كديك أصيل متفاخر! لقد اعتقدت منذ ذلك الوقت إنك مخلوق تحب نفسك جداً. كنت تجلس طول الوقت نافخاً صدرك، صامتاً، لا تعلّق إلاّ بنعم أو لا فقط. آخ، كم أثرت حنقي في ذلك اليوم. طبعاً! يخطر على بالي أن منظرك كان من أجل السيطرة على نوبة الربو. ناهيك عن أنني عندما رأيتك على تلك الحال قلت في نفسي: «إنه مغرور بنفسه زيادة عن اللزوم. لكنه، يمكن أن يكون ذكياً أيضاً».

قهقه إرنستو، لكن، استمرت إلدا في متابعة كلامها:

ـ فيما بعد، وفي لقائنا الثاني فقط، تملّكني الإعجاب، وغيرت حكمي عليك، عندما عبّرت عن وجهات نظرك السياسية. وما زاد في إعجابي علاقتك بمهنة الطب، حيث تحدثت عنها بشكل رائع قائلاً: إنك كطبيب لن تخدم الطبقة الغنية بأي شكل من الأشكال، وإنك لن تعالج أولئك المرضى الذين لا يفكرون إلاّ بأنفسهم، تماماً كأولئك الذين تأتي أمراضهم من التخمة.

ـ إلدا، إذا كان هذا يعجبك، ويلفت انتباهك، فبإمكاني أن أعرض عليك الصفحات الأولى من مقالاتي. لقد استعرضت فيها وضع الطبيب في بلدان أميركا اللاتينية. ولهذا بالذات تجولت ـ كما تعلمين ـ في كثير من البلدان. لقد كتبت عن المساعدات الحكومية القليلة في ميدان الخدمات الطبية. وحاولت أن أستعرض وضع هذه الخدمات التي لا تزال حتى اليوم في حال تدعو إلى البكاء.

بعد هذا اللقاء. غاب إرنستو عن إلدا عدة أيام. «أتراها لاحظت غيابي؟»، كان إرنستو يفكر بذلك عندما كان يديرقرص الهاتف ليطلب رقم معهد تطوير الاقتصاد الوطني لغواتيمالا.

ـ أرجو الاتصال بالسيدة إلدا، قسم البحوث الاقتصادية.

ـ أنا إلدا، مع من أتحدث؟

ـ إلدا؟ أنا إرنستو. لم أستطع زيارتك، وحتى مكالمتك عبر الهاتف بسبب الربو الذي لم يتركني. أريد أن أراك.

ـ أنا سعيدة بذلك. لكنني لم أعرف ماذا حصل لك. سأحضر بعد انتهاء الدوام.

ـ هذا لطف منك. إلى اللقاء.

أخذ يحدّث نفسه، وهو يضع سماعة الهاتف: لا شك أنني أعني شيئاً ما لإلدا.

عند وصولها إلى باب البنسيون الذي يقع في الشارع رقم 5، حيث يستأجر إرنستو غرفة هناك، شهر باقتراب نوبة الربو من جديد. وهو يلقي التحية عليها، شعر بارتفاع الضغط في الرئتين، فشهق شهقة الغريق وهو يعب الهواء عباً. أخذ يفكر لا شعورياً، هذه النوبات هي عملية إخراج للهواء المؤكسد من الرئتين. فجأة بدا وكأنه يختنق، وتورم وجهه، وبدا عليه رشح.

ـ إرنستو، عليك بالاستلقاء حالاً! تابعته إلدا باضطراب شديد.

ـ عظيم، لقد وصلت. إنني أتنفس بصعوبة. يجب أن آخذ حقنة وأعود.

ـ سأساعدك على صعود السلم.

حاولت إلدا أن تأخذه بيدها. لكنه أبعدها. وصعد ببطء شديد: «لا أريد شفقة! لا أريد!». هذه الفكرة دفعته لصعود السلم وحده وهي تطرق رأسه.

أخذ يصعد السلم درجة درجة من دون توقف، حتى وصل إلى الغرفة. وما إن فتح الباب حتى اندفع نحو السرير. لكنه لم يستلقِ عليه، بل اتكأ إلى الحائط.

ـ ربما لو استلقيت ـ قالت إلدا.

ـ لا، ستسوء حالتي لو فعلت ذلك. لو سمحتِ أعطني الحقنة. إنها ملقاة على الطاولة.

أثناء تحضيره لساعده، شعر وكأن التنفس أصبح مستحيلاً. حاول إدخال الإبرة في ساعده الأيسر.

ـ يا لشيطان الوريد؟

صرّ أسنانه وهو يحاول إدخال الإبرة مرة ثانية، لكنه لم ينجح إلاّ في المحاولة الثالثة.

ـ أرجوك، ادخلي الدواء في الوريد.

كان قلبه يدق. فجأة، تملّكه ذعر شديد. لكن، كان عليه أن

يتمالك أعصابه مهما كلّف الثمن.

أخذ الأرونالين يتسرب إلى الوريد ببطء شديد، واستغرق الحقن مدة دقيقتين. وعندما لاحظ توقفه، انتزع الحقنة من يده بقوة، حتى سقطت عل الأرض. وأخذ التنفس يعود إلى طبيعته بشكل تدريجي.

ـ ماذا عساني أفعل لك يا إرنستو؟

ـ لا شيء، لا شيء. سيكون كل شيء على ما يرام. هذا الدواء ذو تأثير سريع.

* * *

كان يقرأ باهتمام شديد، وشفتاه تتحركان وكأنه يتحدث مع نفسه. ومن حين لآخر يلقي بالكتاب جانباً، ويسجل شيئاً ما. لكنه لم يلحظ قدوم إلدا.

ـ ماذا تفعل يا إرنستو؟

قفز إرنستو من مكانه، وضم إلدا بفرح، ثم قال مجيباً:

ـ أترجم كتاباً لغرالد أوايت إلى الاسبانية.

ـ غرالد أوايت؟ من تراه يكون؟

ـ كتب كتاباً عن الماركسية. إنه Gringo(*) جيد. لقد أثارت الرأسمالية غضبه، وهو يريد أن تكون الدنيا مختلفة تماماً عما هي في بلاد اليانكي، وهذا ما شدّني إليه، إضافة إلى أنني آمل في الحصول على بعض النقود من وراء الترجمة.

ـ انظروا؛ أمترجم أنت شيئاً؟

أبدى إرنستو اعتراضه بحركة من يده. ثم سألته إلدا عن كيفية عثوره على خوسيه بوسادس. فهو يقود عمل معسكر لتربية الأحداث من أطفال ومراهقين.

(*) هكذا يسمى سكان الولايات المتحدة في بلدان أميركا اللاتينية.

ـ لقد جمع أولئك الذين هربوا من بيوتهم، أو الذين يعيشون من وراء السرقة. على كل حال، هذا ليس ذنبهم، بل هو قضيتهم. لقد ساروا في هذه الطريق المغلوطة بذنب المجتمع، فهو الذي اضطرهم للسير عليها نتيجة الظروف القاسية التي وجدوا أنفسهم فيها. إذ لو كانت هناك ظروف أخرى لنشأ أناس يتصرفون بشكل طبيعي.

ـ الحق، حق ـ قال إرنستو ـ وأنا أعتقد أن هؤلاء الأطفال ليسوا سوى ضحايا الجوع، والأمية، واللامبالاة التامة من طرف المجتمع. من هنا منبع الجريمة. لذلك بالذات، يحرم البلد من القوى القادرة على العطاء.

ـ خوسيه بوسادس يبحث عن مخرج من هذا الوضع، ففي سان خوسيه ـ دي بيثول ظهرت مدينة أطفال حقيقية، ويريدون. . .

ـ مدينة أطفال.

ـ بالضبط، ناهيك عن موقعها ذي الطبيعة الخلابة فعلاً.

ـ ما رأيك في السفر إلى هناك يا إلدا؟ أتمنى لو تتعرفين على هذه التجربة، وتتعرفين على خوسيه بوسادس، أي تضربين عصفورين بحجر واحد. ثم، إذا كان الأطفال هناك مرتاحين من الصراع من أجل البقاء، ألا يعني ذلك أن إنساناً جديداً ينمو؟

كان معظم زوار البنسيون الذي يحمل اسم «سرفانتيس» ضيوف إلدا وإرنستو، كانوا يريدون رؤية إلدا لأنها تعمل في قطاع الوزارة، وغالباً ما تصلها المعلومات والأخبار أكثر من غيرها. كما كان من بين الزوار كوبيون وبعض الطلبة.

ـ أليس انتزاع الأراضي من هذه العجيبة الخضراء(*) خطأ؟ سيعتبر اليانكي أن في ذلك محاولة للإطاحة بالحكومة.

(*) المقصود بذلك «يونايتد فروت كومباني» (الولايات المتحدة). (المترجم).

كان هذا السؤال من قبل أحد الطلبة مدعاة لضحك إلدا.

ـ منذ تأسيس الحكومة عندنا حدثت أربع وعشرون محاولة من قِبل الـ «يونايتد فروت» لتحقيق ما تقوله. لكن في كل مرة، كان يجري كشف المحاولة ويتم إفشالها.

ـ لم يكن ذلك بفضل جهاز الأمن فقط ـ تدخل إرنستو في الحوار ـ إنما، بحسب اعتقادي، بسبب الصفوف الكاملة من البروليتاريا والفلاحين الذين امتشقوا السلاح لضرب المتمردين. لكن، يجب أخذ الحذر الشديد، لأن صحف الولايات المتحدة تزخر بالشتائم ضد غواتيمالا، وتصفها بـ «الأخطبوط الشيوعي في أميركا اللاتينية!»، و«يد موسكو!». وما إلى ذلك من الاختلاقات المنتشرة، التي لن تكون من دون هدف بالطبع!

كل ذلك هراء! ففي غواتيمالا لا توجد حتى سفارة سوفياتية. والإصلاحات الجارية تحمل بالأساس طابعاً رأسمالياً، وتتعزز مواقع القطاع الخاص. والرئيس إرينس يسعى إلى إرجاع الأرض والقوى العاملة إلى البلد فقط.

ـ يبدو أن هناك محاولة لإجراء إصلاح زراعي ـ قال أحد الطلبة ـ فقد سُنّ قانون أخذت الأجور تدفع على أساسه، وهذا لا تقبل به التروستات الأميركية؛ لأنها ستضطر إلى دفع الضرائب التي لم تكن تدفعها منذ وجودها على هذه الأرض! ناهيك عن محاولة انتزاع ملكية مئة وسبعين ألف هتكار تابعة للـ «يونايتد فروت».

علّقت إلدا على ذلك قائلة:

ـ لكنهم بالمقابل، أخذوا التعويض الذي قدّروه بأنفسهم.

ـ إنه سخف! قال إرنستو غاضباً ـ كان الثمن مخفضاً بشكل

واضح. لقد قدّروا ثمن الأرض بشكل منخفض جداً، حتى يتهربوا من دفع الضرائب الباهظة المطلوبة منهم.

* * *

لقد جهَّز أرماس(*) عدداً من المأجورين والمرتزقة في الهندوراس. ويقال إنه يتسلّم شهرياً من الولايات المتحدة حوالى 150 ألف دولار ينفقها على الجيش وعلى التسليح. لقد أوكلت إليه مهمة الإطاحة بحكومة إرينس.

اهتم إرنستو بذلك، وتساءل:

ـ أكثير من الغواتيماليين يعملون تحت إمرته؟

ـ يقال إنهم ليسوا بكثير! بل أكثرهم من بلدان أخرى، وأغلب المرتزقة من الأميريين، ولديهم طائرات مقاتلة وطيارون. لقد أثاروا الضجيج لأن الحزب الشيوعي يعمل بشكل علني، وبشكل خاص، كونه شارك في الانتخابات.

ـ لكنه لا يحتل إلاّ أربعة مقاعد في الكونغرس.

ـ لكنّ إرينس يتعاون معه.

بعد نقاش طويل، خرج إرنستو بصحبة إلدا للتنزه، وهو متوتر الأعصاب. كانا يسيران وإرنستو يضمّها إلى جنبه، والنسمات المسائية تقوم مقام المهدّئ. توقفا في الطريق للحظة، والصمت يلفهما، شعر إرنستو خلالها أن الوضع السياسي يشكل له خواطر شيطانية لذلك، رغب في ضمّ إلدا، لأنه شعر بها سنداً ودفئاً.

* * *

فُتح الباب فجأة، وكاد يهوي على الأرض، ثم اقتحم الغرفة نيكّو الكوبي. كان ثائراً من شدّة الغضب.

ـ الأوغاد! الأوغاد! عصابات أرماس هاجمت غواتيمالا من

(*) الرئيس المخلوع.

أراضي الهندوراس. لقد بدأت اللعبة علناً، وأفلت اليانكي كلابه من عقالها.

ـ لا داعي للاضطراب! قالت إلدا بهدوء ـ من المحتم أن الجيش سيقوم بواجبه.

ـ عن أي واجب تتحدثين! لقد أمر إرينس الجيش بعدم التدخل في المعركة.

أخذ نيكو يحرك قبعته وهو مضطرب، وانفكأ إرنستو إلى المذياع.

ـ لقد بدأوا بإطلاق النار على النواب وعلى النقابيين. والملفت للنظر أن أول ما قاموا به هو احتلالهم للمنطقة الزراعية التابعة للـ «يونايتد فروت».

ـ لماذا لا يدفع إرينس بالجيش لصد الهجوم؟ تساءلت إلدا بعجب.

ـ لأنه جبان! صرخ نيكو.

ـ ليس الأمر كذلك! رفع إرنستو يده معترضاً ـ إنه يعرف أن الهندوراس تنتظر أية فرصة حتى تثبت ودّها وحسن نيّتها تجاه الولايات المتحدة. والنظام في الهندوراس لا يخطو خطوة واحدة إلاّ بعد تأشيرة من أسياده أصحاب الاحتكارات الأميركية.

ـ هل تتوقع أن يقوم إرينس بالتنازل عن جزء من الأرض إلى عصابات أرماس؟ تساءلت إلدا.

ـ نعم، أنا أضع هكذا احتمال. لكن، المهم أن نقوم بكل ما نستطيع فعله من أجل صدّ المرتزقة ومنعهم من التوغل في أرض غواتيمالا.

لم يكن نيكو حتى هذه اللحظة قد سيطر على نفسه وتحكّم بأعصابه الهائجة، فصرخ بصوت عال:

ـ أنا لا أفهم لماذا احتاجت «اليونايتد فروت» إلى قطاعي

الرؤوس من مرتزقة أرماس، بينما العدو موجود داخل العاصمة؟ فسفير الولايات المتحدة متخصّص من الدرجة الأولى في تدبير الانقلابات، كذلك في إقامة الديكتاتوريات! ولديه اتصال مباشر مع أرماس، لأن مساعدته بالذات مكّنت أرماس المخلوع من الحصول على آليات ووسائل هجومية أخرى.

شدّت إلدا يد إرنستو بعصبية.

ـ ماذا علينا أن نفعل الآن؟ ماذا؟

ـ سندخل في التعبئة العامة ونقاتل. ماذا يمكننا غير ذلك.

* * *

كانت ألسنة اللهب تنتشر في كل مكان، وفي جميع الاتجاهات، وترتفع طموحة إلى السماء. أما أسطح المنازل المبنية من القشّ والقصب فقد تهاوت إلى الطريق. وكانت الأمواج البشرية تحاول قدر طاقتها إطفاء النيران المشتعلة. لكن، هيهات هيهات، فلم يتمكنوا إلاّ من إطفاء زاوية واحدة من الطريق. لقد قصفت مقاتلات أرماس العاصمة، ونالت طرق المواصلات الرئيسة حصّة الأسد من القصف المتواصل.

قام إرنستو بالمساعدة على تأمين الذخيرة للمدافع المضادة للطائرات. كان يختار أثقل الصناديق ليحملها، وينقلها من الشوارع التي امتدت إليها النيران. لكنه شعر بغثيان من رائحة القنابل المتساقطة وشدة ضغطها.

ـ إرنستو! لا يمكنك المرور من هنا! هيا نلتف من الجهة الثانية! صاح به أحدهم.

كاد أحد الضباط الهاربين أن يركل إرنستو برجله دون أن يراه. لكن إرنستو أمسك به من كتفه، بعد أن عرف رتبته، وصاح به قائلاً:

ـ أريد الذهاب إلى الجبهة! أريد أن أحمل سلاحاً! أريد أن أقاتل أذناب الـ «يونايتد فروت».

ألقى عليه الضابط نظرة غير متفهمة، ودفعه جانباً، ثم سار متهدلاً نحو الأمام.

ـ إنكم ترتكبون خطأ قاتلاً! صرخ إرنستو بالضابط وهو يلحق به. يجب تسليح الشعب! الشعب!.

* * *

ألقى إرنستو نظرة من النافذة، فوجد إلدا تدخل باحة المنزل. لقد تعجب من عودتها المبكرة، على غير عادتها.

ـ الأمور تسير من سيء إلى أسوأ! فالجيش يرفض القتال ضد المرتزقة، وقادته يطالبون إربنس بالتنازل عن الحكم، ومنع الحزب الشيوعي من النشاط العلني، واستبعاد جميع نشطائه من النقابات.

ـ ليس إربنس غبياً إلى هذا الحد حتى يوافق على هكذا شروط.

ـ لقد وعده الضباط بالقتال في حال موافقته على ذلك، والمحافظة على النهج السياسي الرسمي للحكومة. وهم يعتمدون على الكنيسة.

ضرب إرنستو الطاولة بقبضة يده من شدّة الغضب، وكاد فنجان القهوة أن يسقط على الأرض بعد أن علا في الهواء.

ـ هذه كلها من ألاعيب سفير اليانكي، قال إرنستو غاضباً ـ كل ذلك نظّمه بإبداع، وإربنس لم يستطع تسليح المتطوعين في الوقت المناسب. وهو الآن لعبة في يد الجيش الذي يتعاون مع أرماس، علناً، عبر السفير الأميركي.

لقد تنازل إربنس عن منصبه، وسيطرت طغمة عسكرية على السلطة. وأول ما قامت به هو منع نشاط الحزب الشيوعي، وبدأت حملة اعتقالات وإعدامات واسعة شملت كل البلاد.

جلس إرنستو، كما لم يعهده أحد من قبل، واضعاً رجليه على المنضدة، مكتفاً يديه على صدره، وبدا جموحاً متمرداً. كان نيكو يتمشى في الغرفة بعصبية. أما إلدا فكانت تحاول السيطرة على أصابعها المرتجفة. فجأة، علّق إرنستو ببرودة قائلاً:

ـ نفّذ السفير المهمة بإتقان، وبدت نهاية حلم شعوب أميركا اللاتينية.

ـ لماذا قام إربنس بالتخلي عن منصبه والشعب إلى جانبه لماذا لم يقاوم؟

ـ أنا أعتقد أنه توقّع انتهاء كل شيء، بالفعل، إذا منع الحزب الشيوعي من العلنية.

قالت إلدا مفسّرة. لكنه لم يفهم الدور السياسي للحملة الواسعة ضد الشيوعية.

ـ كما أنه لم يقيّم دور الجيش والكنيسة الكاثوليكية...

سُمعت عدة طرقات على باب بنسيون «سرفانتس». تبادلوا نظرات مضطربة، لم يستطيعوا إخفاءها. من تراه يكون؟ هل قدموا في طلب هؤلاء لعلمهم بمشاركتهم في القتال ضد أرماس؟ أم أنه مشكوك بهم كأجانب؟

توجّه إرنستو إلى الباب، فوجد أمامه السفير الأرجنتيني:

ـ أنا أبحث عن السيد إرنستو غيڤارا.

ـ إن من تبحث عنه هو أنا.

دخل السفير إلى الغرفة، وطلب إقفال الباب بالمفتاح. وبدا كهارب يبحث عن النجاة. نظرته غير الواثقة توقفت على إلدا ونيكّو.

ـ إنهم أصدقائي. قال إرنستو موضحاً.

قال السفير بعد تردد:

ـ لديّ حديث هام. أحمل معلومات، على أساسها تكون

حياتكم في خطر يا سيّد غيڤارا. لقد أدرجتك المخابرات المركزية الأميركية في القائمة السوداء كشيوعي. وستكون معرضاً للإعدام رمياً بالرصاص في ظل هذا الوضع.

أربك الخبر إرنستو. لكنه حاول السيطرة على أعصابه.

ـ أشكركم على إشعاري بذلك.

ـ أنصحك بالتسلّل إلى مبنى السفارة في أسرع وقت ممكن. وأنا سأبذل ما في وسعي لتأمين عودتك إلى الأرجنتين.

ـ إنني على استعداد للجوء إلى السفارة في حال وجود ضمانة لحياتي هناك. لكنني لست متأكداً من رغبتي في العودة إلى الأرجنتين بالذات.

عندما وصل إرنستو إلى السفارة، وجدها مزدحمة بالباحثين عن ملجأ هناك: من غواتيماليين وكوبيين وأرجنتينيين. لقد قسّموا إلى مجموعتين: ديمقراطيين وشيوعيين. ومن دون تفكير عميق توجه إرنستو إلى مجموعة الشيوعيين لوجود نيكّو واقفاً هناك.

ـ إلى أين تنوي السفر الآن يا إرنستو؟ سأله نيكّو.

ـ إلى أقرب دولة يمكنني أن أنجو فيها من أخطبوط المخابرات المركزية الأميركية ـ إلى المكسيك.

* * *

وجد في عاصمة المكسيك عملاً في مستشفى، لكنه لم يكن يعتزم الاستقرار هناك بشكل نهائي. إلاّ أنه بقي بانتظار إلدا، التي كانت في ذلك الوقت ملقاة في أحد سجون غواتيمالا.

استأجر شقة متواضعة له ولإلدا. كان يقضي معظم وقته في المكتبة، يقرأ بانشداد وتلهّف نيرودا، وخوسيه مارتي، ولينين، وأرنست همنغواي، وكارل ماركس.

كم كانت سعادته كبيرة عندما التقى صدفة في أحد ممرات المستشفى بصديقه ورفيق دربه نيكّو. وبعد أن تعانقا طويلاً،

توجها إلى منزل إرنستو، وبقيا حتى ساعة متأخرة من الليل يتجاذبان الأحاديث والذكريات.

كما كانت سعادة نيكّو عظيمة للقائه في المكسيك رفاقه القدامى في النضال من الكوبيين. واقترح على إرنستو أن يتعرّف إليهم.

ـ بالتأكيد ستتعرف على راؤول كاسترو، إنه شاب عالمي، ولن تستطيع إلاّ أن تحبه. لقد أمضى فترة من حياته في سجون كوبا لمشاركته في الهجوم على ثكنة مونكادا. كما حاولوا توريطه بتهمة تفجير دار للسينما.

* * *

تناول إرنستو فطوره بشكل سريع، وأبعد الطبق جانباً وهو يهمّ بالوقوف. لكن، أمسكت به إلدا قائلة:

ـ أكمل فطورك. لديك الوقت الكافي لذلك.

هزّ إرنستو رأسه معترضاً، وقال:

ـ سأذهب إلى الجدة ماريا. ربما يكون بإمكاني مساعدتها...

ـ لكن، ليست وحدها في المستشفى!

إنها تنتظرني.

أمسكت إلدا بالسكين، وأخذت تحركها فوق طبق الطعام من دون هدف، وهي تنظر بثبات إلى الطاولة. تقدم إرنستو منها عدة خطوات. عانقها، ثم ابتسم قائلاً:

ـ أتشعرين بالغيرة يا إلدا؟

هزّت رأسها، ثم استعادت وضعها السابق قائلة:

ـ دائماً وفي كل مرة على هذه الحال: الجدة ماريا! الجدة ماريا! في الصباح تغادر البيت وتسرع إليها. وبعد عودتك من العمل لا تتحدث إلا عن وضعها الصحي. حتى في منتصف الليل، تنهض من فراشك مسرعاً إليها لتطمئن إلى صحتها من

جديد. ألا تعتقد أن في ذلك مبالغة؟ فللصبر حدود، سواء فعلنا ذلك أم لم نفعل.

ـ لا يا عزيزتي إلدا، إنها امرأة عجوز مسكينة. ليس لها أحد في هذه الدنيا سوى ابنتها وأحفادها الثلاثة. لقد عاشت حياتها من دون أن تعتمد على أحد سوى على نفسها. حياتها مرّة: فقر وجوع منقطعا النظير. لم تعرف شيئاً في حياتها سوى هذه الآلام. وهذا نتيجة للاستغلال والقهر. لقد تحملت معاناة شعبها. لذلك يجب أن تشعر بتقديرنا لها حتى لو كان ذلك قبل الموت. ولهذا أريد أن أكون إلى جانبها.

مكثت إلدا جالسة على مقعدها كتمثال صامت. ثم رمقت إرنستو بنظرة قائلة:

ـ إرنستو، أرى أنك وضعت كل اهتمامك بتلك الجدة ماريا، لأنك تشعر بفراغ، وعدم ارتياح. لقد تحملت الكثير بسبب السفر المتلاحق. ناهيك عن تجربتك في غواتيمالا. كما أنني أراك تغرق في كتب ماركس ولينين. لكنك تتجاهل مسألة في غاية الأهمية ألا هي: أنه من غير المحتوم على معارفك الواسعة أن تتحول إلى ممارسة. وأنت لا تدري كيف تستخدمها. وكي لا تتحول إلى شخص سيء، إلى نمر هائج في قفص، أخذت باختلاق علاج لنفسك، هو الاهتمام بالمرضى.

تلقى إرنستو نظرتها باستغراب. فقد دهش من قدرتها على جعله يشكك بنفسه. واعتقد أنها تعرفه حقّ المعرفة، بعد أن سمّت الأشياء بأسمائها، وبعد أن حدّدت القضايا بوضوح تام. فلم يجد إجابة مباشرة، لكنّه هزّ كتفيه، ثم عقّب قائلاً:

ـ ربّما تكونين على حق. فقد كنت أود وضع كل قدراتي وخبراتي كطبيب في خدمة الثورة. لكن، أين هي الثورة؟؟!

وهكذا غادر دون إكمال فطوره. وبعد عودته بدا وجهه

مكفهراً. عندها شعرت إلدا في سرّها أن المنيّة وافت الجدّة ماريا.

ـ لا تزال على قيد الحياة ـ قال إرنستو ـ لكنني أستبعد صمودها حتى الليل، ولا توجد أية وسيلة لإنقاذها. سأعود إلى المستشفى حتى أكون بالقرب منها ساعة الوداع.

ـ حسناً، افعل ما يريحك. لكن، ليس بالراحة النفسية وحدها يحيا الإنسان. بل من الضروري أن تتناول شيئاً من الطعام، وأن تستلقي ولو قليلاً.

ـ سأتناول شيئاً من الفاكهة.

ماتت الجدة ماريا في تلك الليلة، وهو جالس إلى جانبها. عبّر عن مشاعره بأسطر من الشعر ذيّلها بالأبيات التالية:

السلام على رفاتك يا ماريا العجوز
السلام على رفاتك أيها المحارب القديم
اقسم أن أحفادك سيجدون فجراً جديداً!.

* * *

لقد توطدت العلاقة بسرعة بين راؤول كاسترو وإرنستو. فكلاهما كان في المكسيك بعيداً عن وطنه، وكلاهما كان يعيش مرارة الهزيمة. والاثنان كانا ينضحان حقداً على طغاة أميركا اللاتينية. وكلاهما كان طموحاً لتنظيف القارة من استغلال الاحتكارات الأميركية الوحشي. كانا يلتقيان مرّة في الأسبوع، وبشكل منظّم.

كذلك استطاعت إلدا أن تجد لغة مشتركة مع صديق إرنستو الجديد، لكثرة ما كانت نقاشاتهم تستمر حتى الصباح.

كان راؤول مقتنعاً ـ حتى العظم ـ من إمكانية انتصار الثورة في كوبا. بالرغم من فشل الهجوم على ثكنة مونكادا، واعتقال منظمي الهجوم لفترة طويلة. وكان راؤول لا يتوانى عن ترداد:

ـ لقد تعلمنا الكثير بعد الاقتحام الفاشل. فتلك الأخطاء لن

تتكرر بعد اليوم. وسنقوم بمحاولة جديدة، خصوصاً أن هذا النضال مهم جداً ليس لكوبا فقط، بل لأميركا اللاتينية بأسرها.

كان إرنستو يشعر بانتعاش في كل مرّة كان يتحدث بها راؤول عن السمة الأممية للثورة: «تحرير أميركا اللاتينية بكاملها... تقديم مثال... عدم تكرار الأخطاء التي وقعوا بها في غواتيمالا وبوليڤيا والمكسيك... على الثورة أن تحمي نفسها...».

قال راؤول معبراً عن مشاطرته الرأي:

ـ إن من شهر السلاح مرّة واحدة في وجه الامبريالية لا يمكن أن يسقطه من يده، وإن فعل فالامبريالية ستحفر قبره.

لقد ترك اختلاط إرنستو بالكوبيين أثراً عميقاً في نفسه. فالحزم والعزيمة الفولاذيان يملآن صدر هذا الشاب راؤول. وكل الذين اختلط بهم من الكوبيين المحيطين به، تركوا لديه انطباعاً أنهم أناس يملكون ما يكفي من البطولة لترجمة طموحاتهم إلى واقع.

علم إرنستو من راؤول أن أخاه فيدل قد وصل إلى المكسيك قبل فترة قصيرة للقائهما الأول في بيت ماريا أنتونيا. وهي امرأة كوبية من مؤيدي «حركة 26 تموز»، سرعان ما تحول منزلها إلى قاعدة عسكريّة تمتلىء بصناديق الأسلحة، والكتب التثقيفية، وزجاجات الوقود. للوهلة الأولى بدا لإرنستو أن هذا البيت مجرد محطة مرور للكوبيين. وأن أحداً منهم لم ينوِ البقاء طويلاً فيه. إنما هو عبارة عن مكان لإعادة ترتيب أوضاعهم بعد فشل عملية مونكادا العسكرية.

إن أول ما لفت انتباه إرنستو بفيدل كاسترو تلك العينان اللتان كانتا تحيطان بكل ما يدور حوله. وتشاركان بنشاط في الحديث، من خلال تأثيرهما وعكسهما لانطباعاته:

ـ يسعدني أن أراك محرراً.

شدّ فيدل على يده مجيباً:

ـ وقع باتيستا[*] في خطأ قاتل عندما أطلق سراحنا. فهو يشعر بأمان وارتياح بعد أن عرض طيبة قلبه أمام الناس. لقد أصدر عفواً عاماً تحت ضغط النضالات الحثيثة للجماهير الكوبية العريضة. وهذا الحدث يعني عنده أنه ليس بإمكاننا الضغط عليه من الخارج. حيث بإمكانه تدميرنا! لكن، إما أن نحقق الحرية أو نبقى معذبين!

لقد استمر الحديث طيلة الليل، استرسل فيه فيدل بحديث مفصّل عن الأشهر التي قضاها في السجن.

ـ لم يكن السجن مضيعة للوقت. فقد مارسنا التثقيف الذاتي، واستطعنا تحويل السجن إلى مدرسة للكادر. حتى أننا قرأنا «رأس المال» لكارل ماركس، وناقشناه.

ـ كيف اتفق لكم تهريبه إلى داخل السجن؟

ـ كان ذلك أمراً سهلاً. لقد حجزنا الكتاب بشكل رسمي. قلنا للحرس إننا نريد أن نصبح أعضاء صالحين في المجتمع. وعندما يصدر العفو عنّا سنعمل في التجارة. فاعتقدوا أن «رأس المال» منهاج ضروري لموظفي البنوك ورجال الأعمال.

رأى إرنستو في ذلك تاريخاً ممتعاً، فضحك من أعماقه. وهذا الفيدل أعجبه. فهو لم يكن يتمتع بشجاعة وحزم منقطعي النظير فحسب، وإنما كان صاحب نكتة أيضاً.

لقد ظهر اسم فيدل في وسائل الإعلام لأول مرة عندما قاد اضراب العمال الزراعيين ضد والده. وكان أحد قادة الجناح اليساري في حزب الشعب الكوبي. وناضل ضد مهادنة حكم الديكتاتور باتيستا، وفي تموز من عام 1953، قام مع أعضاء حركته باقتحام ثكنة مونكادا العسكرية في مقاطعة سنتياغو ـ دي ـ

(*) باتيستا: حاكم كوبا حتى ثورة 1959 المظفرة بقيادة فيدل كاسترو ورفاقه. (المترجم).

كوبا بهدف تطوير النضال. وكان يمكن لهذه المحاولة أن تكون بداية انتفاضة مسلحة، لكنها منيت بالفشل. رغم ذلك، لم تتأثر مكانته السياسية قيد أنملة، بل على العكس من ذلك، ازدادت جماهيريته نتيجة لهذه المحاولة.

كل ذلك كان معلوماً لدى إرنستو من أحاديث راؤول وكوبيين آخرين. لكن الفترة التي قضاها مع فيدل نفسه جعلته يعرف الكثير عنه، ويكوّن انطباعات أوسع مما سمع. فهذا الإنسان لايشكك في إمكانية تشكيل فرقة كاملة تذهب إلى كوبا، وتوجه ضربة قاضية إلى ذلك الطاغية، وتنهيه إلى الأبد.

لقد أصابت إرنستو عدوى التفاؤل عند فيدل، رغم ما يبدو للوهلة الأولى من عدم قابلية ذلك للتحقيق، وأنه دون فائدة. لكن مسألة النصر. بدت في أحاديث فيدل وكأنها شيء مفروغ منه. نعم، بصحبة هكذا إنسان لا تخاف الانطلاق إلى وهج النار أو إلى أعماق البحر.

وعلى الرغم من الشك الذي كان ينتاب إرنستو عن واقعية الفكرة، إلاّ أن التفاؤل دخل إلى أعماقه. وأصبح على استعداد تام للقتال من أجل تحرير أميركا اللاتينية. ولتكن نقطة الانطلاق من أية بقعة في هذه القارة.

* * *

في ذلك المساء، قدّما هديّة لنفسيهما ـ سهرة في مطعم. فالإنسان، في نهاية الأمر، لا يتزوج كل يوم. وبينما كان إرنستو يعضّ على عظم ـ وهذا أحب الأشياء إليه ـ كانت إلدا تطلب زجاجة أخرى منَ النبيذ الأحمر.

بعد أن انتهى إرنستو من التهام كل ما كان في صحنه من الطعام، قال:

ـ كم كنت أرغب في أن يكون فيدل شاهداً على قراننا. لكن للأسف، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

ـ وكيف ذلك؟ ألن يحضر عقد القران حتى يكون شاهداً؟

ـ قال لي إن أوراقه الثبوتية ووثائقه ليست على ما يرام ـ أسرّ إرنستو لإلدا ـ لكنه يرغب في حضور الحفل. وطبعاً ليس بشكل رسمي، لأن مباحث المكسيك وكوبا والولايات المتحدة تلاحقه في كل مكان. فيجب أن يكون حذراً كالشيطان. وراؤول يستطيع القيام بمهمة الحراسة كما أن خيسوس مونتانه سيحضر من أجل ذلك أيضاً.

قرأ إرنستو في عيني إلدا سعادة كامنة، ولمحة حزن أيضاً:

ـ أتدري يا إرنستو، أشعر في بعض الأحيان بخوف من هذا القران. ورغم كل شيء أبقى أكبر منك بعشرة أعوام، حتى يخيّل إليّ في بعض الأحيان أنني أمك...

أخذ إرنستو يديها بين يديه وقال:

ـ أتدرين يا إلدا، تمرّ عليّ أوقات أشعر فيها أني بحاجة حتى إلى أم.

* * *

حضر فيدل ضيافة إرنستو وإلدا. وكان له مع إلدا حديث عن قضايا الثقافة والتراث، سرعان ما انتقل إلى موضوعه المحبب ـ الثورة الكوبية.

ـ حت لو افترضنا أن المسألة كما تقول ـ قالت إلدا ـ إذاً، لماذا أنتم هنا، وليس في كوبا؟

ـ سؤال جيد. كما ترين، بعد أن قام باتيستا بإطلاق سراحنا، وبعد أن أخذ يتباهى بطيبته في كل زاوية، وبعد أن حاول الحصول على أكبر رأسمال سياسي ممكن من وراء العفو العام، وجه في الوقت نفسه حرسه وعيونه علينا. كذلك حاولوا إلصاق

تهمة تفجير مبنى السينما براؤول. لهذا بالضبط كان أول القادمين إلى هنا. أما أنا فقد كتبت عدة مقالات في صحيفة «لاتاليه» السياسية، ويبدو أنها لاقت نجاحاً كبيراً، إذ ارتفع عدد النسخ المباعة من الصحيفة إلى عشرين ألف نسخة. عندها أغلق باتيستا الصحيفة، فتوجهت إلى وسائل إعلام أخرى. لكن، تمّ الحظر على الإذاعة والتلفزيون وكافة الصحف، ومُنعوا من القيام بنشر أو استخدام أي مقالة من مقالاتي. واتسعت الحملة لتشمل كافة المعادين للنظام، الذين يقفون بصلابة في صف المعارضة. فكيف يمكنني أن أتحرك في هكذا ظروف؟ ناهيك عن سؤال يطرح نفسه، وهو: أيّ بلد هذا، وأية ظروف؟ لذلك يجب تشديد النضال من أجل تغيير الوضع القائم، لا أن ننتظر المنّ والسلوى!

ـ وحدكم ضد دولة بكاملها؟ تساءلت إلدا باستغراب.

ـ لقد قال خوسيه مارتي ما معناه: إن جوهر المسألة لا يكمن في: كم من السلاح تملك في يدك، وإنما كم نجمة في السماء تريد أن تصطاد! وهكذا أرى المسألة. أما النقاشات البيزنطية، والمهازل، فقد ولّى زمانها، وحان وقت العمل. ربما تعتقدين أنني أبني قصوراً في الهواء! أو تتجمع حفنة من الرجال، وتركب السفينة ـ وهذه ثورة! لا. فنحن لا نناضل بدلاً عن الشعب، إنما مع الشعب. وفي ذلك بالضبط تمكن قوتنا. لقد شكلنا «حركة 26 تموز» قبل مغادرتي كوبا، وهي لن تكون مجرد تغيير في الاسم لذلك الإطار الذي يضمني مع أصدقائي الذين اقتحموا الثكنة. أوه، لا! في البداية، بلغنا عدة آلاف حتى ذلك الوقت، ومنذ ذلك الحين أخذ عددنا يتزايد، وانضمت إلينا عدة منظمات. ومع انضمام: أرماندو خارتا، وفرانكا بايسي، وخاوستينو بيريس، ومناصريهم، حققنا انضمام ثوريين حقيقيين. وهكذا جمعنا قوانا ودخلنا في حزب الشعب الكوبي.

فكّر فيدل للحظات، ثم استرسل قائلاً:

ـ أتعتقدين أنني أبالغ في حجم لا أساس له في الواقع؟ في المؤتمر الأخير للحزب، قام فاوستينو خارنا، في بداية المؤتمر، بقراءة رسالتي أمام المندوبين، تلك الرسالة التي قلت فيها إن الكفاح المسلح هو الوسيلة الثورية الوحيدة القادرة على الإطاحة بالديكتاتورية. فصفّق لها وقوفاً خمسمئة مندوب من كافة أرجاء كوبا. وأقرّت الرسالة في البرنامج. فالكراهية المتعاظمة ضد باتيستا تدفع للبحث بديناميكية ونشاط فائقين، عن مخرج للبلاد من هذا الوضع المتعفن. وبعد المؤتمر، بدأت القيادة الحزبية تعمل كل ما في وسعها من أجل ترجمة قراراته وتوجهاته على أرض الواقع. ومن جهة ثانية، ظهرت جاهزية النضال ضد باتيستا بشكل عميق وواضح، وهذا هو المهم. فما هو المطلوب الآن، بالاستناد إلى القاعدة الجماهيرية المجمعة على كراهية باتيستا، هو تحديد مهام المستقبل بوضوح، وعندها فقط يمكننا المراهنة على النجاح أيضاً!

ـ حتى لو افترضنا أن هناك حزباً واحداً اتفق على هذه المهام. فهل هذا يكفي؟

ـ ليست القضية قضية حزب واحد، إنما في مدى قدرتنا، نحن الثوريين على التعبير عن آمال شعبنا وطموحاته، وفي مدى تنسيق خطواتنا مع هذه الآمال.

قال ذلك فيدل، وهو يرفق حديثه، بين الحين والآخر، بحركة من يده.

يوجد الآن في كوبا ما يزيد على سبعمائة ألف عاطل عن العمل، وخمسمائة ألف عامل زراعي يعملون في ظروف يرثى لها. كما خفّضت رواتب أربعمائة ألف عامل وموظف. أما في التعليم، فنسبة الأمية وصلت إلى 40%. والخدمات الطبية حدّث

ولا حرج، فالمستشفيات، كما المدارس، وجدت لمن تسمح له جيوبه المنتفخة بالدخول إليها. هذا هو واقعنا، كما هي الحال في غواتيمالا أو البيرو. واعلمي يا إلدا أن هذا الواقع موجود في كافة بلدان أميركا اللاتينية دون استثناء. فمن يتمكن من حيازة ثقة الشعب، ويبرهن على استعداده لتقديم حياته في النضال، فإن الشعب سيسير وراءه حتى نهاية المعركة. وشعبنا يتمتع بتقاليد غنية فيما يخص العمل المسلح. وإذا رأى قضية أو هدفاً عادلاً، فإنه مستعد للقتال ضد الطغيان حتى النهاية.

ـ لكن الدعم الجماهيري لا يأتي بسهولة ـ علق إرنستو.

ـ لا، طبعاً. أجابه فيدل ـ ولهذا بالضبط يلزمنا تنظيم فولاذي. وعلينا أن نبذل ما في وسعنا من أجل رصّ صفوف كافة القوى التي تعلن عن استعدادها للنضال ضد الديكتاتورية.

رغم كل ذلك، لم تغيِّر إلدا نبرتها المشككة:

ـ أوَليس بالإمكان اتباع وسائل سياسية في النضال ضد الديكتاتورية؟ العمل المسلح! هل يُعقل أن لا بديل عن هذه الطريقة، وكأنها سنّة؟

ـ آه، لا شك أننا ندرك أيضاً أهمية النضال السياسي ضد باتيستا. إذ من دون النضال السياسي لا يمكن الحديث عن عمل مسلح فعّال. فنحن لا نسعى من أجل التمرد أو العصيان فقط، بل نسعى مع الشعب وسلاحنا بأيدينا، وسنقود المعركة ضد الديكتاتورية. وهذه المسألة تعتبر في غاية الحساسية والأهمية. أما فيما يتعلق بسؤالك: هل هناك ضرورة للعمل المسلح. أليس هذا ما تقصدينه من ملاحظتك يا إلدا؟

ـ بالضبط.

ـ لقد وصفت لك منذ لحظات ما قمت به قبل قدومي إلى المكسيك، وخصوصاً قضايا التحالفات، وتأكيد أهمية العمل

المسلح كنهج نضالي. وهذه هي مهمة جميع المناضلين بالفعل ضد باتيستا، وليس بالقول والحلم. وهنا ينطرح سؤال: كيف يمكننا التقيد في النضال بأساليب سياسية فقط؟ وكيف يمكن أن يكون هذا النضال ذو الوجه الواحد؟ علينا أن ننظر إلى المسألة من جوانبها كافة، فهناك أناس يتحدثون عن العودة إلى الحياة الديمقراطية والعمل عبر الانتخابات العامة. فلنفترض أن هذه الانتخابات جرت، فأية انتخابات ستكون تلك التي يمسك بكل خيوطها باتيستا؟ ستتحول إلى مهزلة ليس لها مثيل. يوجد حل واحد وحيد هو: انتخابات من دون باتيستا، ومن دون جهاز قمعي. ولم لا يكون ذلك؟ لكن، من يقتنع أن باتيستا سيتنازل عن الناي الذي صنعه لنفسه، أقصد كوبا؟ ومن يقنع أنه سيحيل شركاءه وأتباعه، القتلة والسفاحين، الساديين المتلذذين بالعنف، والذين يشكلون حرسه الخاص، من يقتنع أنه سيحيلهم على التقاعد؟ هذا كله حلم يفتقر إلى أي أساس واقعي، إنه قصر في الهواء، يتلاشى عند اصطدامه بصخرة الواقع. لذلك، يجب أن نناضل. ولن نحقق العدالة بالابتهال والتضرع والتعاويذ. وعلى الشعب بالذات أن يقوم بهذه المهمة ـ مهمة النضال!

ـ لكن، كم من الضحايا ستسقط ثمناً لهذا الصراع؟

ـ أرجوك يا إلدا. افهميني جيداً: فنحن لن نبخل بدمائنا، لا أنا ولا أي رفيق من رفاقي، من أجل قضية سامية. ونحن لا نبحث عن سيجار من أجل المشاجرة. وأنا أحقد على العنف، لكن، بما أن القوة والعنف الدموي استخدما لفترة طويلة ضد شعبنا الكوبي، فأنا أختار هذا النضال.

ـ هل تستبعد إمكانية القضاء على هذه الثورة من قبل جنود باتيستا؟

وجّهت إلدا سؤالها إلى فيدل، لكن إرنستو شعر وكأنه موجه إليه.

ـ طالما أن القهر موجود، فسيكون هناك من يناضل ضده. لقد مرّت على أكتاف أجدادنا ثلاث حروب ضد الاسبان، حتى تمكنوا أخيراً من الانتصار. وانتصروا لأنهم ناضلوا من أجل هدف سام ـ من أجل الحرية. لقد سقط خوسيه مارتي، لكن الاستقلال كان حليف شعبه. وعلينا أن نكمل طريقه النضالية!

ألقت إلدا نظرة مراقبة على فيدل، وهو يتابع فكرته:

ـ ربما تبدو كلمات قاسية يا إلدا. فإن سألتني لماذا أناضل؟ فسأجيب: لأنه لا يمكنني أن أنظر بلا مبالاة إلى طفل يتسكع جوعاً، ولأنني أتمزق ألماً عندما أرى شحاذاً، ولأنني لا أتحمل الظروف اللاإنسانية التي يحيا بها الإنسان في وطني بشكل قسري.

ـ ربما كانت تلك قسمة مكتوبة على شعوب أميركا اللاتينية!

كان من الممكن أن يلحظ شيئاً من الخبث في ثنايا كلمات إلدا.

ـ للأسف، هذه الفلسفة الجبرية منتشرة بشكل واسع. قال فيدل مجيباً، وفي عينيه شيء من الحزن. لكن، هذا لا يعني أنها حقيقة أبداً. فنحن سننتصر، وستكون أولى مهماتنا: إجراء الاصلاح الزراعي. وسنعطي الأرض لمن يزرعها، وستعود حقوق العمال إلى حيويتها وقانونيتها. بالإضافة إلى وضع قانون يحمي العاملين من وحش البطالة. وسنخفض أجور السكن، هذه المشكلة المرعبة يضطر العامل فيها إلى دفع 20 ـ 30% من أجره إلى الرأسمالي بمثابة أجرة سكن. كما أننا سنعمل على تأمين الطاقة الكهربائية، وكل مصادر الطاقة الأخرى. بالإضافة إلى تأميم شركات الاتصال والبرق. عندها نشرع في تصنيع البلد، والدستور يستعيد مضمونه الصحيح وفاعليته. من أجل ذلك سيكون إلى جانبنا كل الشعب الكوبي. وإذا استشهدنا، سيرفع الآخرون سلاحنا، ويستمرون في الطريق، مثلما نسير نحن على

ـ طالما أن القهر موجود، فسيكون هناك من يناضل ضده. لقد مرّت على أكتاف أجدادنا ثلاث حروب ضد الاسبان، حتى تمكنوا أخيراً من الانتصار. وانتصروا لأنهم ناضلوا من أجل هدف سام ـ من أجل الحرية. لقد سقط خوسيه مارتي، لكن الاستقلال كان حليف شعبه. وعلينا أن نكمل طريقه النضالية!

ألقت إلدا نظرة مراقبة على فيدل، وهو يتابع فكرته:

ـ ربما تبدو كلمات قاسية يا إلدا. فإن سألتني لماذا أناضل؟ فسأجيب: لأنه لا يمكنني أن أنظر بلا مبالاة إلى طفل يتسكع جوعاً، ولأنني أتمزق ألماً عندما أرى شحاذاً، ولأنني لا أتحمل الظروف اللاإنسانية التي يحيا بها الإنسان في وطني بشكل قسري.

ـ ربما كانت تلك قسمة مكتوبة على شعوب أميركا اللاتينية!

كان من الممكن أن يلحظ شيئاً من الخبث في ثنايا كلمات إلدا.

ـ للأسف، هذه الفلسفة الجبرية منتشرة بشكل واسع. قال فيدل مجيباً، وفي عينيه شيء من الحزن. لكن، هذا لا يعني أنها حقيقة أبداً. فنحن سننتصر، وستكون أولى مهماتنا: إجراء الاصلاح الزراعي. وسنعطي الأرض لمن يزرعها، وستعود حقوق العمال إلى حيويتها وقانونيتها. بالإضافة إلى وضع قانون يحمي العاملين من وحش البطالة. وسنخفض أجور السكن، هذه المشكلة المرعبة يضطر العامل فيها إلى دفع 20 ـ 30% من أجره إلى الرأسمالي بمثابة أجرة سكن. كما أننا سنعمل على تأمين الطاقة الكهربائية، وكل مصادر الطاقة الأخرى. بالإضافة إلى تأميم شركات الاتصال والبرق. عندها نشرع في تصنيع البلد، والدستور يستعيد مضمونه الصحيح وفاعليته. من أجل ذلك سيكون إلى جانبنا كل الشعب الكوبي. وإذا استشهدنا، سيرفع الآخرون سلاحنا، ويستمرون في الطريق، مثلما نسير نحن على

درب النضال التحرري الذي سار عليه خوسيه مارتي ورفاقه. لقد صاغ خوسي مارتي المبادىء النظرية الأساسية، وقام بتعميق فكر سيمون بوليڤار حول أميركا اللاتينية، من أنها جوهرياً أمة واحدة. وأشار أيضاً إلى أن النضال في كوبا متمم لنضالات شعوب أميركا اللاتينية الأخرى. كما حذّر من خطورة التبعية للولايات المتحدة، لأنها تهدد حرية كل بلدان أميركا اللاتينية. وتبعاً لروح هذه المبادىء نكمل المسيرة.

بعد مغادرة فيدل، جلس إرنستو بالقرب من إلدا، اقترب منها صامتاً، وأخذت أصابعه تداعب وجهها بنعومة متناهية.

ـ إرنستو، إنني أفهمك، وأتخيل نفسي مكانك. لكن، بالرغم من كل شيء، فمن الصعب عليّ أن أستوعب كل ذلك. لقد فكّرنا في السفر إلى الهند، أو بالأحرى، كان بودي أن أسافر إلى الهند. وكنت ترغب في السفر معي إلى الصين. كنا قد عقدنا العزم على التجول في أوروبا وأفريقيا. لكن أوضاعنا المالية غير مشجعة، وكنا قد قررنا تسويتها معاً، فمن السهل عليك أن تصبح بروفسوراً بفضل أبحاثك الطبية القيمة، ولو حصلت على هذا اللقب نستطيع تحقيق أحلامنا.

استمر إرنستو في صمته.

ـ إرنستو، ستترك امرأة حاملاً. سأبقى وحدي مع الطفل، مع طفلنا.

ـ أعرف ذلك يا إلدا. صدِّقيني، لم يكن قراري بتلك السهولة، لم يكن سهلاً أبداً، لكنني لا أستطيع التصرف عكس ذلك.

وقفت إلدا، وألقت بنظرتها عبر النافذة، موجهة ظهرها له، وهي تراقب بزوغ الفجر.

تحسست بطنها بكفَّيها، الجنين لم يتحرك. اقترب إرنستو منها وضمها قائلاً:

ـ أرجوك يا إلدا أن تفهميني. أنا لا أملك الحق في أن أتصرف وكأنني لا أفهم شيئاً من هذه الحياة. لقد درست هذه القارة جيداً، وأحست بجمالها الجنوبي، كذلك بالاستغلال الشيطاني الذي يملأها. هذا الاستغلال الذي يجب عليّ تصفية الحساب معه. فلا يمكنك أن تطلبي مني خداع نفسي!.

* * *

دخل إرنستو الغرفة وهو يصرخ:

ـ إلدا، لديّ مفاجأة!

أخذها من يدها، وهي مرهقة من الحمل. سار بها نحو المقعد المثقل بالكتب، كما هي حال زوايا الغرفة. رمى بالكتب على الطاولة، وهي متعددة العناوين ما بين روايات سوفياتية وكتب اقتصاد وأعمال، وأبحاث طبية.

ـ اجلسي. لقد اشتريت لك الأسطوانة التاسعة لموسيقارك المحبب بتهوفن.

كانت إلدا تتحسّس الجنين.

ـ إرنستو، إنه يتحرك.

لم يكن لإرنستو أن تحسس بعد ولو مرّة واحدة حركة ولي العهد. مد يده، لكنه لم يتحسّس أيّة حركة.

كانت في تلك الأيام تجري، دون كلل، استعدادات فرقة كاسترو للحرب الأنصارية. ومع ذلك، كان إرنستو يقضي بعض أوقاته في لعب كرة القدم، وكرة السلّة، وفي مطالعة كتب الاقتصاد. لكنه لاحظ أثناء تدريباته الأخيرة أنه لم يعط انتباهاً كافياً لإلدا، ورغم ذلك، بقي مشدوداً للحملة القادمة على كوبا.

ـ ألن تدير هذه الأسطوانة،. ماذا تنتظر؟ قالت إلدا بعد أن نفد صبرها.

اقترب إرنستو من الجهاز، وكأنه يحمل بين يديه شيئاً مقدساً.

وضع الإبرة فوق الأسطوانة، وعلا في الغرفة صوت موسيقى الجاز. ارتسمت على شفتي إرنستو ابتسامة، أعقبها بحركات راقصة من يديه.

نظرت إليه إلدا دون أن تعي شيئاً مما يدور حولها.

ـ ماذا حلّ بك يا إلدا؟ ألم تعجبك الموسيقى؟ أن بتهوڤن من الدرجة الأولى كما أعتقد.

ـ أعتقد ذلك. لكن تمهّل، عليك أن توصل الجهاز بمكبر الصوت، وإلاّ أنت تستمع إلى المذياع فقط!.

* * *

يجب أن يصل رفيقهم الجديد الآن، في تلك اللحظة التي كان فيها الجنرال بايّو يقرأ محاضرة نظرية. وصل الجديد بصمت. انضمّ إلى المجموعة، وجلس بهدوء يستمع إلى المحاضرة.

أعاد إرنستو كل ما قاله الجنرال بايّو، وركّز على اللغة العسكرية، والمصطلحات التي لم يكن يعرف عنها الرفاق إلاّ القليل. كان إرنستو يترجم بعض الكلمات العلمية إلى لغة بسيطة يفهمها الجميع. ألقى نظره على الرفيق الجديد، فدهش من المفاجأة، إنه يعرفه، لكن أين؟ في الوقت نفسه كان الزائر ينظر إليه بملء عينيه. لكنهما استمعا إلى المحاضرة دون انقطاع حتى النهاية. وما إن انتهت المحاضرة حتى توجّه كل منهما نحو الآخر.

ـ ألست أنت إرنستو غيڤارا؟

ـ بالضبط، واسمك أنت سلاي!

ـ بالضبط. منذ متى انضممت إلى «حركة 26 تموز؟

ـ ليس منذ وقت طويل، بعد وصولي إلى المكسيك.

اقترب منهما الجنرال بايّو:

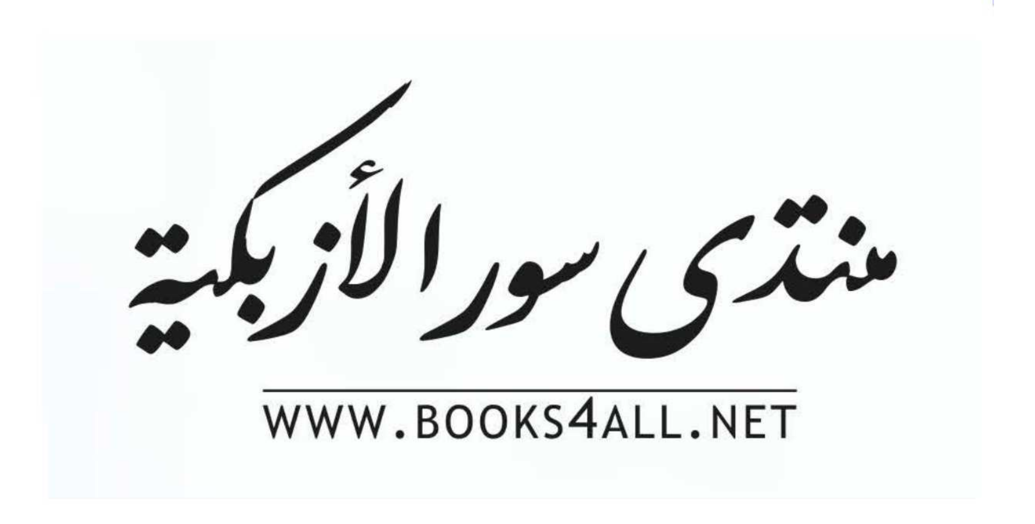
ـ مَنْ؟ معارف قدامى من معارك غابرة؟

ـ ربما هذا الكلام كبير. قال إرنستو ضاحكاً. لقد تعارفنا في منزل والده، الذي كان ملتقى الثوار من كل أميركا اللاتينية. توقفت فيه أثناء قدومي إلى المكسيك، وكان بصحبتي بعض الغواتيماليين. لقد قضينا ليلة في الحديث عن الأحداث المؤلمة في غواتيمالا.

فكّر بايّو قليلاً، وهو يمسك بلحيته، ثم قال:

ـ إذاً، أنت أرجنتيني وأنت مكسيكي. كم هو رائع أنكما ترغبان في المشاركة لتحرير كوبا.

ـ نحن من أميركا اللاتينية. قال إرنستو، ثم استرسل: وكوبا الآن هي المكان الذي اختمرت فيه ظروف أفضل لقيام الثورة. لقد حان الوقت لعمل جديد بعد هزيمة غواتيمالا. وأنا على استعداد للقتال ضد الطغاة في أي بلد كان. ولمَ لا يكون هذا البلد كوبا؟


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

«إما الوطن وإما الموت!»

كانت ليلة عاصفة، حتى أن السفن الكبيرة منعت من الخروج إلى عرض البحر. وبدت على سطح الماء بقع تشكلت من رذاذ المطر المتعانق مع مياه البحر بعد طول غياب.

سار اثنان وثمانون رجلاً نحو ميناء توسبان، كانوا يسيرون بخطوات هادئة وهم يحملون على أكتافهم الأثقال. هناك في الميناء، كان يرسو «غرانما»، ذلك اليخت الأبيض المزيّن، الذي تبلغ حمولته القصوى ستين شخصاً. لقد سجِّل في إدارة الميناء كسفينة تستعمل من وقت لآخر لصيد الأسماك.

كانت عملية الشحن صعبة للغاية، لم يشعل النور، وابتل الرجال بالماء. لكن، لم يسمع صوت واحد من أولئك الرجال، أما إرنستو فقد حاول جاهداً السيطرة على سعاله:

ـ هل ستسير الأمور كما يجب؟ تساءل في نفسه، فهذا عدد كبير من الرجال على سفينة صغيرة، ناهيك عن صناديق الرصاص والسلاح الثقيلة. أما الطعام، فلم يبق له من مكان. والخروج إلى سطح السفينة ممنوع إلاّ عندما نصبح في عرض البحر. يجب ألا يرانا أحد، وإلاّ من الصعب أن يصدق حرس الميناء أن اثنين وثمانين رجلاً غادروا على هذا اليخت الصغير طلباً للصيد.

مدّد صندوقاً على سطح الباخرة، ومسح وجهه المبلل بكمِّه: «يا للشياطين، لقد نسيت! قال إرنستو في نفسه بعصبية، الآن سيرفع الربو حرارتي، ونسيت المكيف اليدوي، كم من مرَّة ذكّرتني إلدا به. لكن، أنّى لي أن أتذكره في معمعان التحضيرات والمسائل المهمة التي كان يجب إنجازها».

ـ هيا! لم يبق لدينا وقت. بالنسبة لبقية المواد الغذائية، على كل حال، لن يكون لها مكان.

كانت كلمات فيدل بمثابة الدافع للرجال إلى داخل المركب، فأخذوا يتدفقون إلى المركب. ووصل القسم الأول منهم إلى سطح السفينة، لكن البقية لم تعترض على ذلك نظراً لضرورة التزام الصمت.

هل سيتمكن هذا المركب المثقل من التحرك خارج المرسى؟ وهل سيصل إلى المكان المحدد في الموعد المحدد؟

بدأ الرفيق الميدا، صاحب البنية الصغيرة، بعدِّ الرجال ليتأكد من وجود الجميع قبل الانطلاق.

سحب راؤول كاسترو أحد صناديق الذخيرة، وقال مردداً كلمات فيدل: «إما أن نتحرر أو نبقى معذّبين» أليس كذلك؟

ـ احذر الصندوق.

وقع قسم من الصناديق على الأرض بسبب اتكاء أحدهم عليها.

ـ اصمتوا الآن!

قطع المركب أحد عشر ميلاً دون إشعال أي ضوء. وساد جو جديّ في مختلف الكابينات. جلس المقاتلون بوجوه تعبة من جراء الحمولة الشاقة. كما أن كلاً منهم ترك شيئاً ما في الوطن: زوجات، أطفالاً، أعمالاً. وينتظرهم نضال شاق لا ينتهي، إلاّ بنتيجة واحدة: إما النصر وإما الشهادة.

عند وصولهم إلى كوبا، ستبدأ ضدهم حرب شعواء، كأنها موجهة ضد وحوش. لكن، عليهم أن يبقوا على قيد الحياة من أجل تحطيم جيش باتيستا. خرجت هذه الكلمات من فم فيدل ببساطة متناهية، رغم أن القليل منهم لديه خبرة قتالية.

شعر إرنستو بقلبه يدق، أيمكن أن يكون هذا صوت المطر المتساقط؟ أم أن أمرهم اكتشفته سفينة مكسيكية تحرس الميناء؟ فهل من المستبعد أن تبدأ باطلاق النار عليهم لحظة خروجهم من الميناء؟ لقد كانت الحمولة في المركب بما لا يدع مجالاً للهرب أو للاختباء.

لكن، من الواضح أنهم يسيرون، حتى الآن، بحسب الخطة المرسومة، إذ تخطوا شبه جزيرة يوكاتان، وأخذت الأمواج تلاطم مركبهم من المقدمة والمؤخرة، وكانت تهددهم بالخطر لارتفاعها الذي يزيد على أربعة أمتار.

كان «غرانما» محملاً فوق طاقته، فكان صعباً على إرنستو أن ينتقل من مكان إلى مكان داخله. فجأة، بدأ أحدهم يستفرغ بسبب الدوار.

ـ أيها الرفاق، أشعر بالضيق.

ـ وعاء! هاتوا وعاء!

ـ أين العلاج البحري؟

ـ أنا أيضاً بحاجة إليه.

ـ وأنا أيضاً.

ـ إرنستو، ألست طبيباً! أين أقراص الدوخان!

هزّ إرنستو كتفيه. أمعقول أن أكون قد نسيت الدواء أيضاً؟

ـ لكن، هنا لن تجد شيئاً، انظر إلى هذه الفوضى، كيف ستبحث؟ قام عدّة شبان يبحثون، كالمجانين، عن الدواء، شقوا الأكياس، وفتحوا الصناديق.

فجأة، صرخ عدد من الكوبيين:

ـ تعيش كوبا.

ـ ستنعم كوبا بالحرية.

ـ الحرية أو الموت.

بعد ذلك غنوا النشيد الوطني الكوبي، ونشيد «حركة 26 تموز».

ـ لقد خرجنا من منطقة الأميال الثلاثة. أصبحت المكسيك وراءنا! نسير الآن باتجاه كوبا!

مسح عدد من المقاتلين دموعهم عن أعينهم، وصفق آخرون بالأيدي. كان الجميع يغنّون. كل ذلك كان تعبيراً عن الفرح بكل معنى الكلمة. كانوا على ثقة كبيرة إلى درجة أنهم لم يعرفوها من قبل. سيكون كل شيء على ما يرام.

كان الرجال ممدّدين على الأرض بلا حراك، وهم غارقون في عرقهم والرائحة النتنة. وجوههم صفراء، والهواء فاسد. أدخل أحدهم رأسه في السطل، فخرج وجهه أكثر اصفراراً. كان النقص في المواد الغذائية مخيفاً. لذلك كانت توزع بالحصة وتحت رقابة مشددة. لم ينجُ من الدوار البحري سوى خمسة مقاتلين. أما إرنستو فجلس على صندوق من الذخيرة، وهو في حالة تعب شديد بسبب الدوار والربو.

لقد نال كل منهم قسطه من الإرهاق. ومما زاد الطين بلّة، أن اليخت بدأ يمتلىء بالماء بسبب ثقب فيه، على ما يبدو، وأخذ مستوى الماء يرتفع داخل المركب ببطء.

ـ أرغب في القتال ضمن مجموعة فدائية في الجبال، أو أنظم أعمالاً سريّة في المدن لكنني لا أستطيع أن أكون قرصاناً ولا أريد ذلك! قال المكسيكي «سلاي» ذلك بصوت منخفض وهو يحاول الجلوس قرب إرنستو.

في هذه الأثناء، مجموعة من المقاتلين، ممن بقوا في حالة جيدة، أخذت ترمي كل شيء يمكن الاستغناء عنه خارج السفينة، وخصوصاً الماء، حتى يخففوا من وزن السفينة التي كانت مهددة بالغرق.

ـ سنغرق إذا لم نجد الثقب! يجب أن يكون في مكان ما هنا!

قام إرنستو بالتسلل إلى التواليت، وكان جسده مغطى بالأوساخ، فراودته رغبة في الاغتسال. لكن، أمسكت به تلك اللعينة، فقفز عدد من المقاتلين من نومهم، شعر عندها كم هو منحوس في حياته وغير سعيد. بعد لحظات، صرخ صرخة دوّت في جميع أرجاء المركب، لقد اكتشفت الثقب. في البداية، لم يصدق ما رأته عيناه، لقد نسي أحدهم اغلاق الحنفية. كان خوفهم قد وصل إلى حد التفكير برمي السلاح والذخيرة في البحر. فما كان منه إلاّ أن صرخ بأعلى صوته: «مشكلتنا حنفية غير مغلقة! غير مغلقة! لا داعي لرمي أي شيء. ولا يوجد ثقب!».

تجمع المقاتلون حول المذياع، وكان الإجهاد والاضطراب باديين على وجوههم. هناك أخبار من كوبا: بدأ فرانك بايس بالانتفاضة، وقام المقاتلون في سنتياغو ـ دي ـ كوبا باطلاق النار واحتلال مراكز البوليس.

ـ عاشت كوبا! عاشت الثورة!

بدت السعادة على وجوههم: ففي كوبا توجد بالفعل حركة مقاومة نشيطة. هناك رجال ونساء من الفولاذ. هب الشعب للنضال.

ـ نادوا فيدل! أخبروه! سيكون في سعادة عظيمة.

جلس إرنستو بين المقاتلين، لكنه لم يستطع التمييز بين انفعالاتهم. لقد ضُمّ إلى القيادة العليا، وكان أكثر من غيره

مشغولاً باستراتيجية الثوار. نظر إلى فيدل، فلم يلحظ على وجهه علامات سعادة. لقد احتقن وجهه غضباً، وضرب الحائط بقبضته، وأخذ يشتم. لم يكن لإرنستو أن رآه على هذه الحال، لكثرة ما كان يتحكم بأعصابه.

ـ آه، فيدل! ما الخبر. توجهت إليه الأسئلة من جميع الاتجاهات.

ـ لا داعي للفرح بهذه الانتفاضة. فهي لم تبدأ في الوقت المطلوب. كنا قد اتفقنا مع فرانكو بايس على أن نبدأ الانتفاضة مع وصول «غرانما» إلى كوبا. فلو تمّ ذلك، لسهلت مهمتنا، وتمّ إبعاد أنظار جيش باتيستا عنّا. لقد بدأ فرانك بايس في الوقت المناسب، أما نحن فقد تأخرنا، لأنه من المفروض أن تصل غرانما إلى كوبا اليوم.

كان من المفروض أن تبدأ في 30 تشرين الثاني عام 1956 ثورة عظيمة. لكن يبدو أننا أخطأنا الحساب، إذ لم نأخذ بعين الاعتبار أن هذه السفينة تحمل أكثر من طاقتها، ولن تستطيع الإبحار بالسرعة المطلوبة. لقد أخطأنا خطأ يعرّض مهمتنا للخطر.

بعد هذا التوضيح. لفّ الحزن أولئك الثوار، فرأى فيدل ضرورة أن يلقي خطاباً بهم، وأن يجيب عن استفساراتهم. لكن إرنستو لم يتمكن من حضور النقاشات حتى النهاية، إذ فاجأه الاستفراغ والدوار من جديد.

كان الليل دافئاً. اجتاحت المقاتلين رغبة محمومة لرؤية المنارة، لأنها تشير إلى اقتراب وصولهم. فعلى اليخت، قاربت مياه الشرب على الانتهاء، كذلك احتياط الوقود، فضلاً عن ضرورة التقنين في وجبات الطعام. لاحظ إرنستو الارهاق على بعض المقاتلين بسبب السفر الطويل في البحر، وبدت على وجوههم معاناتهم المريرة. لذلك، من الضروري أن ينالوا قسطاً

من الراحة قبل بدء الصراع مع باتيستا. ومن الممكن أن يختفوا بين أكواخ الفلاحين إذا انقسموا إلى مجموعات صغيرة، فهناك الطعام الجيد، وماء الشرب، وأرض صلبة تحت أقدامهم، وهذا ما ينقصهم بالفعل.

أخذت العاصفة تلاعب المركب بخفة، والأمواج تصل إلى أولئك الرجال الواقفين على ظهر السفينة يراقبون الضوء المنبثق من الأفق.

صعد روكي، وهو ملازم سابق في سلاح البحرية، إلى البرج باحثاً عن منارة الطريق. لكنه لم يتمكن من المحافظة على توازنه، فسقط في البحر.

ـ شخص ما خارج السفينة! وقع روكي في البحر.

كان البحث صعباً للغاية، بسبب قلّة الضوء نتيجة تلبد الغيوم.

ـ كيف يمكننا العثور عليه، والقمر لا يضيء ليلتنا.

أصرَّ إرنستو وفيدل على أن تحوم غرانما عدّة مرات حول المنطقة، رغم الأمواج العاصفة والظروف الصعبة. وأناروا الأضواء الكاشفة، لكن دون جدوى.

أخذ أحدهم يتمتم بصوت خفيف: لا داعي لإضاعة الوقت، والبحث من دون فائدة. لقد غرق روكي، ولا أمل بانقاذه.

وقال آخر:

ـ من الأفضل أن نتابع مسيرتنا إلى كوبا. ألا تريدون أن نصل إلى الشاطىء، ونخرج إلى البرّ في عتمة الليل؟

حاول إرنستو أن يرد على أولئك المقاتلين، لكن نوبة الربو عادت من جديد للتعريف بنفسها. رغم ذلك، عبر عن وجهة نظره: من غير المسموح ترك روكي بهذه السهولة.

حامت غرانما في المنطقة لمدة ساعة تقريباً، لكن دون جدوى. فتباحث فيدل مع إرنستو وآخرين: «إننا نسير إلى الأمام بسبب

الأمواج والهواء، ولا داعي للدوران حول النفس. فما علينا إلاّ أن نعود قليلاً إلى الوراء، إذا أردنا العثور على روكي». وهكذا قرر فيدل.

عندما بدأت غرانما بتغيير اتجاهها، أخذ إرنستو يفكر في هذا التصرّف من قبل فيدل. فهي ليست المرَّة الأولى التي يعرّض فيها فيدل الحملة كلها للخطر، بسبب عدم ترك رفيق في وضع صعب. فقد سبق له أن قام بذلك في المكسيك عندما كان إرنستو وفيدل ورفاق آخرون في المعتقل. يومها كان إرنستو أجنبياً، ويقيم بشكل غير قانوني، واتهم زوراً بجرائم خطيرة: إخفاء سلاح، تحضير تمرد، الحصول على نقود بشكل غير قانوني. لقد أفرج عن الجميع ما عدا إرنستو وكاليكستو غارسيا. فأصرّ فيدل على السعي للإفراج عنهما. عندها قال له إرنستو:

ـ عبثاً تضيع الوقت، وتحاول إطلاق سراحي. عليك الذهاب إلى كوبا لتحريرها. انسوا قضيتي، واهتموا بتنظيم الحملة الثورية على كوبا. إن قوى الأمن والجواسيس تلاحقكم في كل مكان. لا أريد الاشتراك في الثورة. لا تضيعوا المال من أجل تحريري. فأنا سأحاول الاتفاق معهم على السفر إلى بلد آخر.

لكن فيدل أوقف إرنستو عن الكلام بلهجة حادة لا تقبل الرفض أو التردد، قائلاً:

ـ لن أدعكما هنا!

وها هو الآن يرفض ترك روكي وحده في وضع صعب، رغم أن الحملة كلها ستتعرض للخطر بسبب البحث الطويل.

فجأة، صرخ أحدهم من غرفة القبطان.

ـ إنني أسمع صوتاً! إنه هو! إننا نسير باتجاهه.

ساد صمت مطبق على ظهر غرانما. أغلق بعض الثوار أعينهم

من السعادة. ثم انفجرت صرخة فرح، وبدأوا يضمّون بعضهم بعضاً تعبيراً عن الفرح.

أنزلوا قارب النجاة. صعد روكي، وعاد إلى ظهر السفينة.

ـ كدت أهلك! قال روكي مبتسماً وهو في حالة إجهاد، ثم هجم عليه الثوار يقبلونه.

ـ والآن، قدماً إلى كوبا! علينا أن ننهي هذه الحياة في البحر بسرعة.

ـ صحيح، إلى الأمام، إلى كوبا.

ـ إننا قادمون يا باتيستا.

جاء اليوم الذي شارفت فيه غرانما على شاطىء لوس ـ كلدادوس.

ـ صحيح، لم نصل إلى المكان المحدد بالضبط. لكن المهم أننا وصلنا إلى شواطئ كوبا.

قال أحدهم.

سمع إرنستو صرخات تحذيرية. لقد مرَّ بالقرب منهم قارب حرس الشواطىء، وبعده سفينة للمسافرين محملة بأكياس الرمل.

لا شكّ أنهم سيخبرون السلطات. علينا مغادرة غرانما إلى الشاطىء بسرعة. لي نيه! عليك بالاستطلاع المكان.

انطلقت المجموعة الأولى في قارب من الألمينيوم. لكن، نسي أحدهم إغلاق الثقب السفلي، فغرق القارب بسرعة، وانتهى الأمر بالطاقم أن وجدوا أنفسهم في الماء. فما كان عليهم إلاّ أن يصلوا إلى الشاطىء فرداً فرداً. فشكلوا سلسلة من الرجال بواسطة الحبال، وهم يرفعون أسلحتهم فوق رؤوسهم. قفز إرنستو إلى الماء، وكانت ضربات قلبه سريعة، وهو في غاية الانهاك. بعد وصولهم إلى الشاطىء، وطأت أقدامه الأرض الصلبة. هنا شعر إرنستو بشعور غريب. نعم، إنها لحظة تاريخية. لقد وصل الثوار إلى كوبا.

لم يكن للمقاتلين أن يشبهوا الثوار بشيء. فالقليل منهم من حلق ذقنه منذ عدة أيام، أو حتى منذ عدة أسابيع، والملابس رثة مهترئة. بعضهم كان يوقف دموعه بصعوبة. وآخرون لم يتمكنوا من فتح أعينهم من التعب. ألقى إرنستو نظرة على سلاي فوجده يتنفس بصعوبة بالغة، لكنه لاحظ على وجهه ملامح البهجة رغم كل شيء.

كانت الطريق ملأى بالمستنقعات، ومرهقة للمقاتلين. كانت أقدامهم تغرز في الأرض عند كل خطوة يخطونها، وبعضهم فقد حذاءه. كانوا لا يستطيعون حمل شيء سوى الضروريات الملحة، فهذه المستنقعات أذاقتهم عذاباً لم يخطر على بالهم لحظة واحدة. ها هي جموع البعوض تهاجم هؤلاء المعذبين وتحوّل حياتهم إلى جحيم. لا، إلى الأمام! إلى الأمام! علينا أن نبتعد عن الشاطىء، ونخرج من هذا المستنقع! كانت هذه الفكرة تلازم كلاً منهم، وتدفعه إلى الأمام.

بقوا عدة ساعات يناطحون هذه الأرض المائجة، أدركوا فيها أهمية امتلاك حذاء جيد لهذا الصراع. فجأة، ظهرت طائرات في الجو، توارى المقاتلون تحت ظل بعض الشجيرات. لكن الطائرات لم تلاحظهم.

تابعوا المسير، وبعضهم شق عليه الانتقال ولو خطوة واحدة! لقد تورمت أرجلهم، وسقط بعضهم على الأرض مغمياً عليه. أما إرنستو وفاوستينو فكانا يعملان المستحيل من أجل المساعدة.

تقدموا إلى الأمام. ساروا كالأشباح الآلية، مبتعدين عن بعضهم. وبعد عدة ساعات، كانت بالنسبة لهم الأبد نفسه، وصلوا إلى قرية صغيرة. تولى فيدل الحديث مع الفلاحين، فكان لهم تحضير الطعام. أخذوا يتعانقون رغم التعب الذي كان يرهقهم. وبعد لحظات، عبقت رائحة الطعام في كل مكان. فقام

إرنستو وفاوستينو بالكشف على رفاقهما، وتقديم المساعدة الممكنة لمن أدميت قدماه من المسير الشاق.

ارتاح إرنستو لرائحة الطعام، لأنه سيزود المقاتلين بقوة جديدة. فلكم تحملوا من العذاب والتعب! سبعة أيام على ظهر غرانما في البحر الكاريبي، وما فيها من نقص في المأكولات، والخوف، والدوار. ثم جاءهم الممرّ الجهنّمي في هذه المستنقعات ونقص عتادهم، فلم يبقَ إلاّ القليل من البنادق والذخيرة المبلّلة بالماء.

تجمع المقاتلون حول الطعام. وكان لدى بعضهم شيء من تبغ ناشف. أما فيدل فقام يشرح للفلاحين جوهر الاصلاح الزراعي.

وبينما كان إرنستو يربط آخر ضمّادة لأحد الجرحى، ويهمّ بالذهاب لتناول الطعام، سمع صوتاً يصرخ:

ـ اختبئوا! إنها الطائرات!

حامت طائرات باتيستا فوق رؤوسهم بشكل مفاجىء، وقصفت المكان الذي كانوا فيه. قفز إرنستو نحو صندوق الأدوية، لكن قذيفة سقطت على بعد عشرين متراً منه، ولحسن الحظ لم تنفجر. فحاول أن يذهب نحو الصندوق زحفاً، كيف لا وهو طبيب، إذ ماذا يعني طبيب من دون أدوية؟ وهنا عادت إليه نوبة الربو اللعينة. لكنه، رغم كل شيء، تابع الركض.

شارف المسير من الشاطىء إلى الغابات على اليوم الثالث. ولم يعد بإمكان أي منهم الاستمرار؛ لأن النار تشتعل في قدميه، فكل خطوة يخطوها كانت تعني له ناراً جهنمية. وكان بعضهم يقطع قصب السكر ليخفف به جوعه المتوحش، ويرمي بالفضلات إلى الطريق. إنهم مقاتلون تنقصهم الخبرة، لقد خلقوا فرصة أمام جيش باتيستا لاكتشاف أثرهم.

ازدادت طلبات المقاتلين لأخذ قسط من الراحة، وبدل إرنستو بندقيته الثقيلة بأخرى خفيفة.

توقف المقاتلون في غابة القصب في مكان قليل الشجر. وغطّوا في نوم عميق. أما إرنستو فأخذ يضمّد رجلي أومبرتو لوموته. نظر إلى وجهه المنهك، ثم حاول تهدئته. لكنه لم يتمكن من شحنه بالشجاعة. إذ كان عليه أن يحمل حذاءه بيده.

بعد ذلك، قرر إرنستو أن يأخذ قسطاً من الراحة، فاستلقى على الأرض متكئاً إلى جذع شجرة. جاء إليه مونتانه وهو في غاية الجوع، فاقتسما ما في حوزتهما من طعام: نصف قطعة من المرتديلا، ورأسين من البصل. أخذ إرنستو يمضغ ما في فمه ببطء، ويفكّر بشيء يلهيه عن هذا الوضع. كان عليه أن يفكّر بشيء ما، محرض أو معبىء.

ـ حدثني عن أطفالك يا مونتانه.

ـ نعم، تعال نتحدث عن أطفالنا، فهذا شيء نافع.

في هذه اللحظات دوّى صوت رصاص. نظر كل منهما في وجه الآخر نظرة شك. فجأة، انهمر الرصاص بغزارة على الثوار.

حاول فيدل أن يجمع الرجال في أقرب منطقة كثيفة. لكن، كان العدو مفاجئاً. ألقى أحدهم بصندوق الذخيرة وهمّ بالفرار.

ـ قد! صرخ به إرنستو. خذ الصندوق.

ـ ليس الآن وقت الصندوق! صاح آخر، وعلى وجهه تبدو ملامح رعب. فجأة وقع وسط نيران جنود باتيستا.

حاول إرنستو جرّ الصندوق، لكنه لم يقوَ على ذلك، فوقف على ركبتيه، لكن، دون جدوى. كيس الأدوية في يده، وصندوق الرصاص، إنه حمل ثقيل فوق ذلك، عليه أن يزحف إلى تلك المنطقة المغطاة بقصب السكر. أما فاوستينو، فانبطح أرضاً، وأخذ يطلق النار كي يغطي انسحابهما!

ألقى إرنستو كيس الأدوية جانباً، ثم تناول صندوق الذخيرة

وأخذ يجري، في هذه الأثناء لمعت في رأسه فكرة: إنه قرار سليم: فهو الآن مقاتل، وليس طبيباً، لقد اختار صندوق الذخيرة.

أصيب إرنستو قبل أن يصل إليه فاوستينو، وشعر بضربة في صدره، وألماً في فمه. ووجد إلى جانبه أرنيتوس وهو ينزف دماً من أنفه وفمه.

ـ قتلني هؤلاء الخنازير، قال وهو يصرخ، ويطلق ما في سلاحه من طلقات. بقي إرنستو يزحف بصعوبة حتى وصل إليه فاوستينو الذي كان لا يزال يطلق النار وهو يغطي انسحاب رفاقه.

ـ فاوستينو! لقد أصبت، أنا جريح.

لم يعره فاوستينو اهتماماً، لأنه كان منهمكاً بالتسديد على أحد الباتيستيين، وأطلق عليه صلية من الرصاص.

ـ الأوغاد! لقد أصابوني! قال إرنستو.

أما فاوستينو فلم يتوقف عن اطلاق النار، فألح عليه إرنستو:

ـ اهدأ. لا داعي للخوف. هيا أطلق النار. اقتلهم.

شعر إرنستو وكأن الموت أدركه. لكن شيئاً ما دفعه إلى إغلاق عينيه، وبدأ بإطلاق النار إلى الجهة التي كان يطلق عليها فاوستينو.

وهو على الأرض، شعر بدمه الدافىء. فأدرك أن النهاية دنت، فهو لن يرى بعد الآن إلدا والدنيا. لم يكتب له أن يعيش نصر الثورة. إنها النهاية.

ومرّ في ذاكرته شريط من الذكريات... مرّ بتسارع عجيب، وتوقف عن قصّة جاك لندن: الإنسان الذي حكم عليه بالموت. وهو من أصقاع آلاسكا المتجمدة. الذي قرر استقبال الموت بهامة عالية... وعندما كان إرنستو يتكىء إلى جذع شجرة، سمع صوت أحد المقاتلين ينادي: يجب الاستسلام، الاستسلام!

ـ لن يجرؤ أحد على الاستسلام، مفهوم؟ لا أحد! دوّت

صرخة كاميليو من بين قصب السكر، الذي لم يضعفها، وملأت المكان بالعزيمة والحماس.

أخذت الطائرات، هذه المرة، بتمشيط المنطقة بنار الرشاشات الثقيلة. قام الميدا بتشكيل مجموعة من المقاتلين، وتوجه نحو إرنستو قبَل الانسحاب إلى داخل الغابة.

ـ هيا إلى الغابة! سنكون في مأمن هناك، ونتمكن من الدفاع جيداً!

ـ إنني جريح يا الميدا، وأقارب على النهاية، فلن أتمكن من الوصول معكم.

ـ صه! ستصل، وعليك أن تصمم على ذلك! هيا بنا!

أعاد صوت الميدا، الذي ينضح بالحماس، الحياة إلى إرنستو. وأحسّ أنه سيبقى حياً، رغم إصابته في الرقبة. لكن، سيدركه الموت إذا ما وقع في أيدي جنود باتيستا. لذلك، يجب الخروج من هذه المنطقة فعلاً. ساعده الميدا على النهوض، وأخذ يجمع قواه ويخطو خطوة خطوة.

ـ لم يبقَ إلاّ القليل! لقد وصلنا، ها هي الغابة!

انشغل الميدا وروميرو بجمع السرطانات الموجودة بكثافة.

ـ لا يمكن غليها، أو شيُّها. قال الميدا. لا يمكننا إشعال النار. لكنه ليس بذي أهمية، يمكن أكلها هكذا.

شعر إرنستو بمعدته تتقلب، وأحس بثقب كبير فيها. أما الميدا فحاول التخفيف عن الرفاق، فأغمض عينه وقال:

ـ بعد انتصار الثورة سنفتح مطعماً خاصاً، ونبيع فيه السرطانات النيئة فقط.

تغلب إرنستو على رغبته في الاستفراغ، ثم تناول سرطاناً، وبدأ بأكله، مغمضاً عينيه. وبعد أن انتهى، تناول الثاني مباشرة.

لقد فقدوا في هذه المعركة عدداً كبيراً من المقاتلين، فمنهم من

استشهد، ومنهم من وقع في الأسر. ولم يبقَ إلاّ خمسة رفاق، قرّروا القتال والصمود حتى آخر رجل منهم.

بعد أن أكلوا السرطانات، شعروا بحاجة إلى الشرب. لكن، لم يكن بحوزتهم ما يكفي لسد رمق رجل واحد. هنا، تذكر إرنستو أنه قرأ في يوم ما دراسة علمية حول هذا الموضوع.

ـ إن لم أكن مخطئاً، كتب في تلك الدراسة أنه من الممكن إضافة ثلث من ماء البحر إلى ثلثين من ماء الشرب، ولن يؤثر ذلك على نوعية ماء الشرب. بذلك، نستطيع زيادة كمية الماء الموجودة في حوزتنا.

ـ إنني لم أجنّ بعد. قال الميدا بامتعاض. أتريد إفساد ما تبقى لدينا من ماء للشرب؟

ـ لكن، يمكننا زيادة الكمية، ونؤمن الشرب للجميع، إذا لم نكتف ليوم كامل.

لقي اقتراح إرنستو استحساناً عند الآخرين، ما عدا تشاو الذي أخذ ينظر إليه بتحفظ. ولم يكن هناك من مخرج، خصوصاً أنه الطبيب الوحيد، ولا أحد يفهم بذلك أكثر منه.

كان رينالدو أول المجربين للخليط، وبعد أن شرب قليلاً، احمرّ وجهه خجلاً وحنقاً:

ـ يا له من ماء قذر، عديم النفع، مالح جداً! قال رينالدو ذلك وهو يتلعثم بكلامه.

حلّ الليل، وكان القمر بدراً يسطع في سماء غابت عنها النجوم، سار الميدا وراء رأس المجموعة إرنستو، وأثناء سيرهم شاهدوا كوخاً على شاطئ البحر.

ـ يبدو أنه كوخ لأحد الصيادين، بناه كي يحمي نفسه من الرياح البحرية. قال الميدا بصوت خفيف.

ـ يوجد في داخله نائمون. ثلاثة أو أربعة، إن لم تخدعني عيناي. وأرى أسلحة.

ـ هيا نستطلعه عن قرب.

أعدوا سلاحهم للانطلاق، ووصل إرنستو والميدا إلى محاذاة الكوخ بسرعة.

ـ أرى كل شيء في الداخل، هناك سلاح بجانب الحائط، إنهم جنود باتيستا، يجب الابتعاد بسرعة.

ـ بالعكس، نأسرهم. فنحن بحاجة إلى أسلحتهم ومعدّاتهم، إضافة إلى أننا نستفيد من أية معلومات يقدمونها عن انسحاب الرفاق.

ـ كيف سنقوم بأسرهم؟

ـ المسألة سهلة. أدخل إليهم، وأطلب منهم الاستسلام.

ما إن أنهى الميدا حديثه حتى قفز، وخلفه إرنستو، ناسياً الجوع والعطش اللذين كانا على أشدهما، ولم يعد يشعر بالآلام المنبعثة من جراحه. وهذه المرة كانت المبادرة في أيديهم. فهم يهاجمون الجنود، وليس العكس. وفي هذه المرة سيهزم العدو.

فجأة، انفجر الميدا ضاحكاً.

ـ كاميليو! بانتشو! بابلو!

كان الثلاثة من رفاقهم، وهكذا أصبحت المجموعة ثمانية. قام رجال كاميليو باستضافة الرفاق، وقدموا لهم بعضاً من قصب السكر.

ـ إنها حلوة المذاق، ولا تخفف من الجوع إلاّ قليلاً.

ـ فعلاً. قال كاميليو ضاحكاً. لكن لماذا لا تأكلون السرطان؟

ـ لقد فعلنا ذلك. لكن احتجنا إلى كثير من ماء الشرب.

ـ الماء كثير من حولنا.

ـ نعم، لكنه ماء بحر شديد الملوحة.

ـ لا. إنني أقصد ماء الحفر القريبة من الشاطىء.

بعد عدة أيام عثر الرجال الثمانية على فيدل كاسترو ومعه ثلاثة عشر رجلاً من مقاتلي «غرانما»، عراة وعزل من السلاح تقريباً. أما بقية المقاتلين الذين جاؤوا في الحملة من المكسيك فقد وقعوا في الأسر، أو لاقوا حتفهم. رغم ذلك، بقي فيدل مقتنعاً بضرورة الإسراع في تشكيل الجيش الثوري. وأنه بدأ بإجراء اتصالات مع الفلاحين في المناطق المحيطة.

ـ لقد وقعنا في أخطاء جمّة، ودفعنا ثمناً باهظاً. لكن، فرقة الانتفاضة لا تزال موجودة، وستستمر في القتال، والانتصار ممكن. إننا سنبني أنفسنا هنا، في هذه المنطقة. علينا بإيجاد السلاح والعتاد الكافيين، والبدء في تدريب المتطوعين الجدد.

تنهّد إرنستو وهو يفكر بفيدل كاسترو. فهو صديق قريب له، ورفيق درب. لقد آمن بقدرته ومواهبه. إنه قادر على إقناع الفلاحين. وبقيادة هكذا شخص سيزداد عدد رجال الانتفاضة بتسارع كبير.

بدأ استطلاع الثكنة منذ الصباح الباكر، بعد أن تسلّلوا مساءً عبر نهر لا ـ بلدتا، الذي لم تكن مياهه مرتفعة، مما سهل عملية التسلل.

وضع المقاتلون ثلاثاً وعشرين بندقية ورشاشاً صالحاً للاستعمال.

ـ الذخيرة لدينا قليلة. قال تشي بصوت منخفض. لكن، في كل الأحوال يجب علينا احتلال الثكنة. فإذا أطلقنا كل ما بحوزتنا من رصاص سنكون عزلاً بكل معنى الكلمة.

أومأ كاميليو برأسه. كانت لديه بندقية نصف أتوماتيكية، وكان مثلها خمس بنادق فقط، لكن الرصاص لم يكن كافياً إلاّ لواحدة.

كان ضوء القمر ينعكس على سطح الثكنة القصديري.

ـ هناك: يوجد حوال خمسة عشر جندياً، وفي أقصى الاحتمالات عشرين جندياً أليس كذلك؟ لكنهم يملكون قوّة نارية كبيرة. ناهيك عن موقعهم المحصّن. المهمة الأولى هي إدخال الرعب إلى نفوسهم منذ اللحظة الأولى. لذلك، يجب استخدام عنصر المفاجأة. لديّ قنبلة هجومية تساعدنا على ذلك، لكنني أخشى أن تكون رطبة، وفقدت مفعولها! قال غرانما كاسترو ذلك بصوت خفيف.

أصدر فيدل أمره بعدم إطلاق النار، إلاّ بعد إشارة منه، حيث ستفتح النيران في الوقت المناسب. لذلك، أخذ رشاشاً يدوياً من نوع «طومسن».

فجأة، عكر صفو المكان، وحديثهم الهامس، صوت شخص ما يغني لقد مرّ أمام الثوار على مسافة قريبة، إنه تشيكوا سوريو الذي سكر حتى الثمالة. شدّ إرنستو على بندقيته، فقد سمع الكثير من هذا الرجل. كان من أقسى رجال النظام في المنطقة. فكم من الأرواح البشرية زهقت تحت إشرافه! وكم من الدموع! وكم من الدماء! كان الفلاحون يتحدثون عنه وكأنه الغول نفسه. لقد حافظ على ممتلكات عائلة لافيتي بالارهاب والعنف. كان سهلاً على إرنستو أن يقضي على عديم الضمير، وشارب الدماء تشيكو. لكن، سيتنبه لذلك مَن في الثكنة، وبالتالي تتعرض العملية برمتها للفشل، فضلاً عن أمر فيدل بعدم إطلاق النار دون إشارة منه.

أوعز فيدل إلى سانتشيس مشيراً عليه:

ـ أوقفه واسأله عن كلمة السر!

قفز سانتشيس إلى الطريق، ووجه كلامه إلى تشيكو:

ـ الحرس القروي. هات كلمة السر!

لقد أثيرت دهشة الجميع عندما أجاب تشيكو مصدقاً:

ـ البعوض.

هنا جاء دور فيدل. لقد أعجب إرنستو بفيدل وهو يعرض قدراته في التمثيل.

ـ ما اسمك؟

ـ تشيكو اسوريو.

ـ اسمع يا تشيكو. أنا عقيد في جيش الرئيس باتيستا المظفر. قدمت إلى هنا بهدف الاستطلاع والاستيضاح: لماذا لم تقضوا على المخربين بعد؟ أليس ذلك عار على بلدنا؟ أتنتظر حتى يحمل الفلاحون السلاح، ويعلنون العصيان بوقاحة؟

أومأ تشيكو موافقاً:

ـ فعلاً. هم كالخنازير في الماء الصافي، والجنود للأكل والنوم. لقد حان الوقت لإحلال النظام.

فجأة، بدا الخوف على تشيكو بالرغم من السكر. وأغلب الظن أنه تعجّب من هذا العقيد الملتحي، وصاحب المنظر الغريب، كأنه مشرد في الصحراء.

أخذ فيدل بتهدئة روعه:

ـ الجنود هنا كسالى، ولا يقومون بأي عمل. مما اضطرني للعمل ليل نهار، وازدادت حالتي سوءاً يوماً بعد يوم. وازدادت وقاحة الفلاحين، والجنود لا فائدة منهم. فقد أخذ الفلاحون بالتطاول على الجنود الذين لا يردّون عليهم، لذلك اضطررت أن أقوم بالعمل وحدي. وهنا بالضبط أعطيت، منذ عدة أيام، أحد أصحاب الألسنة الطويلة درساً لن ينساه، عندما تطاول على الجيش بوقاحة.

ـ من يدعى هذا؟ سأل فيدل وهو يستمر بلعبته.

ـ راميرس. أجاب تشيكو.

ـ سألقنه درساً في الأدب والأخلاق. أين يسكن الآن؟

بعد أن وصف له المكان، وأكد له أن عائلته تحمل الآراء نفسها، سأله فيدل:

ـ هل يوجد الكثير ممن يتعاطفون مع هؤلاء المخربين؟

أجاب تشيكو مسروراً، وقدم أسماء وعناوين كل من يتعاطف مع الثوار. وتمكن فيدل من أخذ ما لا يقل عن عشرين اسماً وعنواناً. واتضح بذلك، التصور الكامل عن المنطقة. لقد عرف الثوار أسماء المتعاطفين معهم وعناوينهم.

ثم استرسل تشيكو في الحديث، وأدلى بمعلومات كاملة عن بعض المتعاملين مع النظام. بذلك، عرف الثوار مع من يمكن الاتصال ومع مَن لا يمكن ذلك.

توقّع إرنستو أن نهاية تشيكو قد حلّت. لكن فيدل قرّر استكمال اللعبة حتى النهاية.

ـ ماذا ستفعل بفيدل كاسترو إذا ما ساقه القدر إليك؟

لوح تشيكو بقبضته بحيوية:

ـ لسلخته، وأجبرته على أكل لحم يديه، وسلخت عنه جلده وهو حي.

ابتسم فيدل وأومأ:

ـ صحيح. لم أتوقع غير ذلك.

دخل تشيكو في اللعبة.

ـ منذ فترة قصيرة، قتلنا عدداً من أبناء العاهرة هؤلاء. وأنا شخصياً قتلت اثنين منهم.

اقترب كاميليو من تشي وهمس:

ـ هذا الخنزير يحكم على نفسه بالموت!

لكن فيدل لم يسرع في تنفيذ الحكم، ربما يحتاجونه بعد.

ـ اسمع يا تشيكو، هل أنت على استعداد لمساعدتي في استطلاع وضع الثكنة، وجاهزية الجنود فيها؟

ـ طبعاً. هذا شرف لي.

ـ حسناً، ستمر من أمام الحرس بحذر، حتى لا يلاحظ أحداً منا، ونتمكن من إلقاء نظرة على هؤلاء الجنود، ونرى حينها كيف يقومون بواجبهم. لأن جماعة كاسترو في النهاية بإمكانها الهجوم على الثكنة بمن فيها.

قال تشيكو ضاحكاً:

ـ لا أظن أن هذا التيس الأجرب يملك من الشجاعة ما يكفي للقيام بهجوم على الثكنة.

ـ يجب الظهور بمظهر طبيعي. سنربط يديك كأنك أسير لدينا، مما يخيف الجنود.

أُعجب تشيكو بالفكرة. وما إن بدأوا بربطه حتى دخل الشك قلب إرنستو: «صحيح أن كل شيء يسير على ما يرام، لكن ما العمل إذا ما اكتشف أمرنا؟ ربما سيقودنا إلى الموت!».

ـ من الضروري أن يتأكد الرفيق لويس كرسبو من صحة كلام تشيكو قبل تنفيذ العملية. إذ لا يمكن الاعتماد على كلام مصاص دماء ثمل.

ـ في الثكنة مركز حراسة واحد، انظروا كم هم كسالى. الحارس يجلس في بيت مشرف، واسمه أنوريو. إنه صديق قديم لي، فكم من الرؤوس قطعنا معاً بـ...

ـ أين هو بيته؟

ـ هناك، خلف الثكنة.

ـ أين هي مراكز الحراسة الأخرى؟

ـ لا توجد مراكز أخرى. المنطقة هنا تنعم بالهدوء. وكاسترو هذا لا يملك من الجرأة حتى يهاجم الثكنة مع جياعه.

ذهب لويس كرسبو للاستطلاع. والثوار ينتظرون على أحرّ من الجمر. شعر تشي بحماس شديد عند الرفاق لبدء المعركة. كانوا

يريدون إثبات قدرتهم على تحطيم جيش باتيستا. كما أنهم كانوا يريدن التأكيد من وراء عمليتهم هذه أنهم لا يزالون على قيد الحياة، وأنهم يقومون بتنفيذ العمليات بنشاط. خصوصاً أن الإذاعة الرسمية أذاعت خبر الإجهاز على مجموعة كاسترو، ودارت شائعات عن مقتل كاسترو.

عاد لويس كرسبو من الاستطلاع:

ـ تشيكو لم يكذب، رأيت بين بيتين صغيرين شعاعاً ينبعث من سيجار مشتعل، ولا توجد مراكز حراسة غيره.

بدأ فيدل بتوزيع المقاتلين، وإعطائهم خطة الهجوم:

ـ كاميليو، كاليكستر، فوليتو دياس وبيتس. بما أنه لديكم بنادق نصف أوتوماتيكية، عليكم محاصرة البيت المحاط بالنخيل. راؤول والميدا يهاجمان من اليسار. سانتشيس، ولويس كرسبو، وغارسيا، وفخاردو، وتشي تبقون معي في الوسط. فلنحاول إجبارهم على الاستسلام بسرعة، حتى نضمن أقل إنفاق في الذخيرة. إلى الأمام أيها الرفاق.

تمركز المقاتلون في مواقعهم على بُعد أربعين متراً من الثكنة. وفي الثالثة إلاّ ثلثاً بدأ فيدل المعركة بإطلاق زخّتين من الرصاص. وفوراً، لعلعت كافة البنادق قاذفة بأحشائها من جحيم على ثكنة الأعداء.

دعا تشي جنود الثكنة للاستسلام، لكن الإجابة كانت نيراناً كثيفة ـ كما تريدون ـ صرخ تشي، وألقى نظرة سريعة على لويس كرسبو الذي كان قد أعدّ قنابله البرازيلية للتفجير. وقام بتجهيز قنابله أيضاً.

لقد فهما على بعضهما دون كلمات، وقذفا بقنابلهما. لكن خيبة الأمل كانت كبيرة، فالقنابل لم تنفجر. عندها، قام راؤول كاسترو بإلقاء علبة من الديناميت، لكنها من دون فائدة.

ـ يجب التقدم إلى البيت، وإحراقه بمن فيه! صرخ تشي بأعلى صوته. وبدأ يزحف. لكن سبقه سانتشيس، وقام المناضلون بتغطية نارية كثيفة له. لكنه لم يتمكن من تنفيذ مهمته بإحراق أي من البيوت. زحف بعده كاميليو سينغوغوس، فوصل إلى بيوت الثكنة، لكنه لم يتمكن من إحراقها. بعده، بدأ تشي ولويس كرسبو بالزحف.

ـ سنقوم نحن بالمهمة يا تشي! قال لويس كرسبو ببهجة حذرة. توجد في المخزن أكوام من قشر الجوز، وهو يشتعل بسرعة كالقش.

بعد دقائق، هبّت ألسنة اللهب. وبدأ الجنود بالفرار. أحدهم قفز هارباً باتجاه لويس كرسبو، الذي تمكن من انتزاع سلاحه مباشرة، وبدأ بإطلاق النار على البيت الذي كان معظم الباتيستيين مختبئين فيه.

سرعان ما بدأت تسمع صرخات الاستسلام: «نستسلم». لكن أحدهم حاول الهرب، فما كان من كاميليو إلاّ أن أفرغ كل حقده رصاصاً على كلب باتيستا الهارب. وبدأ الجنود بالاستسلام واحداً تلو الآخر. وانتهت المعركة.

ـ لقد انتصرنا! انتصرنا! المجد للثورة!

ـ لا توجد أية إصابة بيننا! قال تشي مطمئناً، لأن واجبه مراقبة الجرحى وعلاجهم، إن وجدوا. لكنه عالج خمسة جرحى من الأسرى. وفقد الباتستيون قتيلين.

قام فيدل بالاطمئنان على الرفاق، والتأكد من وجود الجميع، وإحصاء الغنائم. أما الرفاق فكانوا يطفئون الثكنة المشتعلة.

توجد الآن في حوزتنا آلاف الطلقات، والوقود، والمواد الغذائية والملابس.

ـ لقد حصلت على غنائم أيضاً! قال تشي ضاحكاً. وعرض خوذة عريف من جيش باتيستا.

اقترب فيدل من تشي، وألقى عليه نظرة وهو يساعد الجرحى.

ـ اسمع يا تشي. سندع الجنود والأسرى مع الجرحى هنا. فليعتنوا بهم حتى تأتيهم مساعدة. ونبقي لهم ما يلزمهم من الأدوية.

ـ آه! لا يوجد لدينا كثير من الدواء. ونحن بأشد الحاجة إليه، ولا نملك احتياطاً من الأدوية يفيض عنا.

ـ لا يهم. إن ما نقوم به من أجلهم سيترك أثراً كبيراً في نفوسهم. إننا مختلفون جذرياً عن باتيستا ورجاله. نحن لا نقتل الجرحى من أعدائنا. لا بل نقدم لهم المساعدة.

ـ هل حصلنا على غنائم كثيرة؟

ـ إننا نملك الآن من السلاح ما يفوق عددنا. وأهم ما في الغنائم ثماني بنادق «سبرنج ڤيلد»، ورشاش طومسن.

ـ هكذا يجب أن يكون. سيكون العدو مزوِّدنا الأول بالأسلحة والعتاد.

ـ بالضبط، سيقوم العدو بذلك رغماً عن أنفه، وليس بإرادته، هل تحتاج إلى مساعدة؟

ـ نعم، ناولني لفافة الشاش، إنها في الصندوق.

قاطعهم صوت مملوء بالرعب. سألهم جندي جريح:

ـ هل ستقتلوننا؟

ـ لا، إننا نريد الإطاحة بديكتاتورية باتيستا. نحن لسنا قتلة، إننا مناضلون من أجل الحرية، ولا نؤذي الأسرى.

لقد أثبتت التجربة صحة رأي فيدل. فقد انضم أحد هؤلاء الجنود، الذين تركوا أحراراً، إلى مجموعات فيدل كاسترو.

أثناء مسيرتهم التالية تخلف إرنستو مع بعض الرفاق. وعندما

كانوا يحاولون اللحاق بهم، وبينما كان إرنستو يقفز عبر الهشيم، فجأة، سمع رصاصة تدوّي، وتستقر في جذع شجرة تبعد عنه عدة أمتار. انبطع على الأرض بسرعة، وأخذ يحدق بالهشيم من حوله.

كان شيء ما يتحرك، ويزحف. لقد تعرف إرنستو على العدو، إنه كاميليو. ثم أطلقت رصاصة أخرى، عندها ربط إرنستو شريطاً أبيض في فوهة البندقية، ورفعها فوق رأسه. قفز كاميليو من موقعه سعيداً، وممسكاً بالبندقية بحال الاستعداد لإطلاق النار. لقد اصفرّ وجهه عندما رأى صديقه القديم.

ـ لقد رأيت خوذتك فقط يا تشي، فظننت أنك من جنود باتيستا.

خلع إرنستو خوذته وأخذ يتفحصها قائلاً:

ـ بسبب هذه اللعينة كنت أقف على حافة الموت. الحمد لله أنك أخطأت الهدف!

علّق كاميليو على ذلك:

ـ هم، منذ مدة طويلة لم أخطىء مثل هذا الخطأ.

* * *

كان على أحد الثوار أن يصل إلى المدينة، لإجراء اتصال بـ «حركة 26 تموز»، وللحصول على احتياط من المواد الغذائية والطبية.

أستغل إرنستو هذه الفرصة، وكتب رسالة لوالديه. صحيح أن الرسالة في المدينة تسقط في الصندوق، وترسل بسهولة. لكن، لا بد من حساب للمفاجأة، إذ من الممكن أن يقع المراسل بين أيدي رجال الحكومة، أو أن تكون منطقة الجبهة مراقبة، ولا يمكن إعطاء العدو أية إشارة.

اجتاحته رغبة عميقة في الكتابة عن أشياء كثيرة: هل يكتب عن

تجربته منذ إصابته برصاص الباتيستيين مثلاً، لكنه سيشغل بال والدته. أم أنه يحدّثهم عن الهزيمة في المعركة الأولى المفاجئة وغير المتكافئة. لكنها إذا وقعت في يد العدو فسيّعرف عنهم الكثير. أو أنه يحدثهم عن الأرجل المدماة ونوبات الربو. لا. من الممكن أن يكتب عن صلابة الرفاق وايمانهم بالنصر: «في البداية انتابني اعتقاد أنني لن أنجح، وأن الفشل يحيط بي. لكن مديري في المؤسسة استطاع أن يهدّىء الوضع، وتمكّن من تغيير الظروف نحو الأفضل، حتى بتّ أعتقد أن هناك إمكانية للذهاب في إجازة لعدة أشهر. هذا طبعاً، في حال استقرار الأوضاع. ويوماً بعد يوم أتمكن من العمل أكثر فأكثر بمساعدة مديري. وأطمح للوصول إلى القمة، والمدير ليس رجلاً سيئاً». ووضع توقيعه باسم تشي.

لم يكن إرنستو يعرف مصدر هذا الاسم. لكن الرفاق تعودوا على عدم مناداته باسمه الحقيقي إرنستو، وأخذوا ينادونه باسمه الجديد المحبب إليه ـ تشي. كان يعتقد أن الكلمة مأخوذة عن الهنود، ففي فنزويلا وكولومبيا يدعو الأرجنتينيين بهذا الاسم ـ تشي ـ وهي تسمية منتشرة بشكل واسع في تلك البلاد، حتى إرنستو نفسه كان يستخدمها دون أن يعرف أصلها الحقيقي.

كما يذكر إرنستو نفسه، كان ينادي بعدة ألقاب مختلفة فوالداه كانا يلقبانه في طفولته بـ «تي تي»، وهو اسم الدلع. أما زملاؤه في المدرسة فكانوا يسمونه «خنزيراً» لكثرة ما كان يأكل، وبعدها سمّوه بالأصلع. لكن تسمية «تشي» كانت أحب الأسماء إليه، حتى أنه أصبح يفضل هذا الاسم على اسمه الحقيقي، ويوقّع مخطوطاته به.

كان ينتابه شعور بقرب نهايته في تلك الفترة، فلم يكن بحوزته أي علاج للربو اللعين. وكانت نوبات الربو تصارعه باستمرار.

وسعاله بسبب اكتشاف أمر الثوار في منطقة تعجّ بتشكيلات جيوش الحكومة. رغم ذلك، كان عاجزاً عن ضبطه، وكاد في إحدى المرات أن يهوي أرضاً بسبب انقباض صدره، وتدفق الدم على رأسه. وها هو فصل الشتاء قد حل على سييرا، والرطوبة تقتله. ففي كل ليلة كان يشعر بالآلام وهي تنخره حتى العظم. والرفاق قرروا النوم في أكواخ الفلاحين، مخافة اكتشاف أمرهم في الغابات بسبب وضعه المتأزم.

هذا الوضع لم يعجب تشي أبداً، رغم تعاطف معظم الفلاحين مع الثوار. فرجال باتيستا كثيراً ما كانوا يقومون بحملات دهم البيوت ونهبها. والمسير كان شاقاً وصعباً. فكل خطوة كان يخطوها كانت تعني له الانهاك الجهنّمي، وتعني له نوبة من الربو.

قرر المقاتلون التوقف للراحة، وتجميع القوى، بالقرب من كوخ صغير لأحد الفلاحين. أخذ تشي يقرأ بعض أشعار بابلو نيرودا كي ينسى وضعه الصعب. كان يقرأ الأشعار في نفسه؛ لأنه لا يستطيع قراءتها بصوت عال بسبب التنفس غير الرتيب الذي يحدث نوبة جديدة من الربو.

بدأ بقصيدة مطلعها: «الحياة لم تمت يا أخي البريء من الخطيئة». لكنه نسي الباقي، فحاول الاستعانة بمجموعة بابلو نيرودا الشعرية الموجودة في حقيبة الظهر، فهو لم يكن يتخلّى عن «الأغنية العامة»(*). وفور استدارته شعر بتسارع في التنفس. اللعنة على هذا الربو! اضطرت المجموعة بسببه للتوقف في هذا الموقع الخطر. يجب أن أطلب من الرفاق أن يتركوني هنا، ويمضوا. ولا داعي للخوف عليّ، فهم ينتظرون دعماً من الرجال، إذ شكل

(*) ملحمة بابلونيرودا الشعرية: «الأغنية العامة».

فرانك بابيس مجموعة من خمسة عشر رجلاً في سانتياغو، وهم يتوجهون إلى سييرا. لقد أصبح عدد الرفاق القدامى والجدد كافياً لتحرير سييرا من الباتيستيين. لكن هذا الربو...!

كان فيدل يصغي بشكل دائم إلى الأخبار من راديو الترانزستور. وزير الدفاع يعوي: «هناك مقابلة صحفية، يزعمون أن صحفياً أميركياً أعدّها مع فيدل كاسترو ـ إنها بدعة، وكذب وقح. لقد حوصر فيدل ومن معه من المخربين حصاراً لا تنفذ منه نملة. ولن يتمكن أحد من التسلل إليهم عبر الحصار. لقد نشر الصحفي الأميركي مينوز صوراً لفيدل كاستور، والعميل الأرجنتيني غيڤارا، زعم أنه التقطها».

انفجر فيدل ضاحكاً:

ـ أتسمع يا تشي! أتسمع كيف يتبجح. عندما ينشر مينوز الصور، سنكشف وجه النظام الكاذب من جديد. إرفع رأسك يا عجوز(*) ها هو الفيل يندب حظه من جديد باكياً من أذية الذبابة.

ـ اعطني سيجاراً.

ـ ماذا؟

ـ أعطني سيجاراً يا فيدل. أو اخرج لي الغليون من الحقيبة.

ـ لكن، لم تمضِ لحظات بعد على انتهاء النوبة.

ـ رائحة التبغ تترك أثراً طيباً في نفسي. والدخان يمنع الربو من اللعب بي.

ربّت فيدل على كتف تشي، وقدم له سيجاراً.

مضى على التوقف في هذه المنطقة يومان، وفي اليوم الثالث لم يأتِ الفلاح الذي كان يؤمن الطعام.

وقف فيدل بجانب تشي والشكوك تراوده: «من المحتمل أن

(*) تقال تعبيراً عن الفخر.

يكون رجال السلطة قد قبضوا على صديقنا، وقد يعترف تحت التعذيب. يجب مغادرة الموقع فوراً».

قال سانتشيس الموجود في نقطة المراقبة إن مجموعة كبيرة من الجنود اقتربت، وتمركزت في قمة الجبل.

ـ يجب الوصول إلى سفح الجبل بسرعة. إننا هنا فريسة سهلة.

انسحب المقاتلون إلى المكان المشار إليه. ونوبة الربو عادت من جديد. وقف تشي متكئاً إلى بندقيته، وبدأت المدافع والرشاشات تصب حممها على تلك المنطقة التي أخلوها منذ دقائق. كان العدو يهاجم ويستند إلى معلومات دقيقة.

حاول تشي أن يخطو عدة خطوات، لكنه وقع على الأرض، فرفعه الفلاح كرسبو:

ـ هيا بنا!

حاول تشي تلبية الطلب، معتمداً على كرسبو وبندقيته. كان يتوقف عند كل شجرة، حتى يجمع أنفاسه المتقطعة. لكن مفاصل رجليه لم تعد تحت سيطرته، فكانت تخونه، ويسقط أرضاً.

وصل الباقون إلى سفح الهضبة، واستعدوا للمسير باتجاه آخر، أما كرسبو فكان عليه أن يحمل حقيبة تشي فوق عتاده.

ـ تعال، سأحملك!

ـ لا تستطيع.

ـ أساعدك على المسير!

كانت القذائف تقترب منهم شيئاً فشيئاً. فأحنوا رؤوسهم خوفاً من اكتشاف أمرهم.

ـ اتركني! لقد شارفت النهاية. اركض نحو الرفاق، فأنت تستطيع الوصول إليهم، وأنا أقوم بالتغطية.

ـ لا! بل ستأتي معي.

ـ لكن إذا...

لم يدع السعال مجالاً للحديث. قام كرسبو بسحبه عدة أمتار. لكن المصيبة كانت تتعاظم، فقد بدأ هطول المطر.

ـ لا أستطيع أكثر من ذلك! هيا ابتعد عنّي! قال تشي جاهداً.

صرخ كرسبو وهو يلعن كل من على وجه الأرض، وسحبه عدة أمتار أخرى على أرض موحلة. وقال:

ـ ستسير أيها الشيطان الأرجنتيني رغماً عن أنفك! وإلا أجبرك على ذلك الضرب.

ثم رفع بندقيته مهدداً.

زحف تشي ألى أقرب شجرة، والمياه تسيل على وجهه. مسح جبينه وعينيه بكم قميصه وقال:

ـ حسناً يا كرسبو، هيا بنا! سأتكىء عليك.

* * *

جمع فيدل وتشي قادة المجموعات، لإبلاغهم عن خطة الهجوم.

ـ خلال الثماني والأربعين ساعة القادمة، سنضرب العدو. لكن، لا يمكننا إعطاءكم تفاصيل عن المعركة وهدفها. علينا الدفاع عن أنفسنا من العملاء. أما المقاتلون فعليهم الاستنفار والاستعداد لإشارة الانطلاق. أثارت كلمات فيدل حماساً لدى قادة المجموعات. فقد تعبوا من هذه التنقلات المستمرة دون معركة. وعندما غادر الجميع، قال تشي لفيدل:

ـ لقد جمدنا المقاتلين فترة طويلة. لماذا لا نهاجم الشاحنات على الطريق العام؟ ونستطيع السيطرة عِليها بسهولة ونحصل على الكثير، والشباب متعطشون لمعركة. لماذا تمنعهم؟

ـ إنني أفكّر بثكنة ألوڤيرد، فإذا سيطرنا عليها، ستسمع البلد كلها عن قوتنا الكبيرة. أما إذا هاجمنا الشاحنات العسكرية فسيكون الخبر عادياً، وكأنه مجرد حادث. يجب أن نركز كل

قوانا على ثكنة ألوفير لأنّ الاستيلاء عليها لا يقدر بثمن.

ـ أتعتقد أن الشعب سيؤمن بقدرتنا على الانتصار؟

ـ بالضبط.

* * *

ها قد مضت ثماني ساعات من المسير الليلي، والمقاتلون يسيرون، ويعضّون على جراحهم التي لم تلتئم بعد. والأحذية سيئة جداً، حتى أن تشي كان يرى ضرورة إنشاء مدارس ومخازن أسلحة في المناطق المحررة، لا بل قبل كل شيء، يجب إنشاء معامل لصناعة الأحذية. وبينما هو يفكّر في طرح هذه المسألة للنقاش، أصدرت الأوامر بمحاصرة بيوت السكن، وعدم إطلاق النار إلا على الثكنة.

كلف الميدا بمهمة السيطرة على نقطة المراقبة الشمالية. وراؤول يقوم بهجوم مواجهة. أما تشي ورفاقه ففي الوسط بين الميدا وراؤول. وبيرس وجماعته يقطعون الطرق المحيطة بالمنطق لمنع وصول المساعدات إلى العدو.

بدأت المعركة عن بزوغ الفجر. كان فيدل إلى جوار تشي الذي كان يشاهد كاميليو من مسافة بعيدة، فغمرته سعادة عظيمة لوجود صديقه القديم على مقربة منه.

كانت النيران تنصب بغزارة من كل ثقب من الثكنة على الثوّار. زحف تشي متقدماً نحو موقع العدو، وعندما وصل إلى منطقة مكشوفة تبعد حوالى ستين متراً، سمع أنين شخص ما. فزاد من حذره إذ اعتقد أن أحد جرحى العدو موجود في مكان ما قريب. وأول ما خطر له السيطرة على سلاحه.

ـ استسلم! صرخ تشي، استسلم ولن تصاب بسوء.

بقي الجو صامتاً، ربما كانت إحدى خدع العدو. انبطح على الأرض وأخذ يتحين الفرصة للانقضاض عليه.

زحف تشي بحذر شديد، وانقض على الجريح. إنه الرفيق ليال. أصاب الرصاص رأسه. بدأ تشي بتضميد جراحه، ونسي وابل الرصاص الذي يحيط به. فهو الآن طبيب، وعليه أن يقوم بواجبه. فتّش في جيوبه يبحث عن أشياء طبية، فلم يجد إلا ورقة. كان ليال فاقداً وعيه، ملقى على الأرض بلا حراك. لم يعرف تشي ماذا يفعل، وضع الورقة على الجرح. فجأة، دوت فوق رأسه صلية من الرصاص، انقلب عندها الطبيب إلى مقاتل، وصب حمم نيارنه على العدو.

بدأ ميندوس ألموسوس هجوماً مفتوحاً، معتقداً أن ظهره مقدس يحميه من الموت. لكن، اخترقت عدة طلقاتٍ جسده. وجرح الميدا في يده اليسرى ورجله. أدرك تشي عندها أنه لا مفر من الهجوم المفتوح. فالفجر بزغ، والنهار شارف على الطلوع، ولا مجال للاحتماء بأي شيء، والعدو لم يبخل بإطلاق النار. قامت مجموعة الميدا بإكمال الهجوم، وتمكنت من السيطرة على الموقع الأمامي للحراسة. وهكذا استطاعوا تحرير الطريق إلى الثكنة. أما مجموعة الرشاشات بقيادة جلميرو غارسيا فقد صبت حمماً نارية على الثكنة، وأسكتت حركتهم. وفي النهاية أجبر الجنود على الاستسلام.

بينما كان تشي يبحث عن الطبيب الحربي للثكنة، رأى ثلاثة ببغاوات مقتولة بالرصاص، فأدرك أي بركان من الرصاص قد صُبّ على الثكنة أثناء الهجوم.

قرر تشي أن يوكل أمر الجرحى من الرفاق إلى الطبيب الحربي، الذي سأله:

ـ كم لك في العمل؟ سأله وهو يرتجف رعباً.

ـ لماذا هذا السؤال؟

ـ متى حصلت على شهادة الطب؟

ـ منذ زمن بعيد.

ـ اسمع أيها الشاب، أنا عديم الخبرة، فقم أنت بعلاجهم. ألا ترى يديّ ترتجفان من الألم.

غسل تشي يديه كي يعالج الجرحى، وطلب من الطبيب مساعدته، لكنه كان في حالة رعب أنسته أصول الطب.

لقد اضطروا لترك اثنين من الجرحى، بعد أن أخذ تشي عهداً من الطبيب أن يعتني بـ «ليال وسيلروس»، شرط أن لا يصاب بأذى. أما بقية الجرحى: ماسيو المصاب في كتفه، ومانالس المصاب في رئتيه، والميدا المصاب في يده ورجله وآخرون، فكان على تشي أن يوصلهم إلى أقرب معسكر للرفاق. وعندما أخبر ليال وسيلروس إنهم مضطرون لإبقائهما في الثكنة، أجاب سيلروس بابتسامة. فهم تشي منها أنه يريد القول: «إنها النهاية. وداعاً أيها الرفاق، وليحالفكم النصر!».

في هذه الأثناء استعاد ليال وعيه، وأخذ يرجو تشي أن يجهز عليه، لأنه لا يريد أن يكون أسيراً بين أيدي رجال باتيستا.

ـ لقد اتفقت مع الطبيب على كل شيء. وأعطاني عهداً للاعتناء بكما، كما أنه لدينا العديد من الأسرى من رجال باتيستا، فلن يستطيع أحد المسّ بكما.

كان تشي يقول هذه الكلمات دون أن يعي ما إذا كان يقولها ليهدىء من روع رفاقه الجرحى فقط، أم أنه هو نفسه يؤمن بما يقوله. على كل حال، كان يراوده أمل بشفاء الرفاق.

قضى تشي ليلته مع الجرحى. وكانوا جميعاً مثارين. كانوا يدخنون، ويأكلون ما اغتنموه من خبز ولحم، دون أن يرغب أحد في النوم.

أخذوا يتحدثون عن بطولاتهم، وتحول الهجوم في تلك الليلة إلى معركة أسطورية، كان تشي يضحك من أعماقه، وهو يعدّ

الأعداء الذين سقطوا على يد كل واحد من هؤلاء الرفاق. أخذ يصغي إلى أحدهم باستغراب، حيث كان يتحدث متفاخراً بإجهازه على عدد من جنود باتيستا يفوق العدد الموجود داخل الثكنة قبل الهجوم. وكان يجد متعة بالإصغاء إلى نقاشات كانت تدور بين الشاعر كاليكستو موراليس والشاعر كروسيتو.

لقد حاز كاليكستو موراليس على لقب «بلبل السهول» منذ رحلة السفينة «غرانما». وكان يفتخر بهذا الاسم، حتى أنه كان يرفض أن يسمى بغيره.

أما كروسيتو فكان رمزاً للشاعر القروي. فكان يكتب أشعاره بشكل غير مكتمل. ويحاول الرد على ما يقوله كاليكستو موراليس بالقافية نفسها، ولم يكن يسميه: «بلبل السهول»، بل «وقواق من سييرا».

كانوا يريدون كتابة قصيدة عن الثورة. فعرض كروسيتو على تشي عدة أبيات شعرية عن رحلة «غرانما» من المكسيك إلى كوبا. كانا يسيران في طريق وعرة، حيث مرات عدة أيام دون أية مواجهة مع العدو. كانت الطريق ضيقة، ويسيران جنباً إلى جنب، يأكلان الفاكهة ويتحدثان بسرور، قال تشي:

ـ للأسف، نفتقد إلى الورق. لكن، سيكون رائعاً لو تمكن كل مقاتل من كتابة أشعاره واحتفظ بها في حقيبته!

ـ سيكون رائعاً لو استطعت أنا الحصول على الورق، وكتبت أشعاري.

ـ هل تنسى أشعارك إذا لم تكتبها؟

ـ لا، لا شيء منسي. فأنا أحفظها عن ظهر قلب. وبعد انتصار الثورة سأنقلها على الورق.

ـ هيا، هيا اكمل في قراءة أشعارك. طالبه تشي بإصرار. وأنا سأقرأ عليك بعضاً من أشعار بابلو نيرودا.

* * *

جلس بعض قادة الجيش الثوري مع فيدل وتشي في كوخٍ قروي.

ـ من دون رفيقنا فرانكو بابيس الشجاع، الذي يزودنا بشكل دائم بالتموين من المدينة، والذي يشكل صلة الوصل مع ثوار المدينة، لكان نضالنا عسيراً إلى حد يصعب تخيّله.

ـ يجب أن نوجه له الشكر، ونتمنى له السعادة عبر رسالة نرسلها إليه.

أحضر أحدهم ورقة قسّمت إلى عمودين. في أحدهما نكتب التوقيعات، وفي الآخر تكتب الرتب.

لم يتمكن بعض الرفاق من التوقيع لأنهم أميون. وعندما جاء دور تشي، ألح فيدل أن يكتب رتبة كوميندان مقابل اسمه.

وهكذا، حاز إرنستو تشي غيڤارا على هذه الرتبة، وعين قائداً للقطاع الثاني ولشدة ما افتخر بذلك، أخذ في السعي لإثبات قدرته على القيام بتلك المهمة.

ـ ذكرى 26 تموز تقترب. فليكن هذا اليوم كابوساً على جيش باتيستا. سنحتفل في المناسبة بمهاجمة جيوشه.

عندما سلّمته سيليا النجمة الصغيرة ـ التي تميزه ككوميندان ـ قال لها:

ـ يعتبر سانتشيس موسكيرا من أقسى ضباط باتيستا، ويملك من الوقاحة بحيث إنه يحاول اجتياح سييرا. كما يعتبر من أكثر قادة باتيستا حباً للدماء، يهاجم بيوت الفلاحين، ويترك آثاره الدموية، التي يستمتع بها كمن يشرب كأساً من البيرة. سأحاول ضرب جنوده، وأضع حداً لخنزيريته.

علّق فيدل قائلاً:

ـ إننا نترك لك حرية كاملة في اتجاه هذا الهدف. ونرغب أن نعطي المناسبة حقها.

وصل تشي إلى خيمته بعناء كبير كان يسير متكئاً على بندقيته، ويحمل منظاراً، ووصلات الرصاص، الغنائم، تتدلى من صدره وأكتافه. وعلى رقبته علقت كاميرا للتصوير.

عند وصوله مباشرة، استقبله الصحفي ماسيتّي. وبعد السلام، دعاه إلى الكوخ:

ـ فلنتكلم فيما بعد. أما الآن، فأنا منهك من التعب، ومعدتي تعصرني جوعاً، هيا كل معي، عندنا مربّى الموز، وقليل من الفول.

جلس ماسيتي مواجهاً له. ووضع تشي بندقيته إلى جانبه بأناة ممزوجة بحب، وألقى بالذخيرة إلى منضدة كانت تبعد عنه مترين. فرك كفّيه، وحرّك رأسه إلى الخلف، قائلاً، وكأنه يحدث نفسه:

ـ إننا نقاتل سانتشيس ماسكيرا، أحد أبرع مصاصي الدماء لدى باتيستا. إنه يهاجم سييرا باستمرار، ويفعل العجائب بالسكان. قاربنا على إحكام الطوق عليه أكثر من مرة، لكنه كان ينجو هارباً.

جاء الفلاح بالطعام، وكان فخوراً بتوقف تشي عنده. استعرض تشي الطعام الشهي، كأنه طعام العيد. وقفزت إلى ذاكرته تلك المسيرة الطويلة، التي لم يجدوا فيها ما يأكلونه.

لم يكن يشعر برغبة في الحديث مع الصحفي الأرجنتيني، لكنه يدرك في الوقت نفسه مدى الفاعلية الدعائية التي تعطيها هكذا مقابلة عندما تنشر في الصحف. لقد علم الأسئلة مقدماً. فجميع الصحفيين يشيرون إلى أن الصراع يدور من أجل «انتصار الشيوعية».

تناول تشي غليونه بينما كان يلوك آخر لقمه في فمه، وبدا متعباً، فمدّ رجليه إلى الأمام، فكم كانتا تؤلمانه بعد ذلك المسير الشاق من القيادة إلى المعسكر! وراودته فكرة خلع الحذاء. تناول

ماسيتي سيجاره. أما تشي فأخرج من فمه أول دفعة من الدخان وقال:

ـ لنبدأ.

ـ لماذا قدمت إلى هنا؟

ـ أجاب تشي بحزم:

ـ توجد إمكانية واحدة ووحيدة لتحرير أميركا اللاتينية من الديكتاتورية، هي الإطاحة بها. ويجب القيام بذلك بأية طريقة. وأفضل الطرق ـ هي أفضلها صراحة ووضوحاً.

ـ ألا تخاف من اعتبار مشاركتك في المعارك تدخلاً في الشؤون الداخلية لبلد آخر؟

ـ وطني كل أميركا اللاتينية، وليس الأرجنتين وحدها.

توقف قليلاً، ثم نظر في وجه ماسيتي المضطرب، وتابع حديثه المقنع:

ـ لدي مثل جيد أمتثل به، ألا وهو خوسيه مارتي. وفي وطنه بالذات أحاول ترجمة أفكاره إلى واقع. أنا لا أعتبر ذلك تدخلاً، خصوصاً عندما أعرّض كل ما أملك، حتى حياتي، للخطر من أجل القضية العادلة. إنني أقدم المساعدة لشعب هبّ للإطاحة بطاغية. وهناك دولة أجنبية تقدم لهذا الطاغية المساعدات بشتى ألوانها، وتضع تحت تصرفه السلاح والطائرات، والمال والخبراء، والغريب أنه لا توجد، ولو دولة واحدة، في أميركا اللاتينية تعلن موقفاً ضد تدخل الولايات المتحدة في الشؤون الداخلية لكوبا. ولا توجد دولة تتهم اليانكي بمساعدة باتيستا كي يستمر باضطهاد شعبه. بينما نجد الكثيرين ممن انشغلوا بوجودي هنا. أنا الأجنبي الذي يتدخل في الشؤون الداخلية، ويساعد الجيش الثوري.

كان تشي يلقي نظرات غامضة على ماسيتي، ويتحدث منتقياً

الكلمات المناسبة انتقاءً دقيقاً. فقد كان يقاتل إلى جانب مقاتلين سيئي التدريب، والعناد، وضد عدو يتمتع بقوة يصعب مضاهاتها بالسلاح والعتاد والرجال. كان الأعداء جيدي التسليح والتدريب، وكان باستطاعتهم تحطيم الثوار في فترة من الفترات. لكنه كان يتحدث عن أعدائه بطريقة كان النصر يبدو فيها على مقربة منهم، وأن المسألة مسألة وقت فقط. ثم رفع قبعته إلى الخلف، وظهرت على جبينه صفحة لفحتها الشمس. فبادره الصحفي بالسؤال:

ـ هل يمكننا تسمية هذه الثورة: ثورة شيوعية؟

اضطر ماسيتي إلى تحمل نظرات تشي القاسية:

ـ هذه الثورة تحمل دون شك طابعاً وطنياً. أو بالأحرى ثورة أميركية لاتينية، موجهة ضد سيطرة اليانكي. كثيراً ما يزعمون أنني شيوعي، ولا يوجد صحفي واحد في سييرا لم يكن شغله الشاغل التأكد من أفكاري، ووجهات نظري، وعلاقتي بالشيوعيين الغواتيماليين. وطالما اعتقدوا أنني عضو في الحزب الشيوعي. لماذا؟ لأنني كنت إلى جانب حكومة العقيد فاكوبو ارينس.

ـ لكنك كنت عضواً في الحكومة.

ـ هذا تلفيق. فقط عندما نظمت الولايات المتحدة اعتداءً مسلحاً، قمت بصحبة مجموعة من الشباب بالتصدي لهذه القرصنة من قبل شركة «يونايتد فروت». كان يجب العمل بكل الوسائل من أجل الدفاع عن الثورة في غواتيمالا. لكن ذلك لم يحصل. وشاركت في تنظيم المقاومة. حتى بدأت أيدي الإمبريالية الأميركية باعتقال وشنق كل من مسّ مصالح الـ «يونايتد فروت» بشعرة. عندها انتقلت إلى المكسيك. وهناك، التقيت من جديد بأعضاء «حركة 26 تموز» الذين كنت قد تعرفت إليهم في غواتيمالا. وفي المكسيك ربطتني علاقة حميمة مع فيدل كاسترو وأخيه راؤول. ومنذ تلك اللحظة كانت خطة الانتقال إلى كوبا

جاهزة. وبعد حديث استمر ليلة كاملة مع فيدل، أصبحت طبيب الفرقة. وكان لمعرفتي بمختلف بلدان القارة، وبعد الكابوس الذي عشناه في غواتيمالا، لم يكن ثمة داع لإقناعي بضرورة الالتحاق بالمناضلين ضد أي طاغية من طغاة أميركا اللاتينية. وفيدل نفسه أدهشني بإمكانياته الفائقة. إذ كان قادراً على تحطيم أكبر العقبات. وكان مؤمناً بشكل مطلق بإمكانية الانتقال إلى كوبا، حيث يبدأ النضال الذي يكون النصر حليفه حتماً. لم يكن يشك لحظة في ذلك. وبصراحة، أصابني بعدوى التفائل. يجب العمل. لقد حان الوقت للتوقف عن العواء والبدء بممارسة عمل محدد يوصلنا إلى الغاية المطلوبة. لقد أراد فيدل أن يبدأ بالنضال ليبعث الروح في شعبه من جديد. وهو الذي قال في 1956: «إما أن نحقق الحرية وإما أن نبقى معذبين!». أراد أن ينتقل إلى كوبا على رأس الجيش الثوري قبل نهاية ذلك العام.

وهنا، انقطع الحديث لسماع النشرة الإخبارية لإذاعة الثورة. كان تشي يستمع إلى الأخبار بانتباه كلّي. وبعد انتهاء النشرة نظر إلى ماسيني الذي سأله:

ـ في هذه المنطقة الواقعة تحت سيطرتكم، رأيت أشياء كثيرة. رأيت أماكن للعمل الحرفي. وكما علمت، لقد تمت بفضلك. ورأيت مستشفى عسكرياً صغيراً، ومخبزاً، ومعملاً لصنع القنابل، ومعمل أحذية، وآخر لدباغة الجلود. لكنها متفرقة، فما هو السبب؟

ـ في البداية، وللتوضيح، أقول لك إننا نطمح للوصول إلى الاكتفاء الذاتي. ففي المناطق المحررة، نباشر ببناءالمدارس والمستشفيات الخ. . . لكن أبعدناها عن بعضها كي لا تكون فريسة سهلة لقصف باتيستا. فهو يقوم بالغارات الجوية باستمرار، أما نحن فنتقن الدفاع عن أنفسنا.

ـ رأيت في مصنع القنابل ذخيرة بنادق حديثة الصنع. وأخبرت أنها من صنع يديك، فهل هذا صحيح؟

ـ بالطبع، لأن من ضمن مهامي بناء معامل للتسليح.

لم يكن تشي يشعر بالراحة في تلك اللحظات. وكأن شيئاً ما يضيق على صدره. لم يكن قادراً على التركيز ـ ثم غرق في التفكير لفترة من الوقت، لم يزعجه فيها ماسيتي ـ فجأة، قفز من مكانه، رفع صوت المذياع، وأخذ يلف بمفتاح الموجات. وسرعان ما أذيع خبر رسم على وجهه علامات حزن: فالاضراب العام فشل. عندها لم يعد يعطي أدنى انتباه للصحفي، وكأنه لم يكن يعرفه من قبل. لقد كانت تشغله مشاكل أخرى. فجأة، انتصب واقفاً، واختفى من البيت. لم يتمكن الصحفي من إتمام الحديث معه إلا بعد مغيب الشمس فقط.

ـ ما هو سر دعم الفلاحين للثورة، ولفيدل كاسترو، بحسب اعتقادك؟

ـ لقد عانوا الكثير من إرهاب الاقطاع، وجنود باتيستا السفاحين.

والفلاحون كانوا أول من شعر بمصلحتهم بالثورة وبفائدتها. لقد بدأ تطبيق الإصلاح الزراعي.

ـ كيف تم ذلك وأنتم لا زلتم تقاتلون؟

ـ حتى الآن، وزعت الأرض على ما يقارب الستين ألف فلاح، ولا نزال مستمرّين.

ـ ما هو النظام الذي تبنون إصلاحكم على أساسه؟

ـ ليس هناك من نظام معقد. في الجوهر يكمن نظام معاد للبيروقراطية.

لقد حددنا مساحة الأرض التي تكفي لإعالة عائلة من شخصين، وأربعة أو أكثر. وهكذا أصبحت لدينا معطيات محدّدة،

أخذنا نوزع الأرض على أساسها. نوزع الأرض أولاً، ثم نتفق مع الفلاحين على نوع الزراعة، ومن ثم نقدم لهم البذار والآلات.

ـ هل يعقل أنكم خططتم لكل ذلك قبل سفركم على متن «غرانما» من المكسيك؟

ـ لم نكن نحلم بكل ماحققناه حتى الآن. لقد أصبحنا أولئك الثوريين الحقيقيين الذين تراهم أمام عينيك، لقد أصبحنا في قلب الثورة، وأتينا لطرد الطاغية. لكننا أدركنا أن الفلاح بحاجة إلى الحرية أكثر من أي شخص آخر. إننا لا نرغب في الأحاديث الصارخة. بل كل ما نبغيه هو تقديم المساعدة الحقيقية والفعالة التي تسهم في تحسين أوضاع معيشتهم. فكل متر من تلك الأرض التي يفلحها الفلاحون ليس لنا، إنه ملكهم. ونحن نحقق لهم الحياة الأفضل. بالنسبة لأولئك الذين يعيشون في المناطق المحررة، الثورة انتصرت عندهم اليوم.

دخل عليهم رجل مسلح بكامل عتاده، همس في أذن تشي. فهز تشي رأسه. ووضع عدة أمشاط من الرصاص على كتفه، وتناول بندقيته، ثم قال:

ـ للأسف، أنا مضطر للمغادرة، فالثورة لا تنتظر.

* * *

جلس تشي على العشب يدخن غليونه، وتحلق الرفاق من حوله يأكلون لحم بقرة كانوا قد ذبحوها. أما مراسلته الحربية إلييدا مارتش، تلك الفتاة الكوبية، فجلست إلى جانبه تحدثه عن الوضع العام في المدينة. كانت متعبة، لكنها رغم ذلك، كانت تبدو جميلة. في هذا الوقت بدأت إذاعة الثورة ببث نشرة الأخبار: «لقد باء الهجوم بالفشل. قامت قوات العدو المؤلفة من اثني عشر ألف جندي، تدعمها دبابات تشيرمان، بهجوم واسع على قوات

الجيش الثوري، مستخدمة النابالم. وبعد معركة حامية، استطاعت قواتنا أن تصد الهجوم، وأن تسيطر على محطة إرسال للعدو. وتمكنت من حل الشيفرة. فأصدرفيدل كاسترو أوامر كاذبة إلى الجيش، دفعته إلى قصف مواقعه».

علت ضحكة واحدة من تشي وإلييدا. ثم أخذا يصغيان إلى كلمات متقطعة: «فشل الهجوم الواسع. تكبد جيش باتيستا خسائر فادحة. قتل أكثر من ألف جندي. كسرت شوكة العدو».

ـ لقد قصفوا مواقعهم. آه، أي محنك هذا، فيدل! نحن لا نملك الطائرات، لكننا نستخدم طائرات باتيستا.

نهضت إلييدا من مكانها، لأن عليها إنجاز مهمة جديدة. همت بوداع تشي، لكنه بقي جالساً. شد الواحد منهما على يد الآخر، ونظر كل منهما في عيني الآخر. استمر تشي بالشد على يدها، تعبيراً عن تقديم عواطفه. توسعت عينا إلييدا قليلاً وكأن شرارة عبرتهما.

* * *

كان ظلام الليل حالكاً. وضوء يتيم يقترب، ينبعث من سيارة «جيب» يضيء الطريق أمامها. وأناس يسترسل شعرهم على الأكتاف، وتتدلى فتائل لحاهم من ذقونهم. كان التعب يحفر قنوات في وجوههم. يحملون السلاح الذي بدا جزءاً منهم. يلبسون ملابس مرقطة، وأحذية عسكرية مهترئة. يجلسون على قارعة الطريق، يتحدثون عن بطولاتهم في تلك المعارك.

هذه المرة أيضاً، كان الزائرون القادمون في الجيب يسألون عن تشي غيفارا، وبحوزتهم معلومات عن المدينة. كان القادمان سيرو وديبغو.

كان تشي يقف قرب النار، يتكىء على بندقيته، ويلبس معطفاً أسود، تتشابك من فوقه سلاسل الرصاص. ويتدلّى على خاصرته

مسدس الرفولفير، الذي كان من الغنائم، والذي لم تكن معه سوى أربع طلقات. كان من الممكن أن يطلقها ويرمي به إلى القمامة، لكنه أبقى عليه إلى وقت قد تحسم فيه هذه الطلقات أشياء كثيرة.

لقد جاء سييرو وديبغو لوضع إمكانياتهما تحت تصرف الثوار.

لوح تشي لهما.

ـ إنه يشبه جنكيزخان. همس سييرو لصاحبه الذي أجابه:

ـ بالفعل، إنه مثله.

سمع تشي ما قالا. لكنه لم يفعل شيئاً. ابتسم وقدم يده للمصافحة. في هذه الأثناء انتابه سعال خفيف.

ـ لقد جفّ كل ما في جسمي. قال ذلك، وكأنه يحدّث نفسه.

وقف الضيفان بالقرب من تشي، وكانا يبدوان مرهقين من جراء السفر.

اقترب تشي من سييرو، وقال:

ـ هكذا إذاً، أنت لا توافق على الإصلاح الزراعي.

تلعثم سييرو، ولم يتمكن من انتقاء كلماته. لكنه أبدى اعتراضه:

ـ لا طبعاً، أنا مع الاصلاح الزراعي. يجب أن نفرض عليهم ضرائب باهظة كي نتمكن من شراء أرضهم بأموالهم نفسها. ثم نبيعها للفلاحين بسعرها الحقيقي، ونقدم لهم الدعم بمختلف الأشكال، كالقروض مثلاً.

ـ صه! كيف دخلت هذه الفكرة إلى رأسك؟ إن ما تقوله ليس سوى شعار رجعي. فمن غير المنطقي أن تأخذ المال مقابل إرجاع الأرض إلى الفلاحين. قال تشي ذلك وهو يخرج الدخان من فمه، ويقترب من سييرو إلى حد كاد السيجار معه أن يلامس وجهه. لكن سييرو أصرّ على حديثه:

ماذا جرى لك؟ أتريد تقديم كل شيء إلى الفلاحين. ثم يحولونه إلى بور غير صالح إلا للموتى، كما في المكسيك؟ على الإنسان أن يشعر أنه من دون عمل لن يحصل على شيء!

رفع تشي يديه إلى الأعلى، كمن يطلب الرحمة من السماء:

ـ اللعنة! أتسمعونه.

تحركت نسمة هواء باردة، جمع تشي معطفه، وفرك سييرو يديه، وحاول جاهداً تقديم أساس لموقفه:

ـ تشي، إنني أفهمك. لكن من الخطأ أن نعمل علناً. أتعتقد أن الأميركيين سيقفون مكتوفي الأيدي عندما ندفع الثورة إلى الأمام، وبهذه السرعة؟

قذف تشي سيجاره بانفعال، فوقع على التراب المبلل، وانطفأ بسرعة.

ـ آخ، هكذا إذاً. فأنت من أولئك الذين يدَّعون إمكانية صنع الثورة من خلف ظهر الأميركيين. إنه علينا منذ البدء تحويل الثورة إلى صراع مع الإمبريالية.

هبت رياح أكثر برودة. فهم سييرو بالذهاب، لكن تشي أمسك به وقال:

ـ قف! يجب مناقشة هذه القضية.

استمر النقاش عدة ساعات، تحدث خلاله تشي عن آمال وأحلام الفلاحين الفقراء. نام المقاتلون جميعاً ما عدا الحرس. وكانت أسنان سييرو لا تطبق على بعضها، بسبب البرد القارس مع حلول الصباح.

قدم تشي سيجاراً لسييرو، لكنه هز رأسه قائلاً:

ـ شكراً، لا أريد، وأسناني لا تستطيع حمله. يا له من برد! لقد تجمّدت يداي.

ـ حسناً، هيا بنا إلى النوم.

كان تشي غارقاً في نومه عندما دوّى صوت الرصاص. قفز بسرعة، وتناول بندقيته مجهزاً نفسه للمعركة. لكن، تبين أن أحدهم أطلق عدة رصاصات بالخطأ، فأصابت عدداً من الرفاق. عاد تشي إلى النوم لوجود أطباء آخرين بإمكانهم معالجة الجرحى.

في اليوم التالي أخبر تشي الضيفين بوجوب استمرارهما في تقديم المساعدة، وضرورة تحقيق وحدة سياسية، إذ هناك العديد من المجموعات التي تعمل من دون قيادة موحدة، مما يشكل سبباً في تشرذمها.

ـ بالإضافة إلى ذلك، نحن بأشد الحاجة إلى ذخيرة. لقد كسرنا العمود الفقري لجيش باتيستا، وصرفنا لذلك كميات كبيرة من الرصاص. والغنائم شارفت على الانتهاء. فنحن نحتاج إلى السلاح والمال. لم لا تنظمون سرقة بنك في سانت سبيريتوس؟ هناك إشاعات في سييرا أن الثوار سيقومون بسرقة البنوك.

ـ ماذا تقول يا تشي! نحن لا نقوم بذلك. هذا بسبب عزلنا عن الحلفاء الذين يضعون أموالاً في البنوك. ثم نحن لا نحتاج إلى سرقة البنوك، فقد جمعنا ما يزيد على الخمسين ألف بيزو، وهذا مبلغ لم تمتلكه الثورة في يوم من الأيام.

ـ هراء! لماذا لا ترى أن أي فلاح لم يحتج على شعار «الأرض لمن يفلحها»؟ ولماذا لا ترى أنه لم يقف أحد ضد هذا الشعار باستثناء ملاكي الأرض؟ فالشعب المناضل سيدعم هذه الفكرة، لأنه لا يوجد عامل واحد يملك فلساً واحداً. بالطبع، هناك بعض المستغلّين الذين يدعموننا بالمال، وهو فائض استغلالهم. وهم يطمحون من وراء ذلك إلى كلمة شكر، لأنهم يعرفون أن الثورة ستنتصر. إنها مسرحية ـ مهزلة! فعلاً، إنها مدعاة للسخرية. لكن، لن تكون هناك رحمة، خذوا ما في البنوك من أموال، والأغنياء سيدفعون نصيبهم في كل الأحوال.

ـ لكن، يا تشي. . .

ـ أنا كثوري، آخذ هذه المسؤولية على عاتقي. وأنا على استعداد لتقديم تقرير عن كل نشاطاتي عندما تطلب القيادة الوطنية ذلك، وأتقدم للمحاكمة أمام أية محكمة ميدانية للثورة. سأقدم تقريراً عن كل قرش وصلنا. أما الآن، فاذهبوا! لقد تحدثنا عن كل شيء، ونفّذوا الاستيلاء على البنوك!

ـ نظر سييرو وديبغو إلى بعضهما نظرة استغراب، وسارا إلى المدينة.

كان ماريو إسكالون فرديسيا ـ فلاح من محافظة ـ إريينته ـ يسير إلى جانب تشي، والكوميندان غارق في التفكير إلى درجة أصفر معها وجهه.

ـ ماذا حلّ بك يا كوميندان؟ لماذا غاب المرح عنك؟ انظر! بعد هذه المعاناة، وتلك المعارك القاسية، أصبحنا نتقدم باتجاه سانتا كلارا.

نظر تشي إلى صديقه المحارب القديم، وهو يداعب سلاسل الرصاص المعلقة على كتفه، وقال:

ـ لقد أمرنا فيدل بتحرير مدينة سانتا كلارا، وسنقوم بذلك بالطبع. لكن، ستكون المعركة طاحنة. والرجال متعبون، وأحذيتهم مهترئة، أكلت من أرجلهم حتى أنزفتها. إننا مسلحون بشكل سيء، وكل ما لدينا هو ثلاثمئة رجل فقط.

ـ لكننا مجربون في المعارك. لقد اختبرنا في أقسى المعارك وأعنفها، ونهب أنفسنا لقضية الثورة حتى العظم.

ـ أعرف ذلك. وتكمن قوتنا في معنويات المقاتلين، لكن العدو وضع ما يزيد على الثلاثة آلاف جندي في سانتا كلارا. وهم مسلحون بشكل جيد، وغير منهكين من السير وطوله. ناهيك

عن التحصين الجيد، ولديهم ثكنات ودبابات وطائرات وذخيرة لا تعد ولا تحصى.

أشعل تشي سيجاراً جديداً، وتابع كلامه:

ـ ماذا نفعل بهذه الدبابات؟ هذا السؤال يعذبني طول الوقت. لكن، يبدو أن شيئاً ما بدأ يتبلور في مخيلتي. فالمشكلة تكمن في ضرورة إجبار الدبابات على التوقف حتى نتمكن من تدميرها.

ـ يمكننا نصب كمائن للدبابات. فقد جربنا ذلك ونجحنا بشكل رائع.

ـ صحيح يا ماريو. لكن، هذا لا يمكن تنفيذه في شوارع سانتا كلارا.

ثم فرك جبينه بأصابعه، واستغرق في التفكير..

ـ إننا بحاجة إلى شجر النخيل. نصنع منه عوائق للدبابات. فإذا حاولت الدبابة المرور بين النخيل، سيدور الجذع تحت جنزيرها، وتتوقف.

ـ بالضبط يا كوميندان. هكذا سنفعل. عندها سيكون النخيل أسفل الدبابة، ونضربها بقنابلنا.

أصبح بإمكان تشي أن يضحك قبل أن يرمي السيجار من فمه. ربّت على كتف ماريو. هكذا يكون الثوار، كلهم حماس، وينضحون بالسعادة.

كانا يسيران عبر حقول قصب السكر الممتدّة أمام ناظريهما حتى الأفق. ولم يكن شجر النخيل مرئياً بعد.

ـ بعد الثورة علينا زراعة الكثير من هذه الأشجار. لقد قطعوا كل شيء من الجذور على هذه الجزيرة. وماذا يعني النخيل لليانكي الأميركي؟ إنهم مهتمون بالسكر، وعلى الجزيرة أن تراعي رغبتهم.

مرّ فلاح بالصدفة. اقترب منهم، وهو يتمالك نفسه بصعوبة من الفرح، صفق بكفيه، ثم قال:

ـ أهلاً وسهلاً! ستتوقفون عندي. أنا أعرف أنكم جياع، وترغبون بشربة تلين حناجركم. لدي بقرة، أذبحها لكم. وهذا شرف لي! وبكى من الفرح. شد تشي على يده، وشكره على دعوته:

ـ أأنت حقاً تشي الشهير؟

ـ إنني أدعى تشي غيڤارا!

ـ كيف قُدّر لي أن أعيش لأرى هذه اللحظة. لقد أهانوني، وضربوني، وعذبوني جوعاً، وسرقوا لي أطفالي. لم أكن أجرؤ على التفوه بكلمة واحدة. أنا بالنسبة لهم مجرد حيوان، حيوان عامل. اذهبوا بهم إلى الشيطان! اطردوهم من هذه الجزيرة. فأنتم قادرون على ذلك، وهم يخافونكم. إنهم يرتجفون خوفاً عند سماعهم باسم تشي. أنا عجوز ومريض، إنسان معذب، لا أستطيع على قتالهم، فافعلوا ذلك عني، وأنا أطعمكم وأسقيكم.

وافق تشي على دعوته، لكنه قال:

ـ لا تفكّر بذبح البقرة. فأنت بحاجة إليها، أما نحن، فيكفينا الغول الأسود، والموز المسلوق.

دخل الفلاح إلى كوخه سعيداً بهذا الشرف. وبدأ مع زوجته بتحضير الطعام مستخدمين كل ما لديهم. «ما ضرنا لو لم يبق شيء من الاحتياط، فبعد مجيء الجيش الثوري، نصبح في الأراضي المحررة، ولن تكون هناك حاجة إلى التخزين، لأن الثوار لا يدعون أحداً يموت من الجوع». شرحت ذلك زوجة الفلاح لتشي، وقامت بتحضير الطعام وهي في غاية السرور. كان المقاتلون في غاية الجوع، كما أنهم لم يكونوا على معرفة متى سيتمكنون من تناول الطعام.

انتشر الحرس في كل الاتجاهات، وقفوا في الأماكن الحساسة، ما عدا إلڤا كريتو ومجموعته الاستطلاعية «الهازئة بالموت»، والتي لم يكن يدخلها إلا أفضل المقاتلين وأشجعهم، والذين يعتبرون ذلك شرفاً كبيراً لهم.

قرر إلڤا كريتو ـ الصغير الحجم ـ استغلال فرصة التوقف من أجل استطلاع المنطقة.

ـ ألهذا الحد أنت متحمس للمعركة؟ أين المقاتل المأجور العتيق. قال له تشي مازحاً.

علق إلڤا كريتو ضاحكاً:

ـ بالضبط. ولهذا انضممت إلى صفوف الجيش الثوري.

ـ قريباً جداً، ستتمكن من اختبار شجاعتك.

كانت السماء صافية، وخالية من الغيوم. جلس تشي متكئاً إلى حقيبته العسكرية. وأخذ يخط رسالة إلى فيدل كسترو. وهو يستمع إلى رفيقين يتحدثان بحرارة عن أكل الصقور، بعد أن مرّ رفّ منها فوق رؤوسهم. قال أحدهم إنه من الممكن أكل كل ما هو طائر، أما الآخر، فأجابه: من الأفضل لي أن أحرق في جهنم من أن آكل لحم آكل الجيف.

اقتربت الفلاحة من تشي، وهمست في أذنه: «لدي شيء خاص لك، لأنك تشي المشهور. لقد ذبحت لك دجاجة، وهي مشوية وجاهزة. هيا لتأكلها».

ـ لكن، كل ما عندكم من الدجاج لا يكفي لرجالي.

ـ بالطبع لا، أنا فعلت ذلك من أجلك، لأنك الكوميندان.

شدَّ تشي على يدها بحرارة من أعماق قلبه؛ لأنها فعلت كل ما في وسعها وحاولت القيام بكل ما هو أفضل. لكن، لم يكن بوسعه الموافقة على هديتها.

ـ كلوا هذه الدجاجة أنتم أيتها العمّة. فأنا لا أريد أن أختلف

عن رفاقي بشيء، ولأنني كوميندان بالذات. لكنني أشكركما على هذه الدعوة، وعلى حسن ضيافتكما لنا.

نظرت إليه الفلاحة متعجبة:(

ـ لكنكم أصدقاؤنا!

مسح تشي بكم بزّته العرق المتصبب على وجهه، وبقيت آثار الغبار عليه. لقد تعود على الوسخ، حتى أنه لم يعد يلاحظه. لم يشعر في يوم من الأيام أنه سعيد كما هو اليوم. لقد شعر وكأنه رجل ذو سبع أرواح. كان دوماً على استعداد لتقديم نفسه قرباناً، حتى على «غرانما» نفسها، كان قد أعدّ نفسه لذلك. لكنه آمن اليوم أنه لم يطلق طلقته بعد، وليس هناك اليوم من إنسان في الكون يستطيع إيقافه. لقد عاش تلك اللحظة السعيدة برومانسية، وإصرار واقعيين. سيأخذ سانتا كلارا بصحبة رفاقه في المجموعة الثامنة. فهي مدينة تتقاطع فيها طرق مواصلات الجزيرة جميعها، ومن يسيطر على سانتا كلارا كأنما يسيطر على كوبا بأسرها.

لم يسبق له أن كان في هذه المدينة، لكنه عرف الكثير عنها من الأحاديث والصور! فالمدينة محاطة بسلسلة من الجبال، يتمركز فيها جنود باتيستا الذين يحوزون على أسلحة ممتازة، ولديهم عشر دبابات.

جمع تشي المقاتلين من حوله وأشعل سيجاراً ليخفي به إرباكه السعيد.

ـ وهكذا، وصلنا إلى سانتا كلارا، التي قدمنا للسيطرة عليها بهجوم خاطف. الرفاق في المدينة نشيطون، وعملياتهم لا تفسح في المجال أمام جيش باتيستا للهدوء. لقد خبأوا لنا في المدينة الكثير من الطلقات، والزجاجات الفارغة. وعلينا تصعيد المعركة داخل الأحياء السكنية، لأنه يستحيل على جيش باتيستا استخدام دباباته فيها. سنبدأ بمحاصرة كل الأماكن الستراتيجية والهامة في

المدينة. والضربة الأولى يجب أن تكون ضد القطار، يجب نسف جميع الطرق المؤدية من وإلى مركز المدينة.

كان تشي يلاحظ أعين المقاتلين تشع بريقاً، ويشدون على بنادقهم التي كان القسم الأساسي منها جديداً. إذ في الطريق إلى سانتا كلارا سلّم عدد كبير من الجنود سلاحه أو تركه وولى هارباً، أو أنه رمى به أرضاً للتخلص منه. فالقدرة النارية للجيش الشعبي لم يسبق لها أن شهدت مثل هكذا قوّة.

ـ إننا قادمون يا باتيستا.

ـ الوطن أو الموت.

ـ إننا لمنتصرون.

دخلوا المدينة الجامعية دون معركة. نظم تشي فيها مركزاً لقيادته المركزية. ووضع عدداً آخر من المراكز القيادية والتوجيهية بالقرب من مركز المدينة. أخذ السكان يتنقلون بحذر، ويراقبون تصرفات الثوار. كانت الأغلبية مسرورة لبوادر الانتصار.

جاء رجل من بعيد يتجه نحو تشي ويصرخ بأعلى صوته:

ـ اعطوني سلاحاً! فأنا أريد أن أقاتل أيضاً. أريد أن أقاتل هذه الحيوانات!

كانت فيالتا بيرس غوتيرُّس قد خزنت المئات من الزجاجات الفارغة في منزلها، رغم قلة الفراغ لديها، نظراً لعملها السري في حركة 26 تموز، جاء الآن دورها. أمر تشي بتحضير القنابل اليدوية. فأحضروا البنزين، وقدموا شرحاً عن طريقة تصنيعها لكل الذين رغبوا في المساعدة.

ـ فتائل! يلزمنا الكثير من الفتائل! إجمعوا كل ما يقع تحت أيديكم من أكياس وملابس.

عَمَرت المنازل بالذين بدأوا بتصنيع الزجاجات الحارقة. وانتشرت رائحة البنزين في كل مكان. وبدأ الناس يروحون ذهاباً

وإياباً وهم يحملون الزجاجات الحارقة، حتى بدا المشهد وكأنه تحضير لافتتاح سوق جديد.

بدأ إطلاق النار في جميع أحياء المدينة تقريباً. ولاحت مناظر المسلحين على أسطح المنازل. حاول بعض الجنود الهرب من المدينة، والقليل منهم استطاع الاختفاء، أما الأغلبية فوقعوا في الأسر وانتزعت منهم بنادقهم.

ها هو أول الكمائن نصب للدبابات، ووقعت دبابة فيه. كان ذلك في ممر ضيق بين المنازل، مما أعاق مدفعيتها. وبدأت الزجاجات الحارقة تتساقط من نوافذ الأبنية المحيطة، وألسنة النار تتراقص من مختلف الاتجاهات. بدت العملية كأنها غير فعالة. فجأة، ظهر جندي من برج الدبابة، وأخذ يطلق النار على الثوار الذين يتنقلون على أسطح المنازل. لكنه لم يتمكن من إصابة أحد. فأطلق تشي طلقة أصابت جمجمته، وأخذت جثته تتمايل ببطء وتهوي داخل الدبابة. عبثاً حاولت مدفعية الدبابة الدوران بين المنازل. ارتفع مدفعها كخرطوم الفيل، وبدأ الطاقم باطلاق النار على أسطح المنازل المقابلة.

لعلعت الرشاشات. وفجأة، قفز مقاتل، لم يكن أحد يعرفه، وعلى الأغلب أنه من سكان المدينة الذين انضموا للثوار منذ ساعات، قفز إلى سطح الدبابة، واقفاً على البرج، ويحمل بيده زجاجتين حارقتين، بدا وكأنه ليس في عجلة من أمره، ألقى نظرة إلى داخل الدبابة، ثم ألقى الزجاجتين، وبدأت الصرخات تعلو. خرج الثوار من مخابئهم، وبنادقهم موجهة نحو البرج. حاول أحد الجنود الفرار، لكن النيران أجهزت عليه. رفع الشاب الشجاع يديه، مشدداً على قبضته وهو يصرخ: «لقد تمت! لقد تمت! إننا سننتصر!».

بعد دقائق معدودة استقرت طلقة في قلبه. أحضره تشي إلى

المستشفى العسكري. وأخذ يتحدث إلى الجرحى لرفع معنوياتهم. فالمقاتلون المستلقون على الأسرة أصيبوا بجروح بالغة، وبعضهم كان فاقداً الوعي.

أسند تشي مقاتلاً يحتضر. حاول الجريح التحدث إليه بشيء ما، انحنى تشي عليه كي يسمعه بوضوح:

ـ أتذكر يا كوميندان عندما صادرت بندقيتي لأنني أطلقت الرصاص خطأ. وقلت لي يومها: «دبّر غيرها! اذهب إلى المعركة، وانتزع بندقية من عدوك...».

بدت على وجه المقاتل ابتسامة:

ـ ... أنا انتزعت البندقية. لقد حصلت عليها في المعركة...

استشهد الرفيق بين يدي تشي.

واجه الثوار مقاومة عنيفة في جبل كابيرو. وكان القطار المحمل بالجنود والضباط، والأسلحة، والذخائر، يقف في مكانه، بعد أن قطع الثوار جميع الطرق المؤدية إلى المدينة. حدد تشي مكانه، وأمر بقطع السكة الحديدية خلف القطار؛ لأنه المكان المناسب لتصفية الحساب مع هذا القطار المقاتل.

ـ يعتقدون أن علبة السردين هذه تحميهم. وأنها ذات مناعة ضد عدو أعزل من السلاح. لكننا سنتقدم باتجاهم في هجوم مكشوف، من كل سطح ومن كل زاوية. سيكمن لهم أحد الثوار بزجاجة حارقة ليحول القطار إلى فرن حامٍ، ويصبحون حطباً له. لن يكون أمامهم سوى الاستسلام أو الحريق.

احتل ثمانية عشر مقاتلاً مواقعهم، وأحضروا الزجاجات وصناديق الذخيرة. في هذه المنطقة بالذات يتحدد مصير المعركة. عندما رأى قادة القطار جبل كابيرو محاصراً، قرروا التراجع بالقطار إلى خارج المدينة.

مسح تشي عرقه، وأحكم الإمساك ببندقيته. دار الهمس بين المقاتلين:

ـ إنهم قادمون. القطار يتحرك. الآن سيتقرر مصير المعركة.

كان تشي يعلم أن مرتزقة باتيستا يشعرون بأمان طالما أنهم داخل القطار، ويعتقدون أنهم قضوا على هؤلاء «المشاغبين». فالبيوت الأولى بدت وكأنها مسالمة، لم يظهر إنسان واحد فيها. فجأة، حدث ارتطام عنيف. ودوّى انفجار كبير، وتتابعت الانفجارات. خرج رأس القطار مع عدة قاطرات أخرى عن خط السكة الحديدية. وبدأت الزجاجات الحارقة تتطاير من كل حدب وصوب. انطلقت النيران الغزيرة من فتحات التهوية في القطار وكأنها حمم بركانية. لم يستطع الثوار إصابة الفتحات بسهولة، فاستخدموا الزجاجات الحارقة بشكل أساسي.

دعا تشي الجنود للاستسلام عدة مرات، لكنهم استمروا في المقاومة الشديدة. حتى شعروا بالنيران تأكل القطار من تحت أقدامهم، ومن فوق رؤوسهم فاستسلموا جميعاً. ومرّ أمام المقاتلين ثلاثمئة جندي وسبعة وعشرون ضابطاً رافعين أيديهم.

لم يفعل الثوار بهم شيئاً. كان الحرس ثلاثة ثوار، ولم يجرؤ أحد من الأسرى على الهرب.

قرر تشي إحصاء الغنائم، فكانت ستة صناديق ذخيرة، وخمسة مدافع خفيفة، وأربعة عشر رشاشاً، وثماني وثلاثين بندقية، وثلاثمئة وثمانية مسدسات، ومدفعاً رشاشاً حديثاً. أصبح في حوزتهم من العتاد والذخيرة ما يكفي لإنهاء بقايا جيش باتيستا وتصفيته في المدينة.

كان اثنا عشر رجلاً من موظفي المخابرات العسكرية يتمركزون في فندق «غراند ـ أوتيل»، وكانت بناية الفندق أعلى بناية في مدينة سانتا كلارا، تشرف على الساحة المركزية في المدينة. إذ

يمكن من الطابق العلوي رؤية معظم شوارع المدينة. كان الاثنا عشر رجلاً يتمركزون في الطابق العلوي، وهم من القناصة المحترفين، ومزودين ببنادق لها مناظير. لقد نشروا الرعب في صفوف الجميع، إذ حصدوا الثوار الموجودين في الساحة المركزية. وعقدوا العزم على المقاومة حتى آخر رجل منهم. فلا مجال للرحمة بهم، وهم يحوزون على حقد سكان المدينة، نتيجة القتل والتعذيب، والعنف الذي مارسوه. جلس عملاء المخابرات السرية في الطابق الثاني عشر، حيث المطعم والمطبخ، ولم يكونوا بحاجة للذخيرة والتموين.

احتل الثوار مواقعهم حول ساحة السوق، وبدأوا بإطلاق النار على نوافذ الطابق الثاني عشر من الفندق. وسرعان ما اختفى الزجاج من أمامهم. لكنهم لم يتمكنوا من اجتياز الساحة بأي شكل من الأشكال. عندها قرر تشي استخدام الأسلحة الثقيلة، التي غنموها، لتغطية الهجوم على الفندق.

حضر تشي على متن المدرعة، وعند بزوغ الفجر بدأ الرشاش الثقيل باطلاق نيرانه على الطابق الثاني عشر. بدت غيوم من الغبار، وبدأ الرجال باقتحام الفندق.

أرسل تشي برقية إلى القيادة، بصفته قائداً عاماً للقوات المسلحة المرابطة في مقاطعة لاس ڤيلياس: «سانتا كلارا بكاملها في أيدي قوات الجيش الثوري».

كان ينتظر الأوامر الجديدة، وسيجاره ينتقل بين أصابعه. الرأس تعب، ألقى به إلى المنضدة منكئاً إلى كفه. جاءت إلييدا وسألته:

ـ ماذا بك يا تشي؟ لقد انتصرنا. لماذا يطبق الحزن على وجهك؟

كانت تحرك يدها على رأسه مقدمة له العطف والحنان والمشاعر الدافئة.

أخذ من سيجاره نفساً عميقاً، ثم قال:

ـ عليّ أن أخبر شعب كوبا خبراً مؤسفاً. لقد استشهد أحد أفضل المقاتلين وأشجعهم ـ إلڤا كرتو، القبطان الشاب قائد مجموعة «الهازئين بالموت».

ـ لا! صرخ مقاتل شاب. لا! هذا ليس صحيحاً! إلڤا كرتو لم... انقطع صوته، وأجهش بالبكاء.

ـ نعم، قال تشي. لقد استشهد. إنني أشعر بفراقه وكأن مئات من أفضل مقاتلينا قد غادروا هذه الحياة.

أتعلم، قال الشاب وهو يبكي، لم أكن أعرفه، بل عرفت من الآخرين ماذا فعل بتلك الثكنة... أتعرف أية ثكنة... تلك التي أردتم احتلالها. عندما توجه إلڤا كرتو إلى الجنود وطلب منهم الاستسلام، وأجابوه أنهم يرغبون في مناقشة المسألة فيما بينهم. حيث قال لهم حينها: «حقاً تباحثوا. أما أنا فسأستلقي هنا وأنام». وفعلا استلقى ونام. وكان لذلك أثر كبير حطّم معنوياتهم وقرروا الاستسلام، رغم تفوقهم العددي. أهذه حقيقة؟ أخبرني، هل هذا صحيح يا كوميندان؟ لقد كان شاباً خارق الشجاعة. لا أستطيع التصديق أنه...

بعد وقت قليل من خروج الشعب للقاء الثوار وتكريمهم. أعلن هرب باتيستا.

* * *

أحلامي لا تعرف حدوداً

لم يتمكن فيدل من الاتصال به هاتفياً إلاّ بعد منتصف اليوم الأول من كانون الثاني عام 1959.

ـ تشي، فيدل يتكلم. لا شك أنك علمت بهرب باتيستا. لقد حانت اللحظة الحاسمة. علينا تثبيت النصر. وفي هافانا جرى انقلاب حكومي، هو نسخة طبق الأصل عن سلفه. جمع الجنرال كانتيلو بعض المتلاعبين السياسيين، وبعض أعضاء المحكمة العليا، العفنين، وعينوه رئيساً للدولة. كل ذلك بتخطيط من سفارة الولايات المتحدة. إنه لا يملك في الحقيقة سلطة. لكن، رغم كل شيء، علينا بالتحرك، والاسراع في تحرير العاصمة. إنها مهمتك أنت وكاميلو. لقد تلقى كاميلو أمراً باحتلال المعسكر الحربي «كولومبيا». أما أنت فعليك باشغال المعسكر الثاني بالحجم ـ «كابانيا». وأنا سأتحرك إلى محطة الإذاعة من أجل الدعوة إلى إضرام عام. أتمنى التوفيق!

تقدم تشي وكاميلو في اليوم التالي على رأس قواتهما إلى هافانا. كان استقبال السكان لهم مشرفاً. لقد استقبلوهم بصرخات الفرح. وكان التجاوب مع الاضراب عاماً وشاملاً.

استسلم الجنود المتمركزون في «كولومبيا» دون أية مقاومة، وعددهم عشرون ألف جندي يشكلون الاحتياط الأساسي لباتيستا.

أما تشي فتمركز في العاصمة هافانا دون أية مقاومة أيضاً. وفشلت بالتالي لعبة الجنرال كانتيلو.

بعد يومين من تمركز تشي في هافانا، تمكن مراسل صحيفة «البايس» التي تصدر في الأورغواي من إجراء مقابلة معه.

ـ لا، أنا لن أشارك في الحكومة. أجاب تشي بحزم قاطع وواضح. أنا مجرد كوميندان في الجيش الثوري. وعندما تعود الأمور إلى طبيعتها، أعود مواطناً عادياً، وأهب حياتي لمهنتي. وأرغب في أن أسافر حينها إلى الأرجنتين، حيث أجد مكاناً للراحة لوقت ما بعد معاناة المعارك التي استمرت سنتين.

ـ متى ستعود الأمور إلى طبيعتها؟

لم يجب تشي إنما هزّ كتفيه فقط.

* * *

دخل سلاي على صديقه القديم تشي، الذي أصبح كوميندان معسكر «كابانيا»، فوجده يجلس على كرسيه، ينظف مسدَّسه، في غرفة صغيرة تطل على البحر، فيها سريران صغيران من الحديد، تفصل بينهما خزانة صغيرة علقت عليها مرآة قديمة. وعلى الحائط ثبت مسمار كبير، علّقت عليه بندقية أتوماتيكية، وفوقها قبعة سوداء تحمل نجمة صغيرة.

ـ اجلس أيها المجرم المحترف. قال تشي مازحاً، ماذا ترى، عندنا هنا إطلالة رائعة على البحر، هيّا تمتع بها. ألم تجلس خلف القضبان بعد وصول «غرانما»، عندما وقعت في الكمين، أم أن ما حدث لك غير ذلك؟

ـ آه يا تشي، لم تكن المسألة بهذا التعقيد! حظي كان رائعاً، لم يطلقوا عليّ الرصاص كما فعلوا مع بقية الرفاق. بل قُدّمت للمحاكمة لأنني مكسيكي. كان باتيستا يريد البرهنة على وجود مؤامرة ضده من قبل دولة ما.

ـ بماذا حكم عليك؟

ـ بست سنوات. لقد سألني القاضي، بسخرية، عن سبب مشاركتي في تحرير كوبا. فاستشهدت بكلمات خوسيه مارتي: إن الإنسان الذي تعني له كلمتا العدالة والشرف شيئاً ما عليه أن يقاتل من أجل الحرية في أي مكان تحدق بها المخاطر.

ـ سمعت أنك حاولت توزيع موجز عن خطاب فيدل «سيبرِّئني التاريخ».

ـ نعم لقد حاولت ذلك. وربما خافوا من اقتحام السجن، فأرسلوني إلى المكسيك. حيث باشرت بدعم «حركة 26 تموز» في السلفادور، وغواتيمالا والهندوراس.

ـ وقصتك مع السفارة ـ هل هي صحيحة؟

ـ نعم، كنت مع بعض الرفاق الكوبيين في تيجو سيجالبه، عندما سمعنا بهرب باتيستا في الأول من كانون الثاني. فقمنا باحتلال السفارة الكوبية، وكانت العملية سهلة جداً. لكن، جاء البوليس فوراً، وقام باعتقالنا. في السجن، طالبت بالتحدث إلى الرئيس، فذهلت إدارة السجن إلى حد اعتبر أحدهم أنني جننت. وسألني أحد الضباط ما إذا كنت صديقاً للرئيس، فأجبته بنعم، وأنه نزل في ضيافتنا عدة مرات عندما كان في المهجر. بعد قليل، جاءنا الضابط، وطلب إلينا التحدث مع قصر الرئيس هاتفياً. ثم أخذ يحدثنا بهدوء لم نعهده من قبل. لقد تحدثنا مع الرئيس، وبعد ساعات، طارت بنا طائرة عسكرية إلى هافانا.

ـ ماذا جرى لك في أميركا الوسطى؟ لقد سمعت أنك كنت تعمل مع «حركة 26 تموز».

أجبر تشي صديقه على التحدث بالتفصيل عن نشاطاته، وبعد ذلك سأله:

ـ أخبرني أهلك أنهم لم يتلقوا منك أي أخبار، لماذا؟

ـ لم يكن لدي وقت. كنت أتنقل بشكل مستمر وأنا أنفذ مهمات الحركة.

ـ يجب ألا ينسى الثوري أهله. وهناك دائماً إمكانية لمنحهم بعضاً من الوقت.

ـ لكنك تعلم كم كنت مشغولاً...

ـ لا داعي للتبرير، دائماً يوجد وقت لكتابة سطرين.

ـ ربما تكون على حق. لكن، ماذا فعلت أنت في المكسيك؟ هل كتبت لوالديك؟ لقد فقدت كل اتصال بأهلك، كما أذكر!

ابتسم تشي ورد عليه قائلاً:

ـ نعم، أنت أيضاً على حق. كان عليّ أن أكتب أكثر.

* * *

رن جرس الهاتف في «كاباني»:

ـ إرنستو، جاءنا صديق من تشيلي، إنه قائد الحزب الاشتراكي. وهو يرغب في التعرف إليك. هل لديك وقت؟ قال كارلوس رافائيل رودوريغوس سائلاً.

ـ ماذا؟ السلفادور الليندي وصل إلى طرفك؟ لدي وقت كبير، وعليّ أن أقدم له الشكر.

ـ أأنت تعرفه؟

ـ بشكل شخصي لا، للأسف. لكنني مدين له بالكثير. انقل له مشاعري الصادقة.

عندما دخل الليندي، كان تشي متمدداً على السرير، ويمسك بيده آلة يستخدمها للتهوية عند نوبة الربو. أشار تشي للضيف أن يجلس، ورجاه أن ينتظر قليلاً. خاف الليندي وكاد أن يطلب الاسعاف. لكن تشي، طلب إليه الجلوس بحركة من يده.

بعد قليل، نهض من السرير باذلاً جهداً كبيراً.

ـ أهلاً بك يا رفيق الليندي، كما ترى، الربو يرفع من حرارتي.

ـ إنني سعيد بالتعرف إليك. عندما رأيتك تعاني من نوبة الربو على هذا الشكل أخذت أتخيل كيف استطعت القتال في سييرا طيلة هذه المدة. ألم تكن تنتابك هذه النوبة هناك؟

ـ بلى، كان ذلك كثيراً. لكنني تعودت عليها. أشكرك على رسالة التوصية للمحامي في غواياكيل، التي أعطيتها لـ ريكاردو روخو.

ـ أية رسالة؟ لا أذكر شيئاً من هذا القبيل.

ـ لقد مرّ عليّ ذلك منذ سبع سنوات. وتمكنت بفضلكم من السفر إلى غواتيمالا، رغم أنني كنت أنوي السفر إلى فنزويلا. من يعلم، لولا مساعدتكم ربما كنت الآن أعمل في مختبر ما في فنزويلا، كما فعل الكثيرون من مثقفي البرجوازية.

ـ لا داعي لذكر مثل هذه الأشياء الهامشية. لكن، أخبرني، هنا، يسميك بعضهم شيوعياً محركاً للثورة. أيمكنني أن استنتج أنني ساعدت محرك الثورة؟ أي شرف لي!

ضحك الاثنان.

ـ ماذا عساك تحدثني عن مسار الثورة في كوبا، رفيق غيڤارا؟ كل الثوريين في أميركا اللاتينية يتابعون تطور الأحداث باهتمام بالغ. فمحاولة السفير الأميركي دعم نظام باتيستا حتى دون شخصه فشلت، ولم ينجح الجنرال كانتيلو. ماذا الآن؟ لقد عين فيدل كاسترو ميرو كاردونو رئيساً للوزراء، وهو محام رجعي، دافع عن قتلة القائد النقابي خيسوس فينديسا. إنه معروف بميوله الأميركية. والكثيرون من وزرائه كانوا سياسيين محنكين، لم يبادروا في يوم من الأيام للنضال ضد باتيستا. والقلة القليلة من مقاتلي «حركة 26 تموز» شاركت في الحكومة. هل يعقل أن كل هذا النضال كان من أجل طرد باتيستا فقط؟ وماذا بعد؟

ـ فيما يخص المستقبل. سنرى معاً ماذا ينتظرنا! لكن، اسمح

لي أن أوضح حقيقة الأمر. لقد فرّ باتيستا هارباً، لكن نظامه لم يتحطم نهائياً، بل بالعكس. أما من جهة السكان، فلم يعد له أي مرتكز، وظهر ذلك بوضوح منذ شهرين، عندما حول باتيستا تثبيت نظامه عبر إجراء انتخابات عامة تهدف إلى إعطاء نظامه طابعاً ديمقرطياً. لكن، كيف كانت النتيجة، أتعرفها؟ لم يشارك من مجموع الناخبين أكثر من عشرين بالمئة، ومعظمهم أجبر على المشاركة في الانتخابات رغماً عنه.

على هذا الأساس نستطيع أن نحكم، والشعب يدعم نضالنا بقوة وإصرار. لكن، لا يعني ذلك أنه الانتصار النهائي. فنحن نعلم أن السفير الأميركي طلب من باتيستا مغادرة البلد ليتمكن من تشكيل حكومة تتناسب مع مصالح اليانكي والاقطاع المحلي، وتحظى في الوقت نفسه بتأييد السكان. لكننا نقول إن الحظ كان إلى جانبنا. فباتيستا كان عنيداً، ولم يقبل التخلي عن مكانه.

ـ كل ما تقوله جيد، قاطعه الليندي. لكن، هذا ليس توضيحاً لاجراءات فيدل كاسترو.

ـ على العكس تماماً، ألا ترى أن الانقلاب الرجعي مسألة محتملة؟ هنا في هذا المعسكر لا تجد سوى مقاتلين من الجيش الثوري. لكن، هناك في معسكر كولومبيا وحده، يوجد ما يزيد على العشرين ألف جندي من جنود باتيستا، كان يعتمد عليهم اعتماداً أساسياً. صحيح أنهم استسلموا للثوار، لكتيبة كاميلو. لكن، ما هو عدد الثوار الموجودين في هذا المعسكر. إنهم لا يتعدون الخمسمئة. وصحيح أن كل جندي من جنود باتيستا يؤدي التحية العسكرية لكل من يلاقيه من الثوار. لكن، قل لي، أين هو توازن القوى؟ في المواقع لا يزال جيش باتيستا يحتفظ بهيكليته وسلاحه، والبوليس أيضاً. علينا أن نعمل بحذر. على كل حال، لم تجر حتى الآن أية محاولة انقلابية، لكن الحديث يدور،

وأكرر، يدور الحديث عن هوية من يسيطر على السلطة السياسية!

ـ إذاً، ترى في تعيين كاردونو رئيساً للوزراء مناورة من قبل فيدل كاسترو حتى يبعد أية محاولة انقلابية؟

ـ أنا لم أقل ذلك. لكن، اسمح لي أن أوضح مرة أخرى، ما هي مهماتنا المباشرة الآن؟

أولاً، محاكمة جميع المخربين التابعين لأجهزة المخابرات السرية لباتيستا. فهم مجرمون حقيقيون، قتلوا وعذبوا الكثيرين. ففي فترة حكم الديكتاتور التي لا تتجاوز السبع سنوات قتل ما يزيد على العشرين ألفاً من السكان. لذلك، يجب أن ينالوا عقابهم، وهذا مطلب للسكان الذين لن يتفهموا لماذا لم يعاقب المجرمون. وماذا بعد ذلك؟ علينا حلّ جيش باتيستا والبوليس. لأن، طالما أن هذا الجيش موجود، فالسلطة لا تكون بيدنا!

ـ لكن لماذا والجيش مستسلم، ألن يقوم بخدمة الحكومة الثورية؟ صحيح أنه لديكم الجيش الثوري الذي ولد من رحم المعارك. لكن، كم هو عدد مقاتلي هذا الجيش؟ إن ما عندكم لا يتجاوز الثلاثة آلاف مقاتل. إذاً، عليكم الاندماج مع الجيش القديم. ثم لماذا حلّ البوليس؟ لا شك أنه تجب محاكمة المجرمين منهم. لكن، ما هو خطر البوليس العادي؟

ـ الجيش والبوليس والمخابرات السرية شكلوا المرتكزات الأساسية لنظام باتيستا. ولدينا الكثير من الرفاق داخل الجيش والبوليس ـ أشار تشي إلى ذلك دون ارتياح ـ لكن، بشكل عام، إن من يخدم هناك ليس ثائراً، ومعظمهم نذروا أنفسهم لخدمة الديكتاتورية، وهم الآن محطمون ومفككون، لكن يمكن استخدامهم ضدنا.

توقف للحظة، ثم تابع كلامه:

ـ على ما اعتقد، يا رفيق الليندي، إنك مرتاب مما يجري.

ـ أقول الحق، نعم. عندنا في تشيلي، ينظرون إلى هذه المسألة بصورة مختلفة تماماً. ففي الجيش والبوليس يسود جو وطني، والتفكير المركزي عندهم يتمحور حول المهنة فقط. وعندنا عادة قديمة ـ عدم تدخل القوات المسلحة في الحياة السياسية.

لقيت أفكار السلفادور الليندي اعتراضاً حاداً من قبل تشي:

ـ كما هو معروف لديكم أنا كنت في غواتيمالا، وعايشت الوضع هناك. فما يسمّى بالجيش غير المسيّس تمرّد على الحكومة التي وصلت بشكل شرعي إلى السلطة، وأجرت إصلاحات ترتكز إلى الدستور، والعقيد في هذا الجيش خاكابو ارنيس راهن على إمكانية دعم الجيش لهذه الإصلاحات. وهو الذي انتخبه الشعب، وكان يطمح لرؤية الإصلاحات المتعارضة مع مصالح الاحتكارات الأميركية الواسعة التي تسيطر على البلد. وعندما شعرت الولايات المتحدة بالخطر الذي يهدد مصالحها، اختفت الحكومة الدستورية من الوجود، وأخذ الجيش غير المسيّس يقوم بالقتل والتعذيب. لا، أنا لا أرى وجود جيش لا يتدخل في الحياة السياسية، أو على الأقل، هناك عندما تجري محاولات جدية لإحداث تحولات اجتماعية عميقة. فالتشكيلات المسلحة، سواء كانت جيشاً أو بوليساً، عليها أن تخدم المصالح والأهداف السياسية للحكومة. وهنا، يمكنني أن استشهد بكاتب واحد من الكتاب المحببين إليّ، هو لينين: «إن أية ثورة، تساوي شيئاً عندما تكون قادرة على الدفاع عن نفسها فقط»(*).

نعم، على القوات المسلحة أن تدافع عن الثورة. وإذا كنا نعتبر

(*) ف.إ. لينين. المؤلفات الكاملة، المجلد 37، ص 122، (بالروسية).

أن الجيش سيقف على الحياد حتى نقوم بإجراء الإصلاحات، فنهايتنا قريبة.

ـ إنها مسألة للنقاش. فتشيلي أعطتني مثلاً يختلف جذرياً، حتى أنني أرى أنه بإمكان الجيش تقديم الكثير الكثير من أجل التطور الاقتصادي للبلد. لنترك هذا الموضوع. ما هي مهماتكم المباشرة؟

ـ أنا سأبقى كوميندانأ. وعدا عن محاكمة الجلادين، سنقوم بحل الجيش، والبوليس ونؤسس جيشاً ثورياً، وبوليساً ثورياً. وهذه ليست مسألة سهلة أبداً، إذ هناك فرق كبير بين أن تقاتل في صفوف الثوريين ضد جيش نظامي، وبين أن تشكل جيشاً مهمته الدفاع عن الجزيرة. وعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار النزعة العدوانية للولايات المتحدة. لذلك، يجب تسليح الشعب كي يكون قادراً على مواجهة المعتدين. فعلينا تشكيل ميليشيا شعبية.

ومن وظائفي ستكون التربية السياسية. يجب أن أقوم بكل ما في وسعي كي يكون الجديد إلى جانب الثورة بكل جوارحه. وأنا هنا، متفق تمام الاتفاق مع وزير الدفاع الجديد، راؤول كاسترو. فإذا كنا نرغب في تحقيق شيء ما بواسطة هذه الثورة علينا إتقان الدفاع عنها.

ـ يبدو من هذا الكلام أن هناك خطة كاملة لثورة اشتراكية بالمفهوم الكلاسيكي! فهل تسير كوبا في هذا الاتجاه؟

ـ حالياً، ليس بإمكان أحد أن يجيبكم عن هذا السؤال. لكن، ما يمكنني أن أؤكده هو أن هذه الثورة، ليست انقلاباً تدور أحداثه داخل القصر. لا، ففيدل كاسترو إلى جانب التحولات العميقة، وهو من دون شك، قائد لهذه الثورة. وكل المشاكل التي يعاني منها الشعب من الفقر المدقع، والجوع، والخلاعة، واختراق الاحتكارات الأجنبية للاقتصاد، كل هذه القضايا يجب

أن تحل. وهذا ما تريده «حركة 26 تموز»، أو بالأحرى، أكثرية الحركة. أما هل ستحصل ثورة اشتراكية؟ فالكثير من المقاتلين لا يرغبون في ذلك. لكن، برأيي، لن تكون هناك وسيلة غير القيام بهذه الثورة إذا ما رغبوا في تحقيق أحلامهم في الحياة. علينا متابعة اتجاه تطور التحولات.

ـ إذاً، ليس فيدل والقادة الآخرون «لحركة 26 تموز» باشتراكيين أو شيوعيين؟

حرّك تشي يديه بشكل غير مفهوم، ثم قال:

ـ هم يملكون قناعات لا تتزحزح. وهناك الكثير مما يجب تغييره في هذا البلد. أليس هذا هو أساس المسألة؟ إذا تابعنا هذا الخط بصدق سنكون شهوداً على ثورة حقيقية في كوبا.

بعد انتصار الثورة مباشرة، انتقلت إلدا بصحبة ابنتها إلى كوبا. ربّت تشي ابنته، قبلها، ثم وضعها في السرير. واتخذ موقفاً جدياً ثم أخبر إلدا أنه تعرف على امرأة جديدة ينوي الارتباط بها. إنها المراسلة إليدا مارتش.

لقد صدم هذا الخبر إلدا. ولاحظ تشي أنها تتمالك نفسها بصعوبة بالغة وهي تبكي:

ـ هل هي بعمري؟

لم يجيبها تشي. فأكملت قائلة:

ـ كان عليّ أن آخذ ذلك في الحسبان... أنا أكبر منك بعشر سنوات. ورغم ذلك كنت تردد أن ذلك لا يهمك بشيء. لكن، من يعيد الأيام!

ـ إلدا، ليست المسألة في ذلك... فأنا...

انفجرت الدموع من عينيها، وأطلقت العنان لمشاعرها:

ـ أنا لم اعترض عندما قررت الالتحاق بالسرية التي غادرت على ظهر «غرانما». ولم يكن ذلك سهلاً، كان عليّ أن أعتني

بطفلنا، ولم أكن أعرف أننا سنجتمع مع بعضنا في يوم من الأيام... أنا لم أفكر في إزعاجك، لكن لا تعتقد أنني عشت عيشة هنية وسهلة. ولن تصدق كم مرة نقلوا إليّ خبر استشهادك. وبسبب ذلك أصبت بصدمة عصبية في «لا ـ باس»، وانتقلت إلى الطبيب. فهذا الرعب الدائم كان بسببك، وبسبب الطفل... انتقلت إلى الأرجنتين لأنني كنت أشعر بنفسي وحيدة في تلك الغابة و...

شعر تشي بانقباض في حنجرته. فكم من مرّة داعبت ذكراها مخيلته في خضم المعارك. وعندما وقفت أمامه تشكو له حياتها ووحدتها، شعر بلاإنسانية فراقها. لكن، ما الفائدة من خداعها. وهو لا يريد أن يكون كذاباً، والاثنتان ستمران في هذا الوضع.

ـ كان من الأفضل لو قتلت في إحدى المعارك.

نظرت إليه إلدا، وهزت رأسها بعنف قائلة:

ـ لا، لا! الأفضل أنك ما زلت حياً، يا إرنستو. بوسعك أن تخدم الثورة بالكثير. وأنت ضروري لها، وأنا أيضاً أريد البقاء هنا في كوبا كي أساعد في بناء الحياة الجديدة. ما رأيك لو بقينا أصدقاء!

امتلأت عيناه بالدموع. ضمّها إلى صدره:

ـ اعذريني يا إلدا! اعذريني!

أفلتت إلدا منه، واقترحت عليه الطلاق حتى يعود كل شيء إلى مكانه.

جلس بضجر وخجل، ولديه رغبة في قول بعض الكلمات. لكن، كل ما يدور في رأسه كان غير مناسب، وأحياناً معيباً. جلس البعض الوقت إلى جانب بعضهما وكل واحد ينظر في وجه الآخر. ثم قام تشي لتحضير الشاي.

لا، لا، تجب الكتابة بحذر أكبر. أصبح تشي أسطورة كيف

لنا أن نستطلع حقيقة هذه الشخصية المعقدة والمتناقضة؟ كان يرفض التحنيط، وأن يصنع منه تمثالاً حياً. لقد بدأ يتذكر. عندما وعى الحياة أنها شيء ما معقد، ولدت في نفسه رغبة في اختيار شخصية ما موجّهة لنفسه ومنارة لها... وبدأ في البحث عن إنسان سياسي شريف، يمكنه أن يتحدث إليه دون شك. فقرأ ما كتبه سارتر عن تشي غيڤارا: «أنا لا أرى أنه كان ذو عقل نافذ فقط، بل إنه الإنسان الأكثر كمالاً في عصرنا الحاضر».

قرأ هذه الكلمات بصوت عالٍ. وعندما رآها تتطاير مصطدمة بالجدران، قرّر الكتابة. فبدأ يجمع المعلومات عن تشي غيڤارا، دون أن تكون منظمة في النهاية، لم لا نحاول أن نجد في ماضي إنسان آخر مبرر وجودنا؟ لماذا لا نتبين كيف تمكن الآخرون من حل مشاكلهم ومصاعبهم الخاصة؟

كثيرون هم الذين حاولوا الكتابة عن تشي غيڤارا، والذين رغبوا في معرفة حقيقة هذه الشخصية ودراستها. وآخرون حاولوا تحديد دراستهم في الجانب السياسي عنده دون أن يروا الجانب الإنساني فيه.

فحياته عندهم، انقسمت إلى قسمين منفصلين عن بعضهما بوضوح: القسم الاجتماعي والسياسي من جانب، ولم يحاول أحد أن يدرس الجانب الآخر.

كيف يمكننا أن نتعلم من شخص آخر؟

لقد بدأ بالبحث عن معطيات للمباشرة؟

* * *

أخيراً، وصلت الطائرة الكوبية التي طال انتظارها. فكم من الوقت مرّ على فراقه لوالديه! سنوات أصبح فيها مشهوراً، أسطورة. رغم ذلك، يبقى والداه في مكانتهما، ويبقى إبناً لهما، كيف لا وقد انشغلا في مستقبله وحالته الصحية.

ركض للقائهما على مدرج الطائرة.

ـ ماما! بابا!

ـ تي تي!!.

بعد أن تعانقوا بشكل عاصف، بادره والده بالسؤال:

ـ ماذا تنوي أن تفعل؟ ما هي خططك نحو مهنتك كطبيب، ومعلوماتك الطبية؟.

فوجىء تشي بهذا السؤال، الذي شكل له نوعاً من الاحباط. لقد توقع أسئلة من نوع آخر. أسئلة عن انتصار الثورة، ومصاعب النضال.

شعر بحزن لبعض الوقت، وسار ببطء، لكن سعادة اللقاء طغت على مشاعره. ربما لا يمكن للوالدين إلا أن يكونا هكذا؟ ربما هكذا الأهل في كل العالم؟ من يدري، ربما كان أول سؤال وجهه أهل الثوار الروس لأبنائهم، بعد انتصار الثورة. ألم تؤلمكم أرجلكم يا أبناءنا؟

بعد أن تداخلت هذه الأفكار في رأسه، ابتسم، ورد على سؤال والده:

ـ معارفي الطبية؟ ماذا أفعل بها؟ اسمع أيها الشيخ، أنت معروف باسم ارنستو غيڤارا مثلي. فما رأيك لو أقدم لك شهادتي في الطب هدية. وبسهولة، يمكنك أن تعلّق إعلاناً على واجهة بنايتك التي توجد فيها شركتك للمقاولات، وتكتب «طبيب». وتستطيع معالجة الناس من دون أية مخاطر.

قال تشي ذلك، وانفجر ضاحكاً على ماقاله، كما ضحك الآخرون. لكن والده كرر سؤاله فأجابه:

ـ حسناً، إذا كنت مهتماً إلى هذه الدرجة بهذه المهنة، فأنا لم أمارسها منذ وقت طويل. أنا الآن مناضل أساعد في بناء مجتمع جديد.

ـ نعم، لكن ماذا سيحصل لك؟ من المؤكد أن لديك مخططات لحياتك المستقبلية.

ثائر، هذه ليست مهنة.

ـ ماذا سيحصل لي؟ أنا لا أعرف أنا لا أعرف حتى أين سيدفنون بقاياي في يوم من الأيام.

كان والده يتحرق لرؤية تلك المناطق التي قاتل ولده فيها. فهو يريد الذهاب إلى سييرا، وسانتا كلارا، وأوڤيرو...

ـ بالطبع، أريد رؤية المكان الذي رست فيه غرانما.

ـ أشعل تشي سيجاراً جديداً وعلّق قائلاً:

ـ إنها فترة رائعة برأيي. لن يكون بإمكاني مرافقتك بالطبع، لكثرة أعمالي. سأرسل معك إنساناً شارك في تلك المعارك. إنه يعرف جميع الطرق المؤدية إلى هناك. ويحدثك عن الأحداث الكثيرة.

ـ ممتاز.

ـ لكن، عليك أن تدفع ثمن البنزين والطعام.

ـ أأنت جاد بما تقوله؟

ـ طبعاً.

ـ تي تي. أنا لا أستطيع تحمل هذا المبلغ من المال.

ـ إذاً، لن تتمكن من السفر إلى هناك. ربما في مرّة أخرى. أم أنك تعتقد أنني من أولئك الذين يتصرفون بأموال الدولة كما يحلو لهم. أنا أتقاضى مخصصاً محدداً.

حاول الأب إقناع ابنه مرتين، لكن تشي لم يَلِنْ. ولم يقدم لوالده أي امتيازات. لكنه في المقابل، حاول تعريفه بكوبا الجديدة أكثر فأكثر.

بعد عدة أيام كان «رانتشو بو بيروس» يودعهم في مطار هافانا. فجأة، تقدم باتجاههم رجل من الأرجنتين.

ـ المعذرة، أأنت الكوميندان تشي غيڤارا؟

هزَّ تشي رأسه ايجاباً.

ـ إذاً، اسمح لي أن أشد على يدك كواحد من بلدك.

ضحك تشي، وشد على يده. ثم أخرج الأرجنتيني دفتراً صغيراً من جيبه، وقال:

ـ هل توقع لي هنا؟ وإلاَّ لن يصدق أحد من الأرجنتيين أنني رأيتك فعلاً.

أدار له تشي ظهره، وتابع حديثه مع والديه. لكن الأرجنتيني أصر على طلبه متقدماً من تشي.

ـ لا، قال تشي. أنا لست نجماً سينمائياً.

مرّ أخرى مرّ بناظريه على تلك الوثيقة الملقاة أمامه على الطاولة لقد قُرّرت هذه الوثيقة في 7 شباط عام 1959 وأعادت الشرعية إلى الدستور المقر عام1940 بعد أن ألغاه باتيستا بمرسوم منه، مع إضافة بعض التعديلات التي تأخذ الوضع الجديد بعين الاعتبار. ثم أعاد قراءة المادة 12 التي تبدأ بالكلمات: «الكوبي الأصل هو...» وتنتهي بـ: «... وأولئك المواطنون الأجانب الذين قاتلوا ضد الديكتاتورية في صفوف الجيش الثوري لمدة سنتين أو أكثر، وحملوا خلال ذلك رتبة كوميندان لمدة لا تقل عن سنة».

كان تشي يعلم أنه لا يوجد سواه بهذه المواصفات، وأنه هو المقصود بهذا التعديل. فاجتاحته مشاعر الفخر والشكر. إذ قبله كان هناك رجل واحد يتمتع بهذه المواصفات، هو مكسيمو غومس الذي عرض حياته للخطر في القرن التاسع عشر على مدى حربين ضد الأسبان من أجل استقلال كوبا، حتى أنه حكان على رأس المنتفضين.

لم يكن يحلم في يوم من الأيام بمكافأة عظيمة كهذه.

* * *

لا، لم يكن يحلم أن يصبح رئيساً للبنك الوطني. لكن من جهة ثانية عليه أن يعي أن من واجبه النضال هناك، حيث يكون النضال ضرورياً للثورة. فوافق على تسلم هذا المركز.

جاء إلى البنك لابساً البزة العسكرية لمقاتلي «حركة 26 تموز»، رافعاً أكمامه، غير مسرح الشعر. لا شك أنه كان يحمل سلاحه.

بعد يومين من حضوره إلى البنك، اتصل هاتفياً بالسلفادور فيلاسكا:

ـ لدي عمل جديد.

ـ قرأت ذلك في الصحف. لقد أدى ذلك إلى عاصفة من ردود الفعل. إذ تسارع الناس إلى سحب أموالهم من البنك.

ـ لا شك أن الناس تعتقد بمصيبة ما لتعيين شخص ذي توجهات راديكالية في رئاسة البنك الوطني. لكن المسألة ليست كذلك.

ـ كما أنني قرأت تصريحك في صحيفة «رفولسيون» وهو يدور عملياً عن ضرورة الرقابة المشدّدة على التجارة الخارجية، وعن ضرورة إيقاف تهريب المستوردات الثمينة.

ـ بالضبط يا فيلاسكا. تجب ملاحقة هذه المسألة. إلى أين يذهب احتياطنا من العملة الصعبة. لقد انخفض سعر السكر بشكل مخيف، كما أننا في الوقت نفسه بحاجة إلى العملة الصعبة لتأسيس قاعدة صناعية، وليس للزينة. هذه هي مهمتي، أو بالأحرى مهمتنا.

ـ مهمتنا؟

ـ أنا أريد أن أسألك؟ ألا تريد أن تكون الرجل الثاني في البنك. وانطباعي عنك جيد.

ـ لكنني لا أفهم شيئاً في العمل البنكي!

ـ من هذه الناحية اطمئن. فأنا أيضاً مثلك.

ـ كيف ترى المسألة إذاً؟

ـ نحن الإثنان سنتعلم. سنتحدث مع المصدّرين وموظفي البنك، وخصوصاً مع أولئك المتعاطفين مع الثورة. لكن، هذا لا يكفي، بل علينا أن نقرأ الكثير كي نتعلم. سترى بنفسك صعوبة عملنا، لأننا لن نقوم بعملنا كهواة. وإذا درسنا ستتمكن من القيام بهذه المهمة.

ـ كلام جميل.

ـ توقعت رفضك.

كان الاجتماع العادي للمساهمين في البنك الوطني، وعلى جدول أعماله مناقشة الخطة الجديدة للسنة المالية الجديدة.

ترأس تشي الاجتماع:

ـ ننتقل إلى نقطة «المتفرقات». هل من اقتراحات أيها السادة؟

مر بناظريه على الحضور، ثم قال:

إذا لم تكن لديكم اقتراحات، فلنناقش القضية التالية: أنا اقترح تخفيض راتب رئيس البنك من أربعة آلاف إلى ألف ومئتي بيزو، بهدف اقتصادي والفكرة واضحة للجميع كما اعتقد، ولا تحتاج إلى الشرح. أرجو التعقيب.

نظر البنكيون إلى بعضهم باستغراب. وكان سعيداً بذلك. سأل أحد البنكيين. :

ـ هل تكفي الألف والمتي بيزو كنفقات لرئيس البنك؟

ـ أولاً، هذا الراتب ليس لي. ولن أتسلم منه فلساً واحداً. أنا كوميندان في الجيش الثوري. وأتسلم مخصصي من هناك، وهو كافٍ لي. ثانياً، هذا الراتب الكبير، رغم تخفيضه، مخصص لنائبي، الذي ربما لن يكون له دخل آخر غيره. وهو راتب جيد. وفي جميع الأحوال هو أكبر من متوسط الدخل العام بكثير. هل هناك من أسئلة أخرى؟

لم تكن هناك أسئلة، وصوَّت الحضور على الاقتراح.

ـ وهكذا أيها السادة، فأنتم أيضاً تحدثتم كثيراً عن ضرورة الاقتصاد والتوفير. أنا اقترح تخفيض رواتب أعضاء اللجنة المراقبة، ورؤساء الفروع بالقدر نفسه.

سأل أحدهم «هل الاقتراح يتعلق برؤساء الفروع فقط أم أنه يطال كافة الموظفين؟».

ـ لا، رؤساء الفروع فقط. هل ترون ضرورة لتخفيض رواتب الرجال والنساء الذين يجلسون وراء شبابيك المحاسبة؟ فهم من دون ذلك لا يتقاضون رواتب جيدة.

أجاب عن الأسئلة، واتخذ قراراً بهذا الشأن.

ـ شكراً لكم أيها السادة. لقد أحضرت لكم هدية متواضعة.

إنه كتابي الجديد «حرب الأنصار». لقد أنجزت طباعته منذ عدة ساعات. وأول نسخة أرغب في تقديمها إلى زميلي المحترم من «تشيز مانهاتن ـ بنك»(*)، وأتمنى له من كل قلبي قراءة ممتعة، وتعاوناً مجدياً معنا.

* * *

أبعد تشي الدوسيه الذي يحتوي على معطيات الاحصاء الأخير لوضع احتياط العملة الصعبة، وتثاءب ملء فمه. لقد تعب. وتساءل في نفسه «هل من الضروري التحضير للخطاب أمام الأطباء الشباب؟». غداً ينتظرون خطابي لمناقشته. لذلك من واجبي التحضير له.

عما سيحدثهم؟ سيحدثهم عن تنظيم الخدمات الطبية، وعن مهماتهم في المستقبل. سيقول لهم إنه من أجل تنفيذ هذه المهمات، تحتاج كوبا إلى أطباء تختلف وجهات نظرهم اختلافاً

(*) أحد أكبر احتكارات البنوك في الولايات المتحدة.

جذرياً عما هو سائد، كما تحتاج إلى علاقات مختلفة تجاه العمل والانتاج.

كيف له أن يشرح ذلك؟

قام من مكانه، أخذ يسير ذهاباً وإياباً من الباب إلى النافذة. وهو يتذكر ما كان يفكر فيه عندما كان طبيباً شاباً: «مفهوم، أستطيع أن أوضح جوهر المسألة بمثال عن تجربتي الشخصية. لكن، ما هي الأفكار التي كانت لدي عندما شرعت في دراسة الطب؟ كنت أريد إثبات نفسي. بالضبط، مثلما يفعل كل إنسان على وجه البسيطة. كان حلمي أن أصبح باحثاً عظيماً، وأن أعمل بنكران ذات كي أقدم خدمة ما للإنسانية. هكذا إذاً، كنت طموحاً إلى النجاح الشخصي، ومتعطشاً إلى المجد.

لكنني في البداية، أردت أن أرى العالم. فكان ترحالي الطويل. لقد تعرفت على الفقر، ورأيت الجياع، والأمراض المرعبة. أما الآن فإنني أرى بأم عيني ما كنت أسمع عنه في الكتب. لقد بدأت أعي أن مساعدة هؤلاء المعذبين شيء مهم كما لو كنت باحثاً عظيماً. لكنني فكرت أنني قادر على مساعدة الناس بقدراتي الذاتية، وحاولت الوصول إلى هدف ما وحدي.

تناول سيجاراً جديداً، وأشعله. ثم انتابه السخط والغضب عندما أخذ يفكر في غواتيمالا وما جرى فيها من وحشية لتحطيم المجتمع الذي بدأ يبني نفسه على أسس إنسانية. الهروب إلى المكسيك، الأرق لعدة ليالٍ عندما كان يفكرفي الوصول إلى معرفة الأحداث المحيطة به. كانت يومها مشاعر القرف في بدايتها. لكنه بدأ يعي، وتتضح له الأشياء: المحاولات المعزولة لإنسان واحد لا تؤدي إلاّ إلى الفشل، حتى لو كان على استعداد للتضحية بنفسه. العطاء الشخصي مسألة في غاية الأهمية، لكن يجب أن يتكامل مع عطاءات الآخرين. من الضروري تهيئة

الظروف لمشاركة الفرد: «هنا في كوبا، تهيىء الثورة الظروف الأساسية لذلك. وأخذ يكتب ـ عندنا هنا يحصل الجميع على الإسعافات الطبية الضرورية، ويلاحظ ازدياد عدد الأطباء. وبفضل نظام الخدمات الطبية المجانية...». هنا توقف عن الكتابة، وأخذ يقلب ما كان قد كتبه من جديد. هل يكفي خلق ظروف جديدة؟ هل يمكننا بناء مجتمع جديد بإنسان قديم، أم أننا بحاجة إلى تغيير الإنسان أيضاً.

كان يفكر في مجموعة الأطباء الشباب الذين أنهوا دراستهم منذ عدة أيام. لقد رفضوا الذهاب إلى بعض القرى النائية، ووافقوا في حال زيادة رواتبهم. لكن، هل يمكن حل هذه المشكلة بالمال؟ هل يعي هؤلاء الأطباء مدى احتياج العمال الزراعيين إلى الخدمات الطبية؟ لا! من جهة ثانية، هل يمكن تحميل هؤلاء الأطباء ذنباً على تصرفهم هذا؟

أشعل تشي سيحاره: «ربما كنت قد تصرفت قديماً، كما يتصرف هؤلاء الأطباء بالضبط». أما الآن فيجب إعداد أطباء لا يتمتعون بإتقان عملهم فقط، بل كي يكونوا على استعداد أيضاً لتقديم المساعدة لإخوانهم من البشر، بغض النظر عن مكان إقامتهم.

فالحديث لا يدور حول أهمية مساعدة الآخرين، وإلا يبقى العطاء الشخصي لإنسان واحد ووحيد: «مصارع من روما، مقاتل وحيد».

نظر إلى هذه المقارنة مبتسماً. ثم تابع الكتابة: «الطبيب الثوري هو الذي يخدم قضية الثورة والشعب بمعارفه الخاصة وقدراته. لا لأنه مضطر إلى فعل ذلك، أو لخداع ما، وإنما لقناعته بذلك».

أشعل سيجاره الذي انطفأ، ثم تابع الكتابة: «على كل حال، هذا الإنسان الجديد يجب أن يتسم بالمبادرة، فعليه أن يطور

قدراته الفردية، وأن يكون شخصية إبداعية. ومن أجل بناء المجتمع الجديد، لسنا بحاجة إلى دمى تهز رأسها موافقة على كل شيء. بل على العكس من ذلك، إننا بحاجة إلى مناضلين نشيطين، لا يعملون من أجل مصالح شخصية، إنما يشاركون في بناء المجتمع الاشتراكي بإبداع. وهذا هو هدفنا».

شعر في فمه بمرارة من جراء التدخين. شرب قليلاً من الماء، ثم استلقى على السرير تعباً.

لا، إنهم لا يشبهون رجال الدولة. فليس لديهم الوقت الكافي للذهاب إلى الحلاق. لقد غطت وجوههم لحى كثيفة. وكانوا يسيرون بالزي العسكري الذي كان مبعثاً للفخر والاعتزاز الكبيرين عندهم.

لقد قرروا أخيراً المشاركة في صيد سمك المنشار في البحر الكاريبي. ففي الخامس عشر من أيار من كل عام كانت تجري مثل هذه المسابقات. وإذا كان هذا السباق يقتصر في السابق على حفنة من المليونيريين، وعلى سفنهم المحيطية، فمن الضروري أن يصبح اليوم رياضة جماهيرية.

تمكن فيدل من إقناع تشي بصعوبة بالغة، لأنه كان يرى أنه توجد أشياء أهم من ذلك بكثير. كان فيدل صياداً ـ رياضياً يعشق هذه اللعبة. ويرغب في استعراض قدراته في هذا المجال أمام صديقه القديم غيفارا.

قفز خيسوس مونتانه إلى سطح اليخت بحيوية، بينما أخذ ياوديلو كاستيليانوس وتشي يتفحصانه بنظراتهما بريبة وشك. كان تشي يدخن سيجاره باضطراب، لأن المركب أعاد إليه ذكريات غير طيبة.

اقترب فيدل منه:

ـ ها، ما بك أيها المحارب القديم، يبدو أن كريستال لا يعجبك.

هزّ تشي كتفيه.

ـ آخر مرّة أبحرت بها على ظهر مركب كانت قبل عامين وأكثر. أنا لست بحاراً، ولو استمر الإبحار ليومين اثنين لهلكت على سطح المركب.

كان الجو ممتازاً لصيد الأسماك، فالسماء صافية، والبحر هادىء نظيف، والشمس خفيفة الظل. بعد إبحار ليس بقليل، ألقوا بالمرساة.

جلس الصيادون كل خلف صنّارته، يراقبون الماء باهتمام. اشتد حر الشمس، فرفع تشي أكمامه وأطراف سرواله. فجأة، بدا لهم من بعيد مركب آخر، أخذ تشي ينظر إلى البحر بتركيز، ثم صرخ:

ـ إنه «بيلار»! مركب همنغواي.

ـ إنه يشارك في مسابقة الصيادين بشكل دائم.

ـ أريد التحدث إليه عن آخر كتبه.

ـ تشي، هذا ممكن. تتحدث معه بعد صيد الأسماك.

ـ سنرى من منا سيصطاد أكثر.

ـ انظر، إنه يرفع واحدة.

ـ لكنها تقفز من الماء قفزاً.

ـ إذاً، انتصر همنغواي. فطالما يجبر السمك على القفز من الماء، فإن الهواء يتسرب إلى جهازها التنفسي، ولا تستطيع بالتالي أن تسبح في الأعماق. هكذا سمعت من خيسوس مونتانه.

بعد وقت قصير، ابتعد تشي عن صنارته متململاً من هذه اللعبة. مدّد رجليه، وبدأ بقراءة رائعة استندال «الأحمر والأسود».

ـ يبدو أنك لا تأخذ صيد سمك المنشار مأخذ الجد، علق فيدل، فإذا التقطت بالطعم لن تلحق حتى على إلقاء الكتاب، وتبقى من دون صنارة.

ـ كلام فارغ. إنه نوع ممل من الرياضة. من الأفضل لي أن أقرأ.

لم يتفهم الرفاق تصرف تشي. لكنه لم يتأثر بذلك، فأغلق الكتاب على وجهه، وأغمض عينيه. وأخذ يستمتع برذاذ الماء المتطاير من البحر على وجهه، وبأشعة الشمس التي تدفئه بلطف. اجتاحه شعور عميق بالهدوء والرضا. كان يسمع صوت المحرك الرتيب، وزعيق النورس. نظر إلى الأفق اللامع للبحر الكاريبي، فظهر أمامه وجه إلييدا بابتسامته، وإيمانها بالانتصار على باتيستا، وقتالها في صفوف الثوار.

قطع الضجيج حبل أفكاره. إنه فيدل يمسك الصنارة بيديه.

حرر باوديلو كاستيليانوس نفسه، ووقف خلف فيدل ينظر إلى البحر.

ـ شد أكثر.

جاءهم خيسوس مونتانه.

ـ إنها تطير كالصاروخ.

ـ إمسك بالصنارة يا فيدل! إنها تحوم من جديد.

كان تشي يراقب أصدقاءه باعجاب. رفع فيدل صنّارته وهي تحمل سمكة المنشار. أما هو فتناول سيجاراً جديداً. فسأله خيسوس:

ـ ها، ماذا بعد يا كوميندان غيڤارا. ألا زلت تشعر بالملل؟

حاول تشي إشعال سيجاره، لكن الهواء أطفأه. كان عليه أن يذهب إلى العنبر كي يتمكن من إشعاله. لكنه كان مشدوداً إلى صراع جديد مع سمكة أخرى.

مرّت ساعة على فيدل وهو يحاول إغراءها بالقفز من الماء.

ـ يا لها من عجيبة! يمكنها أن تستمر بالمراوغة لساعات، يبدو أن قوتها تشبه قوة الثور.

ـ بم تفكر يا تشي؟ سأله فيدل. ألا تريد أن تجرب؟

ـ لا ، أنا أفكر بطريقة تمكننا من زيادة إنتاج السمك. وربما لتصديره.

ستتمكن من تقليص العجز في احتياط العملة الصعبة.

ـ انتبه! اسحب الآن بقوة! ستسحب الصنارة منك!

ـ انظر! إنها تقفز! لقد انتصرت الآن يا فيدل!

صفق باوديلو بفرح لأن السمكة قفزت من الماء كالسهم. ومن جديد اختفت في البحر.

نقل فيدل الطعم عدة أمتار.

ـ هذه السلعة تقاتل من أجل كل طعم.

ـ . . . كل المشكلة تكمن ـ تابع تشي حديثه دون انقطاع ـ في أن نجد من يشتري الأسماك عندما نريد تصديره.

* * *

كان المرتزقة الذين أسروا بعد عملية المظليين في خليج كوتشينوس قد أنهوا تجوالهم في باحة السجن، عندما دخل تشي إلى هناك، ومرّ بهم بصمت متفحصاً وجه كل واحد منهم، وتوقف أمام زنجي طويل:

ـ لا أفهم، ما الذي دفعك للتعامل معهم؟ قال ذلك مشيراً بيده إلى بقية الأسرى. أترغب في النضال من أجل «الديمقراطية» أم أنهم اشتروك؟

استمر الأسير على صمته، فسأله تشي:

ـ ألا تعرف مع من كنت؟ ثمانمئة من أصل ألف ومئتين من المرتزقة. ألم يكن أهلهم من الأغنياء، ويريدون استعادة أملاكهم؟ كان من بينهم مئة ملاك تزيد أملاكهم على ثلاثمئة ألف هكتار من الأرض. وهي اليوم ملك للشعب الكوبي. كذلك كان من بينهم خمسة وثلاثون من مالكي المصانع الكبيرة، ومائة واثنا عشر من مالكي الشركات التجارية الضخمة، وسبعة وستون من مالكي

العقارات. كانوا يمصون دماء سكان ما يزيد على تسعماية بيت. وأنت تعرض حياتك للخطر من أجل إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه قبل عام 1959، وأنت تعلم حقيقة تلك الحالة؟

هزّ الأسير رأسه، فاسترسل تشي.

ـ لقد حققنا في كوبا المساواة بين كل الأجناس. أما أصدقاؤنا، فما كانوا يستقبلونك أبعد من عتبات أنديتهم الأرستقراطية. هذه الأندية التي أصبحت عندنا في متناول كل عامل وزنجي.

ثم استدار تشي نحو الآخرين الذين كانوا ينظرون إليه بإمعان. وسألهم:

ـ من منكم كان عضواً في ناد أرستقراطي؟

رفع بعضهم يده.

ـ في أي منها بالضبط؟

ـ يخت ـ كوب.

ـ ميرامار.

ـ كازينو ـ اسبانيول.

ـ بيلتمور.

ـ أوه. ومنكم من هو عضو في Bih More Yach Tond Country Club.

قال تشي ذلك منهكماً.

ثم استدار من جديد نحو الزنجي:

ـ أنت أيضاً كنت عضواً في بيلتمور ـ كلوب؟

طأطأ الزنجي رأسه. فضحك بعض الأسرى.

ـ هل كان باستطاعتك أن تصبح عضواً فيه، حتى لو ربحت نصف مليون ليرة في اليانصيب؟

ـ لا.

العقارات. كانوا يمصون دماء سكان ما يزيد على تسعماية بيت. وأنت تعرض حياتك للخطر من أجل إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه قبل عام 1959، وأنت تعلم حقيقة تلك الحالة؟

هزّ الأسير رأسه، فاسترسل تشي.

ـ لقد حققنا في كوبا المساواة بين كل الأجناس. أما أصدقاؤنا، فما كانوا يستقبلونك أبعد من عتبات أنديتهم الأرستقراطية. هذه الأندية التي أصبحت عندنا في متناول كل عامل وزنجي.

ثم استدار تشي نحو الآخرين الذين كانوا ينظرون إليه بإمعان. وسألهم:

ـ من منكم كان عضواً في ناد أرستقراطي؟

رفع بعضهم يده.

ـ في أي منها بالضبط؟

ـ يخت ـ كوب.

ـ ميرامار.

ـ كازينو ـ اسبانيول.

ـ بيلتمور.

ـ أوه. ومنكم من هو عضو في Bih More Yach Tond Country Club.

قال تشي ذلك منهكماً.

ثم استدار من جديد نحو الزنجي:

ـ أنت أيضاً كنت عضواً في بيلتمور ـ كلوب؟

طأطأ الزنجي رأسه. فضحك بعض الأسرى.

ـ هل كان باستطاعتك أن تصبح عضواً فيه، حتى لو ربحت نصف مليون ليرة في اليانصيب؟

ـ لا.

ـ طبعاً لا. إنهم يدعون أنك توسخ الماء في المسابح. ويرتجفون إذا ما دارت في رأسهم فكرة شرب الويسكي بجوارك. وفي أحسن الأحوال يقبلونك لتنظيف دورات المياه في منازلهم. ومن أجل هؤلاء، ومن أجل أنظمة ولى عهدها تخاطر بحياتك. إنهم يستحقون الرحمة أكثر منك.

فأتاه صوت خفيف، بالكاد أن يسمع:

ـ أعرف ذلك يا كوميندان.

* * *

خلال رحلة الطيران إلى الهند، كتب تشي رسالة مقتضبة إلى والدته. كان الوقت مساء، وضوء خفيف ينبعث من مصباح صغير في سقف الطائرة. والركاب نائمون جميعاً. وضع تشي الورقة على ركبتيه، وأخذ يفكر في تجديد غليونه. في كل الأحوال لم يأته النوم. كان يحلم بفتح جبهة ثانية وثالثة ضد الامبريالية. حان الوقت كي تنهض أميركا اللاتينية، وجميع الشعوب المضطهدة. لقد عبأتهم بالشجاعة أمثولة كوبا.

بدأ يكتب: «لقد ثار في نفسي نفور من كل ما يتعلق بالحياة الشخصية. وكأني وحيد، أبحث عن الطريق دون مساعدة أحد. لكنني أصبحت أعي مهمتي التاريخية.

أنا لا أملك بيتاً أو زوجة، أو أطفالاً، ولا حتى أهلاً أو أخوة. بل لي أصدقاء أتقارب معهم بالتفكير. لكنني سعيد، وأعرف هدفي في هذه الحياة. وهذه ليست قوتي الداخلية العظيمة، التي كنت أشعر بها دائماً، إنما القدرة على العطاء نحو الآخرين، أو قناعتي المطلقة بمهمتي التي تحررني من أي مخاوف».

وصل إلى كوبا الشاعر المعروف بابلو نيرودا. وكان تشي يرغب في لقائه. فكم من مرة استعان بأشعاره كي يتغلب على

المحن. وتذكر وجوه الرفاق عندما كان يقرأ عليهم شعر نيرودا. وتذكر عيونهم التي كانت تشع لمعاناً بعد أن أعياها التعب.

«لم نكن ننسى شعره في المعارك» ـ قال تشي محدثاً نفسه بصوت خفيف ـ ها هي ساعة كاملة تمر وهو في انتظاره. لقد دعاه للحضور إلى الوزارة بعد منتصف الليل، وها هي الساعة تقارب الواحدة وهو لم يصل بعد. كانت مقابلاته الرسمية تعيق وصوله السريع.

مرّ وقت كبير حتى سمع طرقات يده على الباب. وقفا ينظران إلى بعضهما بصمت: «يبدو أن منظري عجيب» ـ قال تشي في نفسه ـ فهو وزير ويلبس بزة عسكرية، وعلى خاصرته مسدس ڤولڤير، والسيجار بين أسنانه.

قطع بابلو نيرودا الصمت:

ـ لا أعتقد أن لباسك يتناسب مع هذا المحيط البيروقراطي.

ارتسمت الابتسامة على وجه تشي، وهو يشعر بالتعب، إذ مرّت عليه عدة أيام لم يرَ فيها النوم. العمل، والعمل فقط.

ـ «أغنيتك العامة» كانت ترافقني دوماً. كنت أقرأها للرفاق في سييرا ـ مايسترا.

ـ هذا شرف كبير لي، وأنا سعيد جداً بذلك.

ـ لقد منحتنا القوة والشجاعة، فمن دون هكذا أشعار يبدو النضال جافاً.

قدم تشي السيجار لنيرودا.

ـ هل يشغلك شيء ما يا نيرودا؟ ألا تعجبك الحياة في كوبا؟

ـ ماذا تقول! بالطبع تعجبني. لقد فعلتم كل شيء من أجل إعادة الأمل.

كما صحت من نومها الملايين من شعوب أميركا الجنوبية. وأصبح لديها هدف في هذه الحياة. لقد فرضتم للحرية والأمل

مكاناً عند شعوب أميركا اللاتينية. وهذه الثورة محط فخر واعتزاز عند شعوب القارة. لكنني أرى خطراً يحدق بثورتكم. وهذا ما نكتب عنه في الصحف ونقوله في الإذاعة.

إنهم يحضرون للقيام بعدوان. يريدون تحطيم آمال أميركا الجنوبية. لقد شاهدت متاريس من أكياس الرمل تملأ زوايا هافانا، والأماكن الستراتيجية. إنني خائف من إعلان الحرب على كوبا.

نهض تشي لدى سماعه الكلمات الأولى لنيرودا، كان يستمع مقطّباً جبينه، ويداعب سيجاره مستغرقاً في التفكير. أخيراً، استدار نحو نافذة مكتبه، واستعرض بانوراما هافانا، ثم قال:

لم يوجه كلامه إلى نيرودا، بل كان يفكر عن الإثنين. ولأول مرة كانت اللكنة الأرجنتينية تبدو واضحة في كلامه.

ـ الحرب... الحرب... كنا دائماً ضد الحرب. لكننا إذا قاتلنا مرّة واحدة فمن المستحيل أن نحيا دون نضال بعدها، وأن لا نسعى في كل لحظة للانطلاق نحوه.

رأى تشي الخوف في عيني نيرودا. إذ كان ينظر إلى الحرب ككابوس شيطاني.

ـ تقول ذلك لكثرة معاناتك.

كان يريد بهذه الكلمات تبرير حديث تشي.

أما تشي فلم يجيبه بشيء. ولم يكن بإمكانه تعريفه على مشروعه الجديد الذي يتهيأ له من أجل القضية الأممية. تجب المحافظة على السرية حتى مع نيرودا.

* * *

فتح الباب، فوجد سيلاً من أضواء الفلاشات أمامه، وأكثر من مئتي صحفي وسينمائي وتلفزيوني يتجمعون في غرفة صغيرة لطرح

الأسئلة عليه، عندما كان يرأس وفداً كوبياً إلى اجتماع وزراء الاقتصاد في مونتيفيديو(*).

دكتور غيفارا، ما هي طبيعة العلاقات الاقتصادية التي تربط كوبا ببلدان العالم الشرقي؟

ـ نقيم علاقات تجارية مع البلدان الاشتراكية، ولا نرى تناقضاً بينها وبين طموحاتنا في بناء علاقات طيبة في المجال الاقتصادي مع دول أميركا اللاتينية.

ـ سينيور غيفارا. كيف تنظر كوبا إلى الذين وقعوا في الأسر بعد عملية خليج كوتشينوس؟

لقد اقترحنا تبادلاً مع المعتقلين السياسيين في الولايات المتحدة، وأسبانيا، وبعض دول أميركا اللاتينية. لكن رُفض اقتراحنا. أما الآن فسيقدمون إلى المحاكمة، ونرى إمكانية إعدادهم أعضاء صالحين في المجتمع. وكما ترون، لا يوجد عمال بينهم تقريباً. وعندما تحدث إليهم فيدل سألهم من منهم شارك ولو لمرّة واحدة في قطع قصب السكر. وبالخطأ تبين أن هناك شخصاً واحداً فقط. فعلينا الآن تربيتهم، خصوصاً أنه وفي كوبا ولّى منذ زمن المبدأ القائل «من لا يعمل لا يأكل».

ابتسم أحد الصحفيين ابتسامة عريضة، ثم سأل:

ـ قل لي من فضلك، أنت والدكتور فيدل، هل سبق لكما أن قطعتما قصب السكر؟

ـ نعم، نمارس هذا العمل بشكل دائم. ونحن أعضاء في مكتب القيادة، ومن واجبنا قطع قصب السكر. بالإضافة إلى ذلك، أنا شخصياً، سبق لي أن عملت في نقل الموز.

(*) يقصد بها الدورة الاستثنائية للمجلس الاقتصادي والاجتماعي بين دول أميركا اللاتينية التابع لمنظمة الدول الأميركية التي انعقدت في آب عام 1961 في مدينة بونتا ـ ليل ـ استه ـ في الأورغواي.

ـ وأنت وزيراً؟

ـ نعم، وسابقاً عملت حمالاً للموز، لذلك تعرفت من الداخل على نشاط الاحتكارات في تجارة الفاكهة. كل ما أقوله حقيقة، ولا داعي لأن تنظروا إليّ بارتياب، كما أرى في أعينكم!

ـ لا تزال القاعدة العسكرية للبحرية الأميركية غوانتامو موجودة على الأرض الكوبية. وهي لا تشكل خطراً عسكرياً فقط، بل سياسياً أيضاً. فكيف تنظرون إلى ذلك؟

ـ لقد أعلنّا دائماً، ولا زلنا نعلن أن الولايات المتحدة تخرق كافة الأعراف، وتستمر باحتلالها أراضٍ كوبية. ولن نتهادن في يوم من الأيام مع هذا الأمر، فقد أبلغنا مختلف الهيئات والمنظمات الدولية أن استمرار وجود هذه القاعدة يعني تحدياً لسيادة واستقلال بلدنا. لكننا لن نخاطر بالسلم العالمي. ولن نقوم بعمل عسكري ضد هذه القاعدة، رغم الاستفزازات المتعددة من قبل الجنود الأميركيين الموجودين هناك، ونحن كما في السابق سنبحث عن حل سياسي لهذه المسألة.

ـ معالي الوزير غيڤارا، لماذا أغلقتم المدارس الكاثوليكية رغم الادعاء بالحرية الكاملة في كوبا؟

ـ هذه سخافة! أصبحت المدارس تحت إشراف الدولة.

ـ يعني ذلك أنه لن تكون هناك مدارس خاصة في كوبا بعد اليوم؟

ـ ولا حتى مدرسة واحدة! أصبحت كل المدارس رسمية، وفي متناول الجماهير.

ـ لكن بقيت هناك مدارس كاثوليكية؟

ـ إنها مجرد مدارس كاثوليكية!

بعد أن هدأ الضحك، وجهوا السؤال التالي، وبدا المؤتمر الصحفي من دون نهاية.

ـ دكتور غيفارا، ما هي طبيعة العلاقة الحالية بين الدولة والكنيسة؟ وما هو موقف الحكومة الكوبية من الكنيسة؟

ـ لنا في هذا المجال موقف واضح. ليس هناك من دين رسمي للدولة. هناك حرية كاملة في اختيار الدين أو المذهب أو عدمهما. ولن نسمح لأحد أن ينشر الفرقة والحقد باسم الدين. ففي وقت من الأوقات قامت الشريحة العليا من الكاثوليك، والتي تتشكل غالبيتها من الاسبان، قامت بدعم الثورة المضادة علناً، حتى أن بعضهم نزل مع المظليين في خليج كوتشيفوس وعددهم ثلاثة كانوا يختفون بثياب للتمويه، وعندما قمنا باعتقال الرهبان ـ الاسبان ـ وأعدناهم إلى فرانكو، وجدنا معهم ورقة كتب عليها: «كما ترون، عندكم هنا سبعماية..».

ـ هل بإمكانك تسمية هؤلاء الرهبان؟

ـ كل السبعماية المجندين؟

ـ لا . أسماء الذين نزلوا مع المظليين.

ـ كان أحدهم يدعى لوغو، والثاني ماتشو، والثالث لاس إلاس.

ـ أنا مراسل «إلى دياريو» من كبريات الصحف التي تصدر في مونتيفيديو في الأورغواي.

نظر تشي في الجميع وسألهم: «هل هذا صحيح؟». وبعد أن أكدوا ذلك قال:

ـ حسناً، يبدو أن ما تقوله صحيحاً.

ـ ربما يبدو سؤالي غريباً، لكنني أريد في هذا المؤتمر الصحفي أن أشيع جواً آخر، هل بإمكانك أن تحدثنا عن حياتك. كيف تعيش، وماذا تأكل، وهل تشرب الكحول، وهل تدخن، وهل تحوز على إعجابكم، أرجو المعذرة من السيدات الحاضرات، هل تحوز النساء على إعجابكم؟

بما أنني جئت إلى هذه القاعة كي أجيب عن كافة الأسئلة، سأجيبكم، لكنني أرى بعض الأسئلة غير مناسبة. لكن، لا أكون رجلاً إذا لم تعجبني النساء، واليوم، لا أكون ثورياً، إذا ازدريت بواجبي الثوري، أو بواجباتي الزوجية لأن النساء تعجبني.

ـ كومينداني، ألا زلت تعتبر نفسك أرجنتينياً؟

ـ لقد ولدت في الأرجنتين. أرجو المعذرة على عدم التواضع في ذكر المقارنات التالية: خوسيه مارتي وفيدل كاسترو ولدا في كوبا، لكنهما إبنا أميركا اللاتينية كلها، ويناضلان من أجلها. أنا ولدت في الأرجنتين، ولا أتنازل عن وطني، لقد ترعرعت هناك. لكنني أشعر بنفسي كوبياً، وفي الوقت نفسه أشعر بمعاناة الجماهير الشعبية في بلدان أميركا اللاتينية أو أية بقعة أخرى على وجه الأرض. كل أميركا اللاتينية وطني.

عند عودته من الأرغواي، زار تشي مكان عمله القديم ـ البنك الوطني واستمع إلى حديث فيلاسكا عن كيفية تنفيذ المرسوم المالي الذي خطط له بنفسه.

ـ لا تستطيع أن تتصور تلك المفاجأة يا تشي. كان بعضهم يضرب على رأسه مهرولاً إلى معارفه وأصدقائه، علّهم يهرِّبون له أمواله. فهكذا كانت ضربة موجعة لكثيرين من المستغلين.

ـ ردة الفعل ليست سيئة. ماذا حصل في البنوك؟

ـ هل تتخيل تلك الطوابير؟ وقفوا للاطمئنان على مستقبل أموالهم وعندما علموا أن الحسابات البنكية التي تزيد على عشرة آلاف بيزو ستجمّد، وأنه لا يمكن سحب ما لا يزيد عن ستماية وستين بيزواً في الشهر، أطلقوا العنان لكلمات التذمر.

ـ آه، قال تشي، من يرغب بالاستحمام في الولايات المتحدة عليه أن يترك أمواله هنا. ومن يريد البقاء هنا، عليه أن يعيش بـ ستماية وستين بيزواً. وهذا المبلغ يساوي ثلاثة أضعاف متوسط

دخل العمال والموظفين. أتعلم يا فيلاسكا كم من البيزوات ألقت المخابرات المركزية الأميركية في الأسواق الكوبية؟ خمسمائة مليون. وهي تريد بذلك إجهاض اقتصادنا، وكان بمقدورهم أن يفعلوا ذلك لو لم ننفذ المرسوم المالي الذي جعل أموالهم ورقاً. آمل أن نكون قد حققنا التوازن بين السلع المعروضة والنقود الموجودة في التبادل.

كان سروره عظيماً عندما لاحظ اضطراب الصحافة البرجوازية في كوبا بعد أن بدأ بتوقيع الأوراق النقدية الجديدة.

* * *

قفزت ابنته الصغيرة فوق كتفيه بفرح كبير:

ـ آخ، يا بابا! كم من الوقت يمرّ ونحن لا نراك. لماذا أنت وسخ هكذا؟

كان يقف أمامها وسخاً من الرأس حتى أخمص القدمين، والتعب ينال منه حتى الإجهاد. تمكن من رسم ابتسامة على شفتيه. أخذ ابنته بين يديه:

ـ نعم يا حبيبتي، كل جسمي وسخ. ولم أبدل ملابسي منذ عدة أيام. فأي خطر هذا الذي يحيط بنا يا ابنتي! ستعرفين ذلك عندما تكبرين. يا لهؤلاء اليانكي الشياطين!

حاولت البنت أن تظهر بمظهر المتفهم، لكنها لم تتمكن من ذلك طويلاً:

ـ ألا يمكنك أن تلعب معي اليوم ولو قليلاً؟

ـ هيا نلعب في الشارع.

ـ أيمكنني أن أركب على ظهرك؟

ـ اقفزي.

ـ آخ، كم هو رائع هذا! أنت حصاني، ونحن نسير في غابة أسطورية!

ها هي فوق ظهر والدها الذي يسير بها نحو الحديقة على أربعة أقدام، والكلبة الصغيرة تلحق بهما، وهي تنبح بصوت عال.

جاءت إلدا، ووقفت إلى جانب الحرس الذي كان يضحك من منظر تشي وابنته.

بعد عدة دورات، توقف تشي، حيًا زوجته السابقة التي بدأت بسؤاله عن آخر الأحداث.

لم يكن تشي يؤمن بالمفاوضات مع الإمبريالية والاتفاق معها.

ـ يعلمنا تاريخ الولايات المتحدة أنها لا تؤمن إلا بالقوة، وأنها لا تتصرف إلا على هذا النحو. لقد أسس الإمبرياليون بلدانهم على الرشوة والنهب. واقتطعوا من المكسيك أراضي واسعة، وماذا بعد؟ كم مرّة اعتدى جنودهم على أراضي غيرهم؟ وهنا مثال كوبا في أعوام: 1898(*)، 1905، 1909، 1917، 1933. هل اعتدت كوبا، ولو مرّة واحدة، على الولايات المتحدة؟ طبعاً لا. واليوم؟ فإننا نجد في كل قارة من قارات العالم آثاراً لدموية جنودهم وصواريخهم.

كان تشي يتحدث بحرارة، ويحرك يديه بكثرة.

ـ وكلمتهم؟ يا للمهزلة. حتى رئيسهم الحالي كندي، يحاول إظهار نفسه كرجل عاقل ومحب للخير، وهو في الحقيقة ماكر أجرب. فمنذ عام ونصف أعلن في مؤتمر صحفي أنه لن يقوم هو، ولا حتى أي مواطن أميركي، بالاعتداء على كوبا. ونرى اليوم، لا بل في هذه اللحظة، مرتزقته يتهيأون للهبوط في كوبا. فممن يتلقون الدعم المادي؟ من الولايات المتحدة طبعاً. وأين تلقوا تدريباتهم؟ في الولايات المتحدة أيضاً. وأين أعدّوا خطة

(*) يبدو أن المقصود من عام 1898 هو الحرب بين الولايات المتحدة وإسبانيا. حيث أعلنت الولايات المتحدة الحرب على اسبانيا لاحتلال مستعمراتها ومنها كوبا.

هجومهم على «بلايا خيرون»؟ ومن أعطى الأوامر لبدء العدوان؟ إنه المستر كندي الموقّر! فكلمة اليانكي لا تساوي ما تجمّع من أوساخ تحت الأظافر.

استعرض أصابعه باشمئزاز، ثم تابع:

ـ لكنهم يفهمون لغتنا! لقد واجهناهم باستعداد كامل للقتال. والآن، لماذا لم يعط كندي الأمر لجنوده كي يبدأوا بالهجوم، وبوارجه تنتظر الإشارة؟ لأن الشعب الكوبي بأسره يقف على أهبة الاستعداد للدفاع عن ثورته، وهؤلاء الأوغاد يهابون هذا الموقف!.

ـ لكن الولايات المتحدة بدأت بالحصار البحري، وعبأت جيوشها.

ـ إلدا، لن نسمح بمضايقتنا. نحن أعدّينا مشروعاً سياسياً لحل المشكلة. لكن، عمن يجري الحديث؟ هل نحن من أعلن الحرب الاقتصادية على الولايات المتحدة؟ لا. إنهم هم الذين مارسوا الحصار الاقتصادي ضدنا. ويقومون بأية وسيلة لإعاقة تطور اقتصادنا، ولا يمكنني أن أحدثك الكثير عن ذلك، علينا أن نناضل بقوة ضد هذه الصعوبات. فهل نحن قمنا بالعدوان على الولايات المتحدة؟ لا. إنها هي التي تدعم عصابات المرتزقة بالمال والسلاح والتدريب من أجل تخريب منجزات الثورة. ثم هل نحن نهدد الولايات المتحدة بالمظليين؟ لا. إننا لا نريد الحرب، لكننالن نسمح لهم بمضايقتنا، وسنطور بلدنا بالطريقة التي نراها نحن مناسبة.

* * *

مرّة أخرى أعاد تشي النظر في الحسابات الرياضية الموجودة على اللوح، ثم قال:

ـ يبدو أنه صحيح. ماذا تقول يا فيلاسكا؟

ـ صحيح يا تشي

ـ هذا أروع ما في الرياضيات. رغم أننا لم نكمل حساب التفاضل، إلا أنني فهمت القليل منه، فماذا بعد؟

ـ كان يقف أمام اللوح، ويحمل بيده طبشورة.

إجلس يا تشي. لا يمكنني أن أعلمك أكثر من ذلك. فنحن سنتقابل مرّتين في الأسبوع لمدة أربع سنوات. نهار الثلاثاء من الثامنة حتى التاسعة صباحاً، ونهار السبت، وقد تستمر الدراسة حتى منتصف النهار. أما الآن، هيا نتذكر ما درسناه اليوم؟ لقد بدأنا من الهندسة التحليلية، وكانت لديك معلومات قليلة. ثم درسنا الحسابات التفاضلية والتكاملية. ومن ثم درسنا نظرية المعادلات التفاضلية بشكل مكثف. بذلك، تكون قد استنفدت كل ما لدي من معلومات في هذا المجال، وليس عندي بعد ما أقدمه لك.

ـ لكن يمكننا الاستمرار بالتعلم بشكل دائم، ما رأيك لو قمنا بذلك معاً؟

ـ ما الذي تريد دراسته الآن؟

ـ لقد قرأت عن نظرية تقارب المتوازيات. وهي مهمة جداً لنا. إذ يمكننا أن نستخلص منها كيفية استخدام القطارات، بشكل أكثر عقلانية وتوفيراً، ضمن شبكة ضخمة من سكك الحديد، بواسطتها نتمكن من نقل قصب السكر إلى المعامل. فكم نوفّر من الوقود بذلك؟ لا شك أن هناك إمكانيات كثيرة للاستفادة من هذه النظرية الرياضية.

ـ بالامكان طبعاً.

ـ فيلاسكا، بما أننا بلد ضعيف، علينا أن نعرف النظريات العلمية الحديثة لنستفيد منها على أكمل وجه. وليس المهم أن نعرف هل بإمكاننا استخدامها اليوم أم لا. بل المهم معرفة ما إذا

كان بإمكاننا القضاء على التخلف الاقتصادي. وأنا قمت كوزير للصناعة بتنظيم معهد للدراسات العلمية، يدرس تصميم الكومبيوتر وأنا أشك في قدرتنا على تعداد فوائده.

ـ أوافقك الرأي. سأبحث عن الكتب المفيدة في هذا المجال. إلى اللقاء في الثلاثاء القادم.

* * *

نظر تشي في مفكرته، إنه اليوم الرابع والعشرون من شهر آذار 1964. لا يزال الوقت باكراً، واليوم مقرر لموعد واحد وشخص واحد فقط. كتب على المفكرة اسم «تانيا».

تناول سماعة الهاتف، ثم قال: «لا داعي لإدخال أي شخص آخر اليوم. ثم أخرج دوسييه من الخزانة الحديدية، كتب عليها: «تمارا يونكي». في هذا الوقت قرع الباب.

ـ صباح الخير يا كوميندان.

ـ أهلاً وسهلاً تانيا. إنني سعيد برؤيتك. تفضلي اجلسي.

أخذ تشي يقلب أوراق الدوسييه، وهو يقول بصوت خفيف: «انتقلت عام 1961 من جمهورية ألمانيا الديمقراطية إلى كوبا... عملت مترجمة، ودرست في الجامعة... عضوة في الميليشيا الثورية. شاركت في مشاريع العمل التطوعي عدة مرات...».

ألقى نظرة إلى تانيا، ثم قال:

ـ إذاً، لا بد أن نكون قد تقابلنا في هذه المشاريع، أليس كذلك؟

ـ نعم يا كوميندان.

وضع الدوسييه على المنضدة:

ـ لقد تحققت رغبتك في تقديم وقتك كاملاً لقضية الثورة في آذار من عام 1963. ومنذ ذلك الوقت وأنت تتحضرين للعمل في الخارج.

ـ هذا صحيح لكنني لا أعرف، حتى هذه اللحظة، إلى أين سأتوجه.

ـ أنت طبعاً، تستغربين لماذا تتحدثين بهذا الموضوع معي بالذات.

ردّت تانيا بالنفي، لكن الاستغراب كان بادياً في عينيها الخضراوين.

ضحك تشي، ثم قال:

ـ لا يا تانيا. إنه مستغرب لأنك تتحدثين معي بالذات، وهنا في وزارة الصناعة. لكن لست وحدك، فأنا سأتسلم قريباً مهمة جديدة مع مناضلين آخرين من كوبا ودول أميركا اللاتينية الأخرى. سنفتح جبهة جديدة. لأن النهوض في بلدان أخرى وبشكل منسق من شأنه أن يؤمن تعاظم القوة الضاربة للشعوب في نضالها ضد الإمبريالية. وأنت بإمكانك تنفيذ مهمة صعبة في بوليفيا، من خلال إقامة علاقات مع الدوائر الحاكمة والقوة العسكرية هناك. يجب أن نعرف كل ما يدور في معسكر العدو. ثم تتنقلين بين المناطق للاطلاع على مستوى استغلال الفلاحين والعمال البوليفيين، وخصوصاً عمال المناجم. عليك أن تعرفي العدو على أكمل وجه ممكن.

بعد صمت قليل، سألت تانيا:

ـ سأقوم بذلك وحدي؟

ـ في البداية نعم، ولوقت طويل. وفيما بعد يُتصل بك. ستغادرين أولاً إلى أوروبا لتأخذي مظهراً جديداً، ثم تتوجهين إلى بوليفيا. لقد دُرست تفاصيل المهمة بدقة، وسيخبرونك بذلك. لكن المهم شيء واحد هو عدم التحدث عن مهمتك مع أي شخص من الأشخاص في أي حال من الأحوال وفي أي ظرف من الظروف، لا مع الثوار، ولا مع ممثلي الأحزاب الثورية،

حتى في أسوأ الظروف التي تمر عليك. لكن، تأكدي أن هناك رفاقاً آخرين يعملون في بوليفيا، لكنك ستعملين وحدك لفترة طويلة. هل ستقومين بذلك؟

ـ جاءه الجواب حازماً وواضحاً:

ـ نعم يا كوميندان، ولدي ثقة كاملة بذلك.

ـ سترين كيف أننا سنقاتل معاً في بوليفيا. والوقت سيظهر ذلك. لكن علينا أن نؤسس لذلك بشكل عميق. أما الآن فلنتحدث عن الوضع السياسي في أميركا اللاتينية كي تتعرفي على المهمات وآفاق نضالنا.

استمر الحديث لعدة ساعات.

* * *

جلس تشي في مقر الممثلية الكوبية في هيئة الأمم المتحدة، يعيد قراءة خطابه من جديد. ألقى نظرة من الطابق الواحد والثلاثين، وأخذ يجول بنظره طويلاً، غير أنه لم يتمكن في هذا النهار الماطر من تحقيق شيء ما.

مرّ بناظره على نص الخطاب من جديد، وهو يبحث عن الفقرة التي تدور حول نزع السلاح. وقرأ: «إحدى أهم القضايا المطروحة للبحث عند هذه الثورة هي موضوع النزع الكامل والنهائي للسلاح، إننا نؤيد قضية نزع السلاح بشكل كامل، إضافة إلى ذلك، إننا ندعو إلى تدمير كافة الرؤوس النووية، ونؤيد اقتراح عقد مؤتمر يضم كافة دول العالم يساهم في تحقيق طموح الشعوب في نزع السلاح. لقد أشار رئيس وزرائنا، في خطابه أمام هذه الدورة، إلى أن سباق التسلح كان دائماً ينتهي إلى الحروب. وأن العالم الآن يشهد ظهور دول جديدة تحوز على السلاح النووي، وهذا يعني ازدياد مخاطر الصدام المسلح.

إننا نرى ضرورة لعقد مؤتمر دولي يهدف إلى تدمير كافة

الأسلحة النووية. وأول خطوة في هذا المجال تكمن في تحريم التجارب والتفجيرات النووية».

«نعم، هذا واضح وبرنامجي»، قال تشي في نفسه، وقلب صفحتين، ثم تابع القراءة.

«إننا نعلن للملأ رغبتنا في بناء الاشتراكية، كما نعلن تضامننا مع كل محبي السلام والمناضلين من أجله. نحن أعضاء في حركة عدم الانحياز، رغم كوننا ماركسيين ـ لينينيين، لأن بلدان عدم الانحياز تناضل ضد الإمبريالية. نحن نريد السلام، ونريد بناء كوبا الجديدة، وتأمين الحياة الأفضل لشعبنا. لذلك نحاول عدم الرد على استفزازات اليانكي، لكننا نعرف طريقة تفكير حكومة الولايات المتحدة وآراءها، إنهم يطلبون ثمناً باهظاً مقابل السلام. ونحن نجيب من على هذه المنصة، إن هذا الثمن لا يمكن أن يكون أعظم من سيادة البلد».

رفع عينيه عن النص، وتساءل في نفسه:

«السلام ـ هل هو عدم سقوط الصواريخ النووية فقط؟ ـ هل سكان غواتيمالا يعيشون بسلام؟ هل يمكننا الحديث عن السلام، في حين أننا نضطر للنضال كل يوم من أجل الحياة؟ وماذا نفعل بمن هزم في صراعه من أجل الوجود؟».

مرّت في ذاكرته تلك الهياكل الملقاة على جوانب الطرقات، هياكل المنبوذين والبؤساء، ضحايا المجتمع الذي لا يرحم. وأولئك القابعون في السجون، أو الذين يتلقون الرصاص بصدورهم ثمناً لكلمة شريفة ـ «هؤلاء، أيحبون بسلام؟».

بعد إلقاء خطابه في الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة، حاول كثير من الصحفيين إجراء مقابلة معه، فوافق على إجراء مقابلة مع مراسلي شبكة الـ سي.بي.إس التلفزيونية، ومع مراسل الـ «نيويورك ـ تايمز».

كانت المقابلة مع وزير الصناعة الكوبي تبث بشكل مباشر.

قبل صعوده إلى المنصة، قال له المراسل: «لحظة سيد غيڤارا، لا يزال لدينا متسع من الوقت».

توقف تشي، وأخذ يلاحظ الاستغراب في عيون المصور التلفزيوني. كان بإمكانه قراءة التساؤلات المرتسمة على جبينه: «منذ متى كان وزراء الصناعة يلقون خطبهم وهم يرتدون بزّتهم العسكرية؟ ربما غيڤارا هذا إرهابي محترف؟؟».

ـ سيد غيڤارا، في معظم صوركم كان شعركم طويلاً، فلماذا حلقتم؟

هزّ تشي كتفيه، فأية أسئلة غبية هذه!

ـ عندما أصبح لدي وقت فراغ لذلك. أما عندما كنا نقاتل في سييرا فكانت لدينا مشاكل أخرى.

أشعل تشي سيجاراً وهو يفكر بالخطاب الذي ألقاه في الجمعية العمومية، لقد أرهقه، وتتطلب جهداً كبيراً، لكنه ضروري.

استمر الصحفي في توجيه أسئلته:

ـ عفواً سيد غيڤارا، كيف يصبح الإنسان ثائراً، على ما أعتقد لا يولد الثوار صدفة! وأنا أهتم بهذه المسألة بشكل شخصي:

لم يكن غيڤارا يرغب أصلاً باجراء المقابلة. لقد نال الإرهاق منه. لكن، طالما أن الفرصة سانحة للحديث أمام الجماهير، فعليه توضيح المسائل قدر الإمكان، وعليه أن يفعل ما بوسعه من أجل تنظيم الدعاية لقضية شعوب أميركا اللاتينية. أغلق عينيه وبدى بالإجابة:

ـ لقد نشأت في عائلة معادية للفاشية. وهذا ما ترك تأثيره عليَّ. كما رأيت بأم عيني الجياع والمحرومين في طرقات أميركا اللاتينية، وعرفت أسباب هذه العذابات. لقد أصبحت ثائراً حقيقياً في غواتيمالا، عندما رأيت كيف نفذت المخابرات المركزية

الأميركية الإرهاب الدامي المعادي للثورة، باسم الحفاظ على مصالح الاحتكارات الأميركية في هذا البلد، ناهيك عن...

حان وقت المقابلة التلفزيونية. لقد احتل المراسلون أماكنهم أمام كاميرات التصوير. وكان أحدهم يجلس وهو يحرك قلماً بين يديه باضطراب، حتى ترك انطباعاً لدى تشي أنه مصاب بمرض ما في معدته، وكان مراسل آخر شديد التركيز. أما الثالث فكان ذا مظهر دبلوماسي.

ـ دكتور غيڤارا، تتحدث واشنطن عن شرطين أساسيين لإعادة العلاقات إلى طبيعتها بين كوبا والولايات المتحدة. الأول هو: تخلي كوبا عن الاتفاقيات العسكرية مع الاتحاد السوفياتي والثاني هو التخلي عن سياسة تصدير الثورة إلى بلدان أميركا اللاتينية الأخرى. فهل ترون مجالاً للتقارب حتى بشرط واحد من هذين الشرطين؟.

نظر تشي إليه شذراً، فلماذا لا يسأله عن رأي الكوبيين بالقاعدة العسكرية الأميركية في كوبا، والتي لا ينوي اليانكي إخلاءها؟ لكنه أجاب:

ـ أنا لا أرى أية إمكانية للتقارب على هذا الأساس. ونحن مثلاً لم يسبق لنا أن وضعنا شروطاً على الولايات المتحدة، فلم نطالبها بتغيير نظامها الاجتماعي، ولا نطالبها بالتوقف عن الممارسات العنصرية هناك. إننا لا نضع أية شروط لتحسين العلاقات معها، لكننا في الوقت نفسه نرفض أي شروط.

بعد ذلك بدأت الأسئلة المملّة إياها، والتي سبق له أن أجاب عنها عشرات المرات في الأيام الماضية. كم كان يرغب في أن يكون إلى جانب إليدا والأطفال.

وبينما كان المترجم يقوم بمهمته، أخذ تشي يخط أسماء أطفاله بإصبعه.

ثم عادوا إلى جذور المسألة ـ الانتقال إلى الاشتراكية بالطرق

السلمية وغير السلمية. فعلى كل حال فهموا أن هذا الانتقال سيتم، لكن السؤال يكمن في السبيل لتحقيق ذلك.

ـ لقد درسنا نظرياً مسألة الانتقال السلمي إلى الاشتراكية. لكن، من الصعب تطبيق هذه المرحلة سلمياً في القارة الأميركية، لا بل حتى شبه مستحيل، لهذا، قلنا بوضوح لا يقبل التأويل إن الطريق إلى الاشتراكية في أميركا اللاتينية لا يمكن لها أن تتم إلاّ بالحرب. و... ـ هنا ابتسم لأحد المراسلين الأميركيين، وتابع ـ وهنا استطيع أن أؤكد لكم براحة ضمير، أنكم ستمرون عبر هذه الطريق أيضاً.

* * *

بعد إلقاء خطابه في الاجتماع المخصص للحوار الاقتصادي، الذي نظمته منظمة التضامن الأفرو ـ آسيوية، ذهب تشي إلى حفلة الاستقبال من دون أية رغبة؛ لأنه لم يكن يتحمل هكذا «سهرات» لما يدور فيها من أحاديث تبعث على الاشمئزاز. وهناك، تمكن من الخروج إلى الشرفة لعدة دقائق. ألقى نظرة على ميناء الجزائر، فتراءى إلى ذاكرته ميناء فالبارايسدا.

تقدم منه مندوب أحد الوفود الأفريقية، وكان يرغب في التهرب من حديثه، لأنه كان شديد التكلف والدبلوماسية. فجأة، شعر بشوق لإليبيدا. لكن، لا مهرب من الحديث معه، فهو من بين الدبلوماسيين، ومن واجبه كسب تأييدهم لكوبا. كما لا يحق له أن يبدو جافاً أو حاداً مهما كلف الأمر.

بعد أن تبادلا المجاملات، وعرف المندوب الأفريقي بنفسه، أبدى استغرابه من السماح للكوبيين بالمشاركة وإبداء الرأي.

ـ أتعلم يا سيد غيفارا ما الذي أثار حفيظتي أكثر من أي شيء آخر؟ هو حديثك عن البلدان الاشتراكية. عفواً، ألا تريد شراباً بارداً؟

تناول المندوب الأفريقي كأسين من عصير البرتقال، وقدم واحداً منهما إلى تشي:

ـ لقد قلت في حديثك، أنه من واجب الدول الفقيرة أن تعتمد على الدول الاشتراكية، ومن ثم أخذت تكيل المديح لهذه الدول.

في هذه الأثناء، هبت نسمة منعشة، فاستنشق تشي الهواء بعمق. وكان يشعر بألم خفيف في رأسه. لكن، كان عليه أن يشرح شيئاً ما لهذا المندوب. فشرب كأس العصير دفعة واحدة، ثم أجاب:

ـ أنا هنا لا أتحدث باسم الحكومة الكوبية فحسب، بل باسم الشعب الكوبي أيضاً، فنحن نعلم من استعدّ لشراء السكر من كوبا، في الوقت الذي رفضت فيه الولايات المتحدة شراءه، رغم ارتباطها بعقود واتفاقيات اقتصادية تنص على وجوب شراء الولايات المتحدة للسكر من كوبا. لقد أرادت إركاعنا اقتصادياً. أما الاتحاد السوفياتي، المنتج الأول للسكر في العالم، فقد أبدى استعداده الكامل لشراء محصولنا. أما الاحتكارات الأميركية الشمالية فتريد ألا يكون هناك مصباح واحد يضيء في كوبا، ومن قدم لنا النفط؟ الاتحاد السوفياتي. لقد احتجنا إلى السلاح للدفاع عن أنفسنا. واشتريناه بأثمان باهظة من أوروبا، وكان منهكاً لاقتصادنا. فما الذي جرى عندما وصلت السفينة التي تحمل السلاح، لقد انفجرت في ميناء هافانا وأدت إلى مقتل عدد كبير من العمال. فمن مدّ لنا يد المساعدة بعد ذلك، ومن قدَّم لنا أحدث الأسلحة؟ إنه الاتحاد السوفياتي، ولم تنفجر بعدها أية سفينة، ولم نضطر لدفع مبالغ باهظة. وأهم من هذا كله، لم تكن هناك شروط مقابل ذلك. لقد أصبح بإمكاننا أن نفعل ما نريد. وهذا ما تسميه نحن، ربما كان ذلك غير مفهوم لديكم، أو أنه مضحك، أو غير معروف أصلاً. هذا ما نسميه بـ «الأممية البروليتارية». وهذا المفهوم يعني الكثير عند الكوبيين، ووعوا معناه بأمثلة حيّة.

ـ لكن، كانت هناك خلافات كبيرة أيام الأزمة الكاريبية.

ـ كانت هناك رؤى مختلفة حول طريقة حل المشكلة. وأخيراً انتصرت الطريقة الأفضل. ثم ماذا؟ أمن أجل ذلك ننسى كل شيء؟ فما هو الأهم؟ المساعدة النزيهة، وطويلة الأمد من دون أي شروط أم الخلاف حول مسألة محددة؟ والخلاف لم يكن ذا طابع مبدئي وجوهري. وأشك في أنكم تتفهمون امتلاك دولتين لعلاقات الصداقة والأخوة وفي الوقت نفسه تتبادلان وجهات نظر مختلفة في حل هذه المشكلة أو تلك. اعذرني مسيو، لقد تأخرت، وداعاً.

* * *

قدم له الدجاجة، فطلب منه تشي قهوة وكأس ماء. ثم ألقى نظرة عبر نافذة صغيرة في الطائرة محاولاً تثبيت نظره على شيء ما. لكنه لم يرَ سوى الغيوم.

أخرج من حقيبته بعض الأوراق وسيجاراً، ثم استغرق في التفكير. فكم من الأفكار ووجهات النظر عليه صياغتها بشكل مناسب. ومن أعظم أحلامه بناء الإنسان الجديد.

النضال في سييرا، العطاء اليومي من أجل بناء الاشتراكية، لم كل ذلك، ولأي هدف؟ وهل يمكننا بذلك تحطيم الملكية الخاصة لوسائل الانتاج؟ بهذه فقط طبعاً لا. لكن بهذا فقط يمكننابناء أسس المجتمع الجديد.

أخذ ينظر إلى الغيوم من جديد، وهو مستغرق في التفكير. هل يمكننا بناء مجتمع إنساني على أيدي أناسٍ تأثروا بالمجتمع القديم؟ لقد أثبت الواقع فشل هذه الفكرة، فلا يمكن للوعي أن يتبدل بشكل آلي، ولا يمكن للإنسان الجديد أن يولد وحده مع العلاقات الانتاجية الجديدة.

قدمت له المضيفة كأس الماء والقهوة، فقدم لها الشكر،

وانشغل بأوراقه من جديد. توجد في المجتمع الرأسمالي تأثيرات غير مرئية لمعظم القوانين الرأسمالية على الفرد. فالصحف مثلاً، تكتب عن تحول ماسح للأحذية إلى مليونير، لكنها لن تكتب عن الفقر الذي ينشأ كنتيجة طبيعية لتحول هذا الفقير إلى مليونير، ولا عن الحقارة والدناءة في جمع الثروة، ولا عن الصراع من أجل البقاء، الذي يؤدي بالسير على الجثث باسم المصلحة الشخصية. أما في المجتمع الجديد فلا إمكانية لوجود كل ذلك، لكن، ما هو السبيل لتغيير الوعي بعد هذه التركة كلّها؟

قضى تشي على القهوة. وأحسّ بتعب في رجله. فعليه أن يمارس الرياضة أكثر، إذ ليس من حقّه الترهل. ثم عاد إلى التفكير بما كان يشغله، وأخذ يدوِّن:

«من الضروري أن يكون المشاركون في بناء المجتمع الجديد واعين. فلا يضع الإنسان الجديد في مراكز اهتمامه النجاح الشخصي. بل عليه أن يأخذ مصالح الآخرين بعين الاعتبار، لأنهم أصبحوا أخوة له، وليسوا منافسين. فهكذا يشارك الجميع في التحولات الاجتماعية بنشاط مضاعف. وفي عملية الانتاج النشيطة هذه يجد الإنسان الجديد ذاته، ويعي أنه لا يعمل لنفسه فقط، بل من أجل كوبا الجديدة أيضاً. وعليه أن يتقن العلم والتكنولوجيا من أجل استخدامهما لتحقيق أهدافه، ومن أجل تحرير أكبر عدد من البشر من العمل الروتيني، حتى يتمكنوا من الإبداع في البناء. فالإنسان الجديد يخلق فناً يعكس صفاته ومظهره».

فكر تشي بأولئك الذين انشغلوا بمشكلة: «كم أستطيع أن آكل من اللحم؟»، و«كم مرّة أستطيع الذهاب إلى المسبح»، و«أية أدوات يمكنني أن استخدم للزينة؟». لا شك أن كل ذلك له أهميته، لكن الأساس هو الثروة الروحية الداخلية للإنسان. ثم تابع الكتابة: «هل يحرم الإنسان بذلك من ذاتيته، ويصبح للدولة؟

لا! فالإنسان الجديد وحده يمكنه تطوير إمكاناته الفردية واحتياجاته. ومن أجل ذلك عليه تخليص ذاته من التصورات التي شاخت. لكن، كيف يمكن الوصول إلى ذلك؟ هل بواسطة المغريات المادية والمال؟ لا شك أن الحوافز المادية ضرورية، حتى في الاشتراكية. إلاَّ أن طابعها يتغير، فتضاف إليها الحوافز الفكرية والمعنوية والأمثولة الذاتية».

تذكر تشي شارع العمل التطوعي، حيث كان يشارك مع أعداد كبيرة من الكوبيين. لم يكونوا ينتجون ويعملون من أجل مصالحهم الذاتية، إنما أخذوا هذه المصاعب على عاتقهم من أجل المساهمة في بناء المجتمع الجديد. إضافة إلى ذلك، فإن العمل التطوعي كفيل في تغيير نفسية الإنسان، حيث يتم انقلاب في الوعي، وإتمامه يكون أصعب من الإطاحة بنظام باتيستا. فمن الضروري الانتصار على الارادة الذاتية، وعلى عدم الانضباط، وعلى أنانية البرجوازية الصغيرة، وعلى تلك العادات التي ورثها العمال والفلاحون من المجتمع القديم. كان يؤمن أن الانتصار على هذه التركة يولد العلاقة الجديدة نحو العمل. وعندها فقط تصبح عودة الرأسمالية مستحيلة، كذلك تصبح الاشتراكية غير قابلة للهزيمة.

ثم بدأ يكتب، «نحن في الاشتراكية أكثر حرية، لأننا أغنى. ونحن أغنى لأننا أكثر حرية. ونحن نضحي عن وعي، وهذا ثمن للحرية التي نناضل من أجلها». وشدد بخطين تحت الجملة الأخيرة.

عاد تشي من الجزائر، وتوجه مباشرة إلى وزارة الصناعة. كانت تجتاحه رغبة عميقة للانفراد بنفسه. وكان يحتاج إلى وقت خاص، للتفكير ولكتابة بعض الرسائل.

جلس خلف طاولة الكتابة، فأحسها غريبة عنه. لأنه نسيها طيلة هذه الرحلة، أخذ يتذكر انطباعاته الجديدة وما رآه في الصين

ومالي، والوضع المعقد في الكونغو وحواراته في مصر ثم انتابه شعور بالوحدة. إذ أصبح أطفاله ينظرون إليه كما لو أنه إنسان غريب تماماً. كانوا ينادون الحارس الذي يقف أمام الباب بعمهم. لقد عرفوه وأحبوه، أما هو فكان بالنسبة لهم شخصية غير معروفة تقريباً لكن هناك شعوباً يملأها النضال بحزم من أجل الحرية، وضد الاضطهاد الإمبريالي. وكان له في هذا النضال منزلة يفتخر بها، وعليه أن يقدّم حصّته، وأن يقوم بذلك انطلاقاً من قناعاته. لكن، لم يكن ذلك بهذه البساطة، فقد شعر بحنين تجاه عائلته. ولأطفاله الحق في أن يكون لهم أب.

حدّق طويلاً في صورة أطفاله، ثم تناول قلماً وورقة، وأخذ يكتب بأحرف كبيرة فوق العادة:

«إلى أطفالي!

أعزائي: إلدينا، كاميلو، سيليا وارنستو!

إذا قدّر لكم أن تقرأوا هذه الرسالة في يوم من الأيام، فذلك لأنني لم أستطع أن أكون بينكم فقط. قليل ما تذكرونه عني، وأصغركم سينساني نهائياً.

كان والدكم ذاك الإنسان الذي يتصرف بما يخدم أفكاره، ويعيش وفق قناعاته دون أي شكوك.

فكي تكونوا ثواراً جيدين، عليكم بالتعلم كثيراً، حتى تتقنوا التكتيك الذي يتيح لكم فهم الطبيعة والتأثير عليها. وأذكروا أن أهمّ ما في الحياة هو الثورة، وأن كل واحد منا على حدة لا يساوي شيئاً. والقضية الأساسية هي في أن لا تفقدوا القدرة على الشعور بانعدام العدالة مهما صغر، وبغض النظر عن مكان انتهاكها. وهذا أروع ما في الثوري من طباع.

إلى اللقاء يا أطفالي الأحباء، آمل أن ألقاكم في يوم من الأيام. أعانقكم بحنان أقبلكم.

والدكم».

ألقى الرسالة جانباً، وحدّق بها طويلاً دون أن يقرأها. لقد بدت له مجرد ورقة. ولكنه تمكن من إخبار أبنائه وإلييدا خبراً هاماً، وربما يكون الأخير.

ثم قرر كتابة رسالة أخرى إلى فيدل.

بما أنه وضع احتمال استشهاده، قرر التسامح من الشعب الكوبي ووداعه. ووداع الرفاق القدامى وفيدل. كان يفهم أنه نفذ مهمته في كوبا بشكل جزئي. وتخلّى بشكل رسمي عن موقعه في قيادة الحزب، واستقال من منصبه الوزاري. وتنازل عن رتبة الـ «كوميندان»، وعن الجنسية الكوبية. وأصبح بإمكانه الاستمرار في النضال في مكان ما آخر.

لقد شكر في هذه الرسالة فيدل على ما تعلّمه منه. وبما أنه لم يترك لأطفاله أية ممتلكات، فقد ائتمنهم عندالدولة، إذ إنه يؤمن أن الثورة تضمن لهم الحياة والتعليم.

لقد فارق هذا البلد، وعائلته، وأصدقاءه بألم. لكن، من كان له أن يفهمه أفضل من فيدل، وأن يفهم أفكاره التي يحاول تحقيقها من جديد.

جال في مكتبه ذهاباً وإياباً، والصمت يطغى على الوزارة. إذ لم تكن تسمع طرقات الآلة الكاتبة، ولا جرس الهاتف. بل كان سكون الليل هو السيد.

أشعل سيجاراً، ثم تناول ورقة وبدأ يكتب إلى والديه:

«عجوزاي العزيزان!

ها أنذا أنطلق من جديد، وأشعر بقرب نهايتي.

قبل عشرة أعوام كنت قد كتبت لكما رسالة وداع، قلت فيها، على ما أذكر، إنني لم أصبح جندياً حسناً ولا طبيباً حسناً. فبالنسبة للثانية فهي لا تعنيني، أما الأولى فقد أصبحت جندياً غير سيء.

منذ ذلك الحين، بقي كل شيء على حاله بشكل عام، غير أنني ازددت وعياً، وازدادت ماركسيَّتي. أنا أرى في النضال المسلح المخرج الوحيد للشعوب المناضلة من أجل حريتها، وأنا ملتزم بأفكاري، وكثيرون هم الذين يعتبرونني مغامراً. وهذا صحيح. لكنني مغامر من نوع خاص، من نوع أولئك الذين يخاطرون بحياتهم من أجل ترجمة أفكارهم إلى واقع.

من المحتمل أن أقوم بذلك للمرة الأخيرة. أنا لا أبحث عن تلك النهاية، لكننا إذا فكّرنا منطقياً، فقد تكون هذه النهاية محتملة. وإذا كان الأمر كذلك، فاسمحا لي أن أضمكما للمرة الأخيرة.

لقد أحببتكما كثيراً، لكنني لم أتقن إظهار حبي. وكنت مستقيماً في تصرفاتي إلى درجة قصوى، وأعتقد أنكما لم تفهماني. ومن جهة أخرى، صدّقاني، لم يكن من السهل فهمي، وعلى الأقل في هذا اليوم. تدفعني إرادتي، رغم رجليّ الضعيفتين ورئتي المنهكتين، إلى العمل. لكنني سأصل إلى الهدف.

قبلوا، نيابة عني، سيليبيا، وروبرتو، وخوان، ومارتين... بكلمة واحدة قبلوا الجميع.

يعانقكما بقوة ابنكما الضال الذي لا يقوَّم

إرنستو».

نظر إلى الغرفة، وكان الضوء خافتاً. كان له فيها بعض الأشياء الخاصة: صور، مرآة حائط صغيرة، ولاعة، بعض الأقلام.

قرر أن يهديها جميعها إلى الموظفين.

جمع ما كان قد تبعثر على الطاولة من سجائر، ووضعها في الصندوق. ثم وقف أمام المرآة: «فهكذا يا إرنستو تشي غيفارا، يرغب دونكيشوط في الانطلاق من جديد».

الموت في بوليفيا

ها هم، قرابة الشهر، خمسة عشر كوبياً يرابطون في منطقة بينار ـ ديل ـ ريوه الجبلية. لقد درسوا تكتيك حرب الأنصار، وتعلموا إطلاق النار، والمسير الطويل. لكن، كان عليهم استعادة قدراتهم السابقة، فبنوا معسكراً لفدائيين حقيقيين. كان معظمهم قد تعرف على بعض في معارك الأعوام السالفة. كل واحد منهم كانت له عائلة، وأطفال صغار. لقد دعوهم للنضال ضد الامبريالية في بلد غريب. أين، ومتى؟ هذا ما لم يعرفوه. حتى أنهم لم يعرفوا من يقود العملية. لكنهم رغم ذلك، وافقوا على المشاركة من دون تردد. لقد جُهِّز كل شيء في ظروف سرية للغاية. قطعوا كل الاتصالات بعائلاتهم، ولم يكتبوا كلمة واحدة في رسائل الوداع تشير إلى أية زاوية في هذا العالم سيخاطر والدهم أو زوجها.

طغت على المجموعة عزيمة قوية. كل شيء كان منظماً كما في السابق. لقد تم لهم حيازة القوة الرئيسية. وفي كل يوم كان الرفيق المناوب يقوم بشؤون الطعام. أصبحوا يعيشون من جديد كما كانوا في سييرا. طلب تشي أن يقدم له تقرير يومي عن المزاج والعزيمة الموجودين لدى المجموعة. لم يكن قد وضع المناضلين في الجو بعد. ولم يكونوا على علم أن الدور الأساسي يعود لهم في تنظيم الخطة. لقد أخبروهم أن هناك في المجموعة

من يقوم بقيادة العمل الفدائي المقاوم. وكانت عند معظمهم قناعة أن القائد الجديد سيكون ثورياً معروفاً.

نظم الثوار الصف بسرعة، وأمعنوا النظر بالقائد الجديد للمجموعة. كان يرتدي بزَّة رسمية ذات لون معتم، وأشعة الشمس تنعكس على حذائه اللامع. كان حليق الشعر، ونظارات شمسية سوداء ترتسم فوق عينيه. كانت أسنانه مرتفعة قليلاً إلى الأمام. أخذ يداعب غليونه وهو يمرّ متعرفاً على صف الثوار.

ـ «هنا أيها الرفاق، سترون الدكتور الذي حدثتكم عنه، والذي سيقود عمليتنا».

لاحظ الدكتور بعض الاحباط قد ارتسم على وجوه المقاتلين. لقد انتظروا لقاء مع قائد عسكري شهير من قادة الحرب التحررية وإذا به هذا...

وقف الدكتور بصمت. ومرّر ناظريه على الجميع بارتياب. لقد لاحظ أنهم لا يرغبون في القتال تحت إمرته. وهم لم يحملوه على محمل الجد.

لاحظ بينارس، قائد المعسكر حتى هذه اللحظة، لاحظ عدم الرضى عند المقاتلين. حاول تهدئة الوضع فقال:

ـ ما رأيكم في المجموعة؟ قال ذلك موجّهاً سؤاله إلى القائد. وكان يتضح من عينيه أنه ينتظر مديحاً كبيراً.

أخرج الدكتور عدة دفعات من غيوم غليونه، ثم قال:

ـ يبدو أن الحديث يدور حول مغامرة عاطفية.

ارتجف بينارس من المفاجأة. إذ هنا يتجمع خيرة من اشترك في الحرب التحررية. وبعضهم عضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكوبي.

سادت الدهشة جميع المناضلين. وكانوا يغلون من عدم الرضى. شد بينغوا قبضته، ولولا تمهّله لوجّه لكمة لهذا الدكتور.

اقترب الدكتور من سان لويس وهزّ رأسه:

ـ لماذا أنت مصفرّ هكذا؟ من الصعب على أناس بهذه الوجوه أن يصبحوا مقاتلين أشداء. لقد بدا وضع المقاتلين وكأن قنبلة موقوتة ستنفجر فجأة، دون أن يعرفوا في جيب من هي موجودة. وبصعوبة، تمالك المقاتلون أنفسهم.

استقرأ الدكتور الغضب في عيونهم. لكنه استمر وكأن شيئاً لم يكن. أخذ يقترب من كل واحد منهم، يصافحه ويعرفه بنفسه: «فرصة سعيدة، رومان». وعندما اقترب من انطونيو اسانتشيس دياس قال:

ـ أعتقد أنه سبق لي أن تعرفت إليك.

هزّ دياس رأسه نافياً:

ـ لا يمكن أن يكون قد حدث ذلك.

نظر الدكتور رومان، غير المعروف من أحد، إلى انطونيو اسانتشيس دياس. أطال النظر إلى عينيه، ثم نظر إليه من رأسه حتى قدميه. انتزع الغليون من فمه، ومرّ بيده على ذقنه الحليق، وبعد توقف طويل قال:

ـ لكنني في كل الأحوال أعرفك. ألم يقل بينارس اسمك؟ ألم تكن في أيام الأزمة الكاريبية تطوف القرى في سيارة «جيب» تحدث الفلاحين عن أحداث كالكوابيس.

أجاب دياس بارتياح ومحاولاً التبرير:

ـ هذا صحيح. لقد طفت على الفلاحين في سيارة «جيب»، لكنني لم أرو أي حوادث كابوسية.

اقترب الدكتور من خيسوس سواريس غايول دون أن يكمل كلامه:

ـ على ما أعتقد إنك مساعد الوزير. ما الذي تفعله هنا؟ ألا يوجد لك عمل غير هذا؟

لقد عرفه غايول، فاندفع نحوه وضمه بقوة. أما بقية الرفاق فكانوا يتابعون هذه اللقطة بدهشة بالغة:

ـ تشي! يا لك من عجوز محتال! أية مفاجأة! هذا رائع! سنقاتل معاً من جديد!

ـ وسننتصر! أضاف رومان. وهنا انفجرت صيحات السعادة من قبل الرفاق.

ـ تشي! كوميندان! أيعقل هذا! تشي!

بعد تحيات عاصفة، وقبلات ونظرات سعيدة، خلع رومان الهندام الفاخر غير المعتاد، وارتدى بزّة خضراء وحذاءه الذي قاتل به أثناء الحرب.

ربّت توما على كتفه وقال:

ـ الآن تعجبني أكثر يا تشي.

ـ أعجب بنفسي أكثر لأن حارسي لم يعرفني. فهذا شيء جيد. إذاً، من يستطيع معرفتي من المخابرات المركزية الأميركية؟

اقترب رودريغوس من تشي، وعرض عليه شراباً منعشاً:

ـ ما اسمك الحركي يا رودريغوس؟

ـ رولاندوا.

ـ اسم جيد. كذلك اسم رومان ليس سيئاً. ماذا ستفعل اللجنة المركزية من دونك؟

ـ الحزب الشيوعي الكوبي يسير من دوني. وأنا ضروري في مكان آخر. وأنت أيضاً تركت وزارتك.

ـ صحيح. والآن، هيا نناقش الوضع العالمي.

جلس المقاتلون في حلقة دائرية، وعلى محياهم ترتسم ملامح السعادة لوجود تشي قائداً لمجموعتهم الأنصارية. ثم أخذ تشي يشرح لهم هدف عمليتهم.

ـ في البداية أود أن أعبّر عن سروري لأنكم وافقتم على هذه

المهمة. والآن على كل واحد منا أن يتخذ مظهراً برجوازياً كي لا يتعرف عليه أحد. أما عن العملية:

هناك في غواتيمالا وفنزويلا والبيرو والبرازيل يدور صراع مسلح ضد الإمبريالية، ويمكن أن يمتدّ إلى دول أخرى. لكن، أهم ما في الأمر، أن الظروف الاجتماعية في جميع دول القارة نضجت للقيام بالثورة الاشتراكية، والبرجوازية المحلية فقدت أية إمكانية للوقوف في وجه الإمبريالية، هذا إذا افترضنا أنها فعلت ذلك في يوم من الأيام. وهكذا فمن الممكن القيام بثورة اشتراكية. والجميع في هذه القارة يتحدثون بلغة واحدة، حتى يمكننا التفاهم مع البرازيليين(*). كما أن أسلوب استغلال الإنسان واحد تقريباً في جميع البلدان، وهي تشهد حالة نهوض ضد الاستغلال والنهب. لذلك، يتخذ النضال طابعاً قارياً بشكل عام، ولا ينحصر في حدود بلدان محدودة. وستكون الثورة المسلحة في كل مكان.

صحيح أن كثيراً من الثوار سيستشهدون وسيقعون ضحية لأخطائهم الشخصية. لكن، في خضم هذا النضال الثوري سينهض مناضلون جدد.

يوجد لدى اليانكي خبراء عسكريون، لكن، بمقدار ما يتعاظم النضال الثوري، سيضطر إلى إرسال جيوش نظامية لأن الجيوش المحلية ستكون عاجزة عن مواجهة نجاحات الأنصار. هذه هي طريقة فيتنام، وعلينا خلق فيتنام ثانية في قارتنا.

فهدفنا الستراتيجي هو تحطيم أوصال الإمبريالية الأميركية. والمهمة الملقاة على عاتقنا ـ نحن ممثلو البلدان والشعوب المضطهدة والمستغلّة ـ تكمن في حرمان الإمبريالية من أسس

(*) اللغة الرسمية في البرازيل هي اللغة البرتغالية.

وجودها، وتخليص الشعوب المضطهدة من براثينها. تلك الشعوب التي تقدم الخامات والأيدي العاملة الرخيصة. فالحلقة المركزية في هدفنا الستراتيجي هي حرية الشعوب الحقيقية. هذه الحرية التي غالباً ما تتحقق عبر النضال المسلح، وتتحول إلى ثورة اشتراكية.

إننا لا نملك الحق في الاستهتار بعدونا. لكن، رغم الامكانات التقنية المقدمة لجنود أميركا الشمالية، إلا أنهم لا يملكون أي أساس فكري. وهم لا يقاتلون من أجل قضية. لذلك يجب توجيه الضربة الأساسية إلى روحهم المعنوية، ويمكننا تحقيق ذلك بالضربات المتتالية وإلحاق الهزيمة بهم. وفي خضم هذه المعارك لا شك من سقوط الضحايا الكثيرة، خصوصاً في البداية التي ستكون صعبة. لكننا نعرف لماذا نقاتل ـ من أجل تحرير قارتنا. إننا لا نستطيع تحقيق حريتنا من دون كفاح، ومن الخطأ أن نعتقد غير ذلك. إننا سنناضل ضد العدو المشترك، بالضبط كما ناضلت شعوب أميركا اللاتينية ضد المستعمرين الإسبان. واسمحوا لي أن أصل إلى هذه الخلاصة: هدف نضالنا يكمن في تحطيم مناطق نفوذ الامبريالية. وعلينا أن نورط العدو في معارك جانبية في دول مختلفة حتى نقضي على أسس وجوده، أي حتى ننتزع الدول التابعة منه. ينتظرنا نضال طويل، لكن، لا نستطيع إلا الالتزام بواجبنا.

كان يتحدث بصوت خفيض. ويلاحظ تأثرهم بحزمه. وأنهى حديثه قائلاً:

ـ أنا لا أستطيع إلاّ الالتزام بواجبنا! فلنتذكر فيتنام كل يوم. نحن نعرف إلى أين نسير، ووعينا أهمية قرارنا. وهذا هو أساس نضالنا أيها الرفاق. فعلى بوليفيا أن تصبح مركزاً نشيطاً لعملياتنا. لقد تم تجهيز ذلك منذ العام 1964، لقد وصلت مجموعاتنا التحضيرية، ومراسلونا الأوائل منذ عامين.

ـ لكن بوليڤيا لا تطل على البحر، قال غايول معترضاً، وهي محاطة بأربع دول فيها حكومات تابعة للإمبريالية الأميركية.

ـ ستكون بوليڤيا مركز الأحداث. تدور الآن معارك في البيرو. وستزود بالدعم والمقاتلين من هناك. ولدينا في تشيلي أصدقاء كثيرون. أما في الأرجنتين فقد نشط عمل الفدائيين. توجد الآن بروليتاريا تتمتع بمزاج ثوري، رغم صغر حجمها، تتشكل أساساً من عمال مناجم الفحم، الذين يملكون، ميليشيا خاصة، وهم مسلحون بشكل جزئي. أنا آمل في أن يلعب نضالنا دوراً في توطيد وحدة ثوار البلدان المختلفة.

ابتسم توما ابتسامة عريضة. لقد كان فرحاً بهذه المهمة، وفخوراً في القتال إلى جانب رفاقه في هذه المجموعة.

لم يُبدِ سائقو سيارات الأجرة الذين يقفون أمام فندق «هافانا ليبره» أي اهتمام بذاك الرجل ذي البزّة الصيفية والوجه الحليق الناعم. فلو حكموا عليه من خلال طريقة سيره لوجدوا أنه يعاني من صعوبة في المسير. لقد تعود على حمل الأثقال وعلى لبس الأحذية الكبيرة. كان يشعر بهذا اللباس غير المعتاد عليه كأنه عار. ألقى نظرة إلى المقالة الكبيرة. أية حياة يحيا البلاي بوي الأميركي. زجاج، ضوء، مرمر وأزهار. اقترب من الموظفة الطويلة ببطء، وطالب مفتاح غرفته:

ـ لكم رسالة هنا سنيور غونايس.

ـ عادت الموظفة وهي تنظر متفحصة بالرسالة:

ـ سنيور أدولفو ميناغونايس.

ـ نعم، هذا أنا.

ـ أية مساعدة؟

ـ شكراً لا داعي.

توجه غونايس إلى السلم العريض الذي يستوعب عدة أشخاص

جنباً إلى جنب، لقد بنوه آخذين بعين الاعتبار رجال الأعمال الأجانب، كي يخلق عندهم شعوراً بـ «العالم العظيم والكبير».

سار خلفه رجلان، تناهى إلى مسامعه حديثهما:

ـ هذا هو آخر فندق بناه اليانكي في هافانا. كان اسمه «هلتون». لكن زعران كاسترو فضلوا تسميته «هافانا ليبره». يا للوقاحة.

ـ سمعت أنه كان يوجد فيه طقم من أواني الطعام من الفضة الخالص. رسم عليه رسم «هلتون». فإذا لم يسرقه ذاك المشاغب الملتحي، فمن المحتمل أن يكونوا قد أعادوا تصنيعه وباعوه للروس.

ـ يا للشيطان!

توجه غونايس إلى البار في الطابق الثاني. كان العامل يقف في زاوية البار خلف طاولة كبيرة يصنع الكوكتيل بخفَّة كبيرة. جلس في مكان يتيح له مراقبة المسبح. وكان يجلس إلى جانبه وسيطان تجاريان من المكسيك والأرجنتين، لقد عرفهما من لهجتيهما. طلب كأساً من الكوكتيل، ثم أشعل سيجاراً طويلاً، وأطلق العنان لانطباعاته: شراب بارد، جو منعش، أناس في المسبح، حركة عامل البار سريعة، حديث الوسيطين التجاريين.

ـ لن تقدر وحدك على هذا الشاب الأرعن غيڤارا.

ـ حقاً، على فكرة، إنه من بلدك.

ـ أتعرف عنه شيئاً آخر؟ لم يره أحد منه مدة.

شعر غيڤارا أن الاستماع إلى هذا الحديث ممتع. صحَّح مكان ربطة العنق التي تضايقه، وأصغى:

ـ لقد اختفى منذ أواسط نيسان عام 1965. لدي معارف في وزارته، وهم أيضاً لم يروه منذ مدة. تدور إشاعات أنه اختلف مع فيدل فقرر الأخير إبعاده.

ـ لقد سمعت من مصادر موثوقة أنه مجنون، وهو الآن في مستشفى الأمراض العقلية في المكسيك. لقد قال لي ذلك أحد الصحفيين، وهو يعمل على كتابة تحقيق مطول عنه. وأخبرني أن هناك احتمالاً كبيراً أن يكون السوفيات قد أبعدوه إلى سيبيريا بقصد عزله نهائياً، ولم يعد أحد يراه في المستشفى.

ـ أتعتقد حقاً أنه مجنون؟ كان لدي انطباع دائم أنه قابل لمثل هذا المرض. لقد أخبروني شيئاً آخر عنه، شبيه بذلك وغير مستبعد عنه. علمت أنه غادر إلى اسبانيا متخفياً على هيئة راهب لأن الثورة في كوبا تسير على غير هواه! أما تاجر الأورغواي المدعو أدولفوا غونايس فقد ابتسم بهدوء، وأكثر من شرب الكوكتيل، ثم حلّق في تفكيره.

لم يعرفه أحد، فالتخفّي كان ممتازاً. حتى ابنته الصغيرة لم تقبل تقبيله لها عند الوداع. وصرخت قائلة:

ـ ماما، ماما، ماذا يريد هذا العجوز؟ يريد أن يقبلني!

لم يعرفه أحد لا في شوارع هافانا، ولا في الفندق. فقرر البقاء أسبوعاً آخر في الفندق تحت اسم غونايس، ومن ثم يسافر إلى أوروبا.

دفع ثمن الكوكتيل وخرج من البار. وفي غرفته شغّل المكيّف، واستلقى على السرير: «فقد عقله، يعيش في المكسيك، منفيّ إلى سيبيريا، غادر إلى إسبانيا على هيئة راهب. يبدو أنهم نسوا شيئاً آخر ما قالته إذاعة اليانكي، من أنني مت في الدومينيكان. لكن أكثر شيء أعجبهم هو قصة مستشفى المجانين. حتى أن بعض الرفاق القدامى صدقوا هذا الكذب. ما الذي أصابهم، ألم يفهموا بعد أن المبدأ الأساسي للثورة هو السرية؟ وأنه ليس بإمكاني أن أخبرهم بذلك. سأتابع في الصحف كل خطوة أخطوها كي يتأكد الجميع أنني ما زلت على قيد الحياة وأنني لم أجنّ بعد. لكنهم سوف يعلمون عما قريب أين سيخطو الشيخ تشي».

بدأت الأخبار تصل عن إرنستو تشي غيفارا أنه موجود في الغابات مع كوبيين وعدة كتائب مسلحة من الفيتناميين الذين يتمتعون بخبرات قتالية. وكانت ردة الفعل عند رئيس بوليفيا «لا أصدق هذا الكلام، وأنا متأكد من أن تشيء غيفارا ومعه كاميلو ستيفوغوس وآخرين من صحايا كاسترو قد أصبحوا في العالم الآخر». أما ردة فعل الصحف فكانت:

«إن الشخص الذي يعمل مع الفدائيين هو شحص يحمل اسم ارنستو تشي غيفارا، أما تشي الحقيقي فقد قتل في كوبا». وكتبت إحدى الصحف تقول: «لا يمكن أن يكون في بوليفيا لأنه معتقل في الاتحاد السوفياتي».

ـ لماذا يكتبون هكذا؟ تساءل كوكو، فهم يعلمون أنك هنا. لقد توقعت أن يحاولوا الاستفادة من وجودك هنا، إذ يمكنهم بسهولة اعتبار ذلك تدخلاً في شؤون بوليفيا الداخلية.

قبل أن يرد تشي بدأ إنتي بالاجابة عنه:

ـ لقد أصبح الكوميندان رمزاً للنضال من أجل حرية أميركا اللاتينية. فهم يخافون أن تلتحق الجماهير بتشي، بعد أن انتشرت الأخبار عن الثورة الكوبية، والناس تعرف تشي وتحبّه.

عبأ تشي غليونه، ثم قال:

ـ عمال مناجم الفحم مسلحون، وأنشأوا ميليشيا خاصة بهم، ولديهم قنابل من الديناميت، وهم مدرّبون على استخدامها. والبلد تعصف بالأحداث، لذلك لا ترغب الحكومة في أن تضيف إلى ذلك حديثاً عن وجودي هنا. فهم يريدون تصوير القضية مجرد إضرابات في بعض المناطق. وليس من مصلحتهم الإعلان عن مدى نفوذ المقاومة. فعلينا أن نوجه لهم عدداً من الهزائم في أسرع وقت ممكن، بحيث يصعب عليهم إخفاؤها، مما يعطي النضال في المدن دفعاً جديداً.

لم تؤثر لسعات البعوض في يوم من الأيام على أعصاب تشي كما هي اليوم. مسح وجهه ويديه، وجلس توما على العشب قريباً منه. كان تشي يعلم غضب توما من وضعه إذ لم يتسنّ له بعد أن يشارك في المعارك، لأنه كان يوجه له الأوامر لحراسة المعسكر.

أخذ توما بندقيته، وبدأ بتنظيفها بشكل استعراضي، وهو ينظر إلى تشي بطرف عينيه ويتكلم بصوت عال حتى يسمعه تشي: «سأنظفك اليوم يا بندقيتي كما سأنظفك في المستقبل. وعندما تنتهي الحرب سأقول إنني قاتلت بك. رغم أن هذا غير صحيح، ثم أضعك في المتحف».

لم ينفعل تشي من كلمات توما. وكان يشعر بتعب غريب. لقد كان في وضع لا يسمح له بالكلام، ولا حتى في النهوض من مكانه. شعر توما أن وضع قائده ليس طبيعياً، فاقترب منه:

ـ هيه، تشي، ما بك؟ لم أنت حزين هكذا؟ هل هذا من تأثير الحرب؟ يبدو أنك عجوز لا تصلح كفدائي. كان عليك أن تجد لنفسك عملاً ما أكثر راحة. لماذا لم تبق وزيراً للصناعة؟ أنا أعرف أناساً كثيرين على استعداد للقتال من أجل هذا المنصب.

أخذ تشي نفساً عميقاً وانقلب على جنبه ثم مدّد رجليه. فهو الآن لا يشبه الدكتور غونايس بشيء. ويمكنه أن يعترف لنفسه أنه تشي القديم. لقد استرسل شعره على كتفيه، وأصبحت لحيته ذكرى لسنوات النضال التي مرّت، لكن كان يبدو عليه التعب والمرض والارهاق أكثر من أي وقت مضى. بلل توما منديله بماء بارد، ومسح به وجه تشي.

فتح شفاهه شاكراً توما:

ـ إنها نوبة مفاجئة من التعب لا أكثر. لا عليك يا توما. حدثني عن أي شيء حدثني عن نفسك.

شعر توما بالسعادة لهذا الاقتراح. فاحتضن بندقيته، وراح ناظراه يحدقان في الغابة الموحشة التي تنبت فيها أزهار رائعة.

ـ يمكنك أن تفتح عينيك مطمئناً، فأنا على أهبة الاستعداد لأي طارىء، استرخ. إنك تستحق ذلك. أتعرف كم كان عمري حينما بدأت العمل مع الأنصار في كوبا؟

هزّ تشي رأسه. كانت حركته مرتخية، فلم يكن يرغب في سماع الأسئلة للإجابة عنها. بل كن يريد الاستماع فقط. فهم توما ذلك، واسترسل:

ـ كان لي من العمر سبعة عشر عاماً عندما هربت من البيت لألتحق بالأنصار. لكنكم رفضتم مشاركتي.

ابتسم تشي، فقد كان يذكر هذا الموقف جيداً.

قلتم لي إن من يريد الالتحاق بالجيش الثوري عليه أن يكون حائزاً على سلاح. وأغلب الظن أنكم أردتم أن تتخلصوا مني. لكنني عدت ومعي مسدس. حصلت عليه كما يحدث في أفلام الكاوبوي. لقد هاجمت مع بعض الأصدقاء بيت أحد الجيران، بعد أن غطينا وجوهنا حتى الأنف كما تفعل العصابات الحقيقية. وكلما تذكرت ذلك أفرط بالضحك. وعندما تمت الموافقة على انضمامي إلى فرقتكم لا تتخيل كم كنت فخوراً بذلك. فما الذي يمكن أن يكون أروع من تحرير سانتا كلارا، وأنا سعيد الآن لأنني سأدخل بصحبتك إلى لاباز محرراً. لقد كنت بالنسبة لي كالأب. كنت أحاول أن أكون بقربك دائماً، ووددت لو داهمنا الموت معاً، وربما يحدث ذلك قريباً، هل يمكننا أن ننفي هكذا احتمال؟

لم يتأثر تشي بهذا الكلام، لكن، استمر توما بحديثه:

ـ لقد وافقت على القتال في بوليفيا فوراً رغم أن زوجتي ستضع قريباً، وربما أكون الآن أباً. عندما تنجز مهمتنا سأعود إلى كوبا لرؤية طفلي. إنه ولد أكيد، وأنا مستعد للرهان على ذلك؟

وربما أكون حارسك من جديد. لقد جئت من كوبا إلى بوليڤيا عبر أوروبا بجواز سفر اكوادوري. دخلت النادي الليلي، وكانت سهرة مسائية مجنونة. اشتركت بها وأصبحت ملك التويست. هه، ما بك، أأنت نائم؟

سمع الثوار أصواتاً مشبوهة. أمسك توما ببندقيته في وضعية الاستعداد، تقدم إلى الأمام مراقباً السماء. بالفعل، إنها الطائرات من جديد. ها هي تحلق فوق رؤوسهم منذ عدة أيام. وظهورها من جديد مقدمة لمصيبة.

ـ إنها فوقنا من جديد!

ـ لا عليك. لن يكتشفوا أمرنا، فنحن تحت الشجرة. أتمنى أن لا يكونوا قد اكتشفوا أمر الباقين.

سمعوا طلقات بنادق وانفجارات قنابل من بعيد.

ـ إنهم يقذفون قنابلهم على بعد اثنين أو ثلاثة كيلو مترات من هنا. لا أعتقد أن رفاقنا هناك. إنهم يطلقون النار عشوائياً.

بعد لحظات أخذ الرفاق مواقعهم، وأصدر تشي أمراً للجميع بالصعود إلى الهضبة كي يراقبوا حركة الجنود من هناك. ومن على قمة الهضبة شاهدوا البحيرة ذات الجمال السحري، ورأوا الجنود الذين اتخذوا مواقعهم على شواطئها وهم يطلقون النار إلى الجهة المقابلة.

في المساء، عثروا على منزل مهجور. فباشروا بتحضير الطعام من الدجاج والأرز. إنه عشاء ملوكي في تلك الظروف.

استمعوا إلى نشرة الأخبار الإذاعية، فإذا بالقوات المسلحة تقصف قواعد الأنصار وتلحق بهم أفدح الخسائر. ضحكوا من أعماقهم، ثم أخذوا يتبادلون النكات عن الجيش الرسمي. أما تشي فكان يجلس وحده في زاوية الغرفة دون أن يتكلم. كان يشعر كأنه غائب.

في اليوم التالي عند الفجر، كانت المجموعة تستعد للهجوم. فجأة، لاح تشي في الهواء كالمصاب وسقط أرضاً، لقد جاءته النوبة. أخذ يتقلب على الأرض من الألم. فأسرع إليه كوكو ثم لحقه توما: «المعدة، أعطوني الدواء، همس تشي». ثم أخذته النوبة من جديد، وانتهى كل شيء من أمامه. وضع أحدهم الدواء في فمه، بعد لحظات أخذ وعيه يعود إليه.

فتح عينيه، فشاهد أوراق الأشجار فوقه ثم نظر إلى السماء. لقد شعر بتحسن حالته. لكن ملابسه التصقت بجسمه، ولم يكن هناك ماء، ولم يكن يعرف متى سيستحم.

أحضر له الرفاق البلاغ رقم 36، قرأه، لكنه لم يشعر بشي يدعو إلى الفرح.

ـ أنا أعتقد أننا نواجه أنفسنا في الوقت الحاضر ليس أكثر، قال ذلك ضارباً أوراق الشجرة.

تقلب تشي في مكانه، لكنه لم يتمكن من النوم. عندها أخذ الترانزيستور وبدأ يبحث عن أية محطة أرجنتينية. بعد التعليق الإخباري المختص بالسياسة الداخلية نقلوا خبراً من عاصمة بوليڤيا: «نقلت وكالة الأنباء من لاباز أن عدداً من عمال المناجم السكارى، يحملون بنادق وقنابل من الديناميت قاموا بمهاجمة الجيش البوليڤي عند الفجر في منطقة «سجوا»، مما أدى إلى مقتل ضابط وجندي. وقام الجيش بتعزيز مواقعه، وتفيد آخر المعلومات أن عمال المناجم فقدوا سبعة وثمانين شخصاً بين قتيل وجريح».

بعد دعاية تجارية لدواء «منجرال» (ينهي آلام الرأس بسرعة)، عادت الإذاعة إلى بث التانغو. استمع إلى النغمات الأولى، ثم أخذ يبحث عن إذاعة بوليڤيا، لكنهم لم يتحدثوا عن هذه العملية في نشرة الأخبار. فاجتاحه التفاؤل من جديد، لكنه كان يشعر بالوحدة. ما الذي جرى هناك، حتى يتصدى الجيش لهم بهذه

القسوة؟ ما هي ردة فعل عمال المناجم؟ هل سيهادنون المجزرة؟ إن لهم في ذلك خبرة، ففي عام 1952 تمكنوا من الإطاحة بالحكم.

فكر في إمكانية توجيه نداء إلى عمال المناجم. يجب تحليل الوضع، وتوضيح العلاقة بين نضال العمال وعمليات الأنصار. على العمال أن ينتزعوا السلطة وإلا حصل لهم ما حصل عام 1952. عندها لن يأخذوا السلطة، بل ينظرون إلى نضالاتهم تتبخّر.

لا يمكن أن تنفي أهمية نضالات الأنصار، فقد هزّت البلد. وبدأ الجنود بالفرار من الجيش. لكن ماذا يجري في المناجم؟ هل يصل عمال المناجم إلى هدفهم عبر معارك المتاريس؟ فهذه المعارك بطولية، لكنها لن تؤدي إلى أية نتيجة.

نظر إلى النداءات السابقة: «أيها العمال في المناجم، لا تستمعوا إلى مروّجي النضال الجماهيري، فلا يقدر على هذا النضال سوى مقاتلي الأنصار، الذين يهاجمون العدو باستمرار، ويثبطون من عزيمته وصولاً إلى هزيمته نهائياً. لذلك يجب الضغط على الحكومة بالوسائل السياسية. لكن الضغط العسكري لا يمكن له أن يكون بالنشاطات الجماهيرية غير المنظمة، إنما من خلال عمل الأنصار فقط».

أخرج تشي مصباح الجيب وأدوات الكتابة من الحقيبة، وبدأ بكتابة نداء إلى العمال أنهاه بالكلمات التالية:

«أيها الرفيق ـ عامل المنجم، فدائيو جيش التحرير الوطني ينتظرونك. لقد أعدنا تحالف العمال والفلاحين الذي حُطِّم. فلنحوّل الهزيمة إلى نصر. نحن بانتظارك».

مرّت عدة أيام حتى علم تشي بما جرى في المناجم، وبقي حتى ساعة متأخرة من الليل يحلل هذه الأخبار. كان يحاول فهم

جوهرها. لكنه لم يتمكن من معرفة سبب فشل الإضراب. كانت لديهم محطة إذاعة، ومنطقة المناجم تعتبر محررة ورغم ذلك... لقد ضحوا بأجرة يوم تلبية لنداء الأنصار. مسح وجهه بكفه. لم يكن يتفهم كيف دارت الأحداث. لقد استولى الجنود على مقرّ النقابات والإذاعة، وانتهى كل شيء بشكل دموي. أما الآن فمن المفروض أن يعمّ الحقد على السلطة بين عمال المناجم.

لقد أطلق الجنود النار على النساء والأطفال. وعمال المناجم لا يزالون مسلحين. فلماذا لا يقاتلون الآن؟ لقد أعلنوا أنهم يرغبون في القتال إلى جانب الأنصار. لماذا تحول نضالهم إلى خمول لامبال؟ ما الذي تقوم به المنظمات السياسية؟

لم يعرف تشي النوم في تلك الليلة. لقد حاول الإجابة عن تساؤلاته من خلال المعلومات المتوفرة لديه. أثناء النضال في كوبا كان لهم تنظيم واسع، لم يشكل مركز استقطاب للمناضلين فحسب، بل كان يزودهم بالمقاتلين أيضاً. وهذا التنظيم كان يقوم بالنضالات السياسية، وفي الوقت نفسه كان يمارس العمل المسلح. كان الشعب الكوبي خلفه، مما ساعد على القيام بالنضالين السياسي والمسلح.

لقد خطط هنا بالطريقة نفسها. لقد سعى الأنصار إلى العمل مع المنظمات اليسارية في جبهة واحدة. ومن الضروري تنسيق نضالات عمال المناجم مع النضال السياسي في المدن.

عندما تم التحضير بدا وكأن كل شيء سيؤول إلى النجاح. لكن، حتى الآن لم ينفذ إلا القليل. ربما تكون القضية قضية وقت. وهذا ما يتمناه. لكم كان يريد في تلك الليلة أن يكون مئة شخص تحت قيادته حتى يتمكن من تكثيف الكفاح ولكن هناك وقت كافٍ حتى ينشغل بأمور أخرى.

داهم النوم إنيسيتو ولويس أثناء الحراسة. الحر، المسيرات الطويلة والمنهكة، البعوض...

ـ سبعة أيام مناوبة في المطبخ! قال تشي معاقباً الحارسين.

أخفض المذنبان رأسيهما. كانا يعلمان أن خطأهما في ظروف الحرب الأنصارية يعرّض حياة المقاتلين جميعاً للخطر. لذلك كانت عقوبتهما مخففة جداً. إذ لم يكن من المستبعد على تشي أن يأمر باطلاق النار عليهما.

أكمل تشي العقاب:

ـ ويوم من دون لحم الخنزير المشوي أو المقلي.

لقد ازدادت العقوبة قساوة. ثم أخذ يجمع أفكاره دون أن يعطيهما أي اهتمام، وتناول دفتر مذكراته.

أصبح له من العمر تسعة وثلاثون عاماً. أما عن مستقبله فلم يكن يفكر إلا كفدائي. فهو في الوقت الحالي فدائي روحاً وجسداً. استجمع نتائج العمل في الأسابيع الأخيرة، فوصل إلى نتيجة مؤداها أن نظام بوليڤيا يهتز من جراء نشاط مجموعته الصغيرة. كانت الولايات المتحدة تزيد من مساعدتها للحكومة. ولم يسبق له أن أدرك بهذا الوضوح كيف يمكن للنضال الفدائي أن يشكل حافزاً. هذا الشيء كان ينقصهم، إنه دعم العمال والفلاحين. ففي بداية عملهم في بوليڤيا كانوا معزولين بشكل كامل تقريباً.

قطع لويس حبل أفكاره وأخبره أن بعض المقاتلين يشكون من آلام في الأسنان، ويريدون المعالجة. «من يعاني من آلام الأسنان، لا يستطيع القتال الجيد»، أومأ تشي برأسه واضعاً دفتر مذكراته في الحقيبة. كان يعرف أنه طبيب أسنان سيء. لكن، سبق له أن تدرب على مماسة هذه المهنة، وخفف بعض الألام عن الرفاق. وهو مضطر الآن لممارستها من جديد. لقد استسلم

لذلك، فهو سيمارس خلع الأسنان من جديد. ولحسن الحظ هذه المرّة أن وسائل العلاج متوفرة. مرّ في ذاكرته موقف، كان قد حدث له في كوبا عندما لم يتمكن من تخفيف الآلام إلا بعد الصراخ. وانشغل تشي ليومين متتالين بخلع الأسنان.

تعهد باولينو بنقل المعلومات من المدينة وإجراء الاتصالات معها. لقد أصرّ عليه تشي أن يرسل إلى زوجة إنتي أن خبر مقتل زوجها كذب ودعاية. وفي الوقت نفسه كان يريد إرسال تقرير إلى فيدل. يجب استمرار الاتصال مع كوبا مهما كلّف الأمر.

فجأة، لعلع الرصاص في مكان قريب. يجب تغيير بعض المقاتلين الموجودين في الكمين. فما كان من تشي إلا أن قفز إلى بغله، إذ كان عليه أن يصل إلى مكان المعركة في أقرب وقت ممكن.

وما إن وصل إلى هناك حتى كان الهدوء يخيم على المنطقة. أربعة من جنود العدو قتلى. الآن يمكن انتزاع أسلحتهم بسهولة. لكن تشي صرخ:

ـ نحن لا نعلم أين يختبىء العدو. سنأخذ الأسلحة عندما يخيّم الظلام.

احتل المقاتلون موقعهم في الغابة، وأخذوا يراقبون النهر.

سمعوا صوتاً يشبه اهتزاز أغصان الأشجار. حاول أحدهم أن يطلق النار، لكن تشي منعه: «لا تطلق النار إلا إذا ظهر العدو».

فجأة، وصل الرفاق انطونيو وباكو.

ـ أيها الرفاق، لولا... لكنتما صرعى الآن.

في هذه اللحظة بدأ العدو باطلاق النار عليهم، فردوا عليه. لم تكن هذه المعركة تتوافق مع أسس الحرب الأنصارية. لأن على الفدائي أن يكون المهاجم دائماً. لذلك، حاول تشي تفادي المعركة. لم يعرفوا من أين تطلق عليهم النار، وبالتالي كان ردهم

عشوائياً ومستهلكاً للذخيرة. فهم لم يحددوا مكان المعركة وزمانها: «يجب أن ننسحب ـ أمر تشي ـ فلنتراجع!». لكن، لم يسمع الجميع الأمر: واستمر المتحمسون باطلاق النار. مما أثار حفيظة تشي لتأخر وقت الانسحاب.

علموا أنه سقط بينهم عدد من الجرحى، فتحول تشي إلى طبيب، وكان طبيب آخر من البيرو على استعداد لتقديم المساعدة. كان جرح بومبو بسيطاً، لقد أصيب برجله، مما يعيقه في المسيرات التالية. لكن، لا يزال في حوزتهم بعض البغال والخيول.

ها هما رفيقان يحملان صديق تشي القديم، توما. كان الموت يطبق على وجهه. اهتز تشي لأنه توما بالذات، إذ لم يكن يتخيل كيف سيكون القتال من دونه.

ـ يجب القيام بعملية جراحية سريعة.

أخذوا توما إلى البيت والدم ينزف من بطنه. أمسك بيد تشي، فشعر أنه لا يزال قوياً من مسكة يده.

ـ تشي كوميندان، خذ ساعتي!

لا، أنت ستعيش. أم أنك لا تثق بي كطبيب!

حاول توما أن يبتسم:

ـ خذ ساعتي.

فهم تشي هذه الإشارة. لأن الكثير من الرفاق كانوا يسلّمون ساعاتهم عندما يشارفون على الموت، كي تبقى ذكرى لزوجاتهم وأطفالهم أو والديهم. لم يرغب تشي في حرمانه من شجاعته. رفض أخذ الساعة، رغم علمه أن حظ توما من العيش ضعيف.

ـ انزع ساعتي يا تشي. أنا أعرف أن النهاية اقتربت. أنت طبيب ولست ساحراً. اعطها لطفلي، أنا لم أره. أخبره أن والده كان ثورياً، والثورة أهم ما في الوجود، وأن...

ـ اصمت! ستعيش ونكمل نضالنا معاً. لا يزال أمامنا الكثير: البيرو، الأرجنتين، فنزويلا، غواتيمالا.

هزّ توما رأسه، خلع ساعته بنفسه، وقدمها لتشي. إنها الذكرى الأخيرة. تناولها تشي بصمت، ونظر إلى صديقه فرأى الرصاصة قد مزقت كبده. لفّه الحزن على خسارة صديق لا يبدّل. اجتاحه هذا الشعور الذي شل أعصابه، وأنساه نوبة الربو.

رأى توما الحزن على وجه صديقه، فحاول أن يمزح:

ـ لكم قلت دائماً إنهم لن يستطيعوا قتلي برصاصة صغيرة.

مات توما خلال العملية الجراحية.

خرج تشي من البيت، والظلمة تغطي عينيه. كان يخاف أن يغرق في الحزن فشد الساعة على يده، وقال محدثاً نفسه:

ـ سأحملها طيلة أيام النضال، حتى تحرير كامل بوليڤيا.

تتالت الضربات على تشي. وقع فواكيم ومجموعته في كمين. لقد استشهد مع تانيا، النجيرو، برادليو، اليخاندرو، مريسيس، فولتير، تورو ومايمورا.

لقد هزّه موت تانيا بشكل خاص. في الأهمية عملها في بوليڤيا. كانت مرحة جداً، وذات إرادة نحو الحياة لا تقهر. طلقات كثيرة اخترقت جسدها أثناء تسللها عبر النهر.

وما إن عاد إلى نفسه حتى وصله نبأ استشهاد كوكو وميغيل وخوليو.

جلس فيللي على صخرة إلى جانب تشي:

ـ كل شيء يسير باعوجاج والتواء يا كوميندان. لقد خسرنا أفضل مقاتلينا. والاتصال بالفلاحين يتم بصعوبة بالغة. وعدد المجموعة لا يزداد. وفي هذه المنطقة يوجد بحسب معلومات الاستطلاع ما لا يقل على ألفي جندي من القوات الحكومية. هذا يعني أننا محاصرون.

عبأ تشي غليونه، كان التعب يلتهم وجهه، وعيناه تحولتا إلى ثقبين غائرين:

ـ في كوبا كنا في حصار دائم، قال تشي، كان البحر وراءنا والسهول وحقول الأرز من أمامنا. وكنا نتنقل في منطقة تبلغ ستة أميال طولاً وعرضاً. أما هنا فالوضع أفضل من كوبا بكثير.

نظر إليه فيللي دون أن يفهم شيئاً.

ـ في تلك المنطقة اللعينة التي سموها بذلك الاسم الناجح «اليجريا ـ دي ـ بيو» (السعادة الخالدة)، أحاطنا جنود باتيستا دون أن يكون لنا مخرج واحد يومها جرحت وتفرقت المجموعة، واستشهد خمسة وعشرون رفيقاً، ولم يبق سوى خمسة عشر مقاتلاً وصلوا إلى سييرا بسلام. خمسة عشر! رغم ذلك دخلنا العاصمة منتصرين بعد سنتين، وكان كل شيء أصعب من هنا، ولم نكن نتمتع بخبرة قتالية، أما هنا في بوليڤيا فنحن ننام بهدوء لأول مرة في حياتنا النضالية. نحن ننطلق من أن النضال سيكون طويل الأمد، وسيكون لنا دعم عالمي. لقد تحولت معركتنا الأولى في كوبا إلى حادث مريع للجيش. لقد برهنّا على إمكان الانتصار على صانعي اليانكي. و ـ أضاف تشي ـ وحتى لو استشهدنا في أول معركة، فهل يعني ذلك أن رؤيتنا للنضال غير صحيحة؟

في هذا الوقت وصل بنيخنو راكضاً:

كوميندان! منطقتنا محاصرة. أخاف من أن نكون بين فكّي كماشة.

لم تكن طبيعة المنطقة مؤاتية للمعركة. لم تكن هناك نباتات، والأحجار صغيرة، والأشجار متفرقة، ولا تصلح أن تكون مكاناً لكمين أو للثبات. ولو أنهم بقوا في هذا المكان لسهل اكتشافهم من قبل العدو. لكن، كانت توجدبعض الأشجار على ضفاف نهر صغير في المنخفض.

ـ علينا الوصول إلى تلك الأشجار! والاستمرار بمراقبة العدو حتى ننسحب إلى حافة النهر، ونكمن هناك.

نفذت أوامر تشي من دون تأخير. وما إن كمنوا عند الأشجار، حتى سمعت الشتائم من تشي. لقد كان مخزن مسدسه فارغاً. فربما يتمكن اليوم من انتزاع سلاح جديد! على كل حال هذا ليس مستحيلاً.

جاء خبر جديد: «جنود العدو يتقدمون إلى التلال المحيطة بالمنخفض، ويحاولون خنقنا». أمر تشي بالحفاظ على ضبط النفس.

ـ الوضع ليس حرجاً حتى الآن. وإذا بدأ الجنود هجومهم قبل الليل، بإمكاننا تحمل نيرانهم حتى يحل الظلام، ثم نبقي على مجموعة هنا لإعاقة تقدمهم، ويتسلل الباقون إلى ريو ـ غراندي.

تطوع إنتي وبومبو لإعاقة تقدم العدو كي يتمكن رفاقهم من فك الحصار. اكتشف العدو موقعهم فصب عليه نيران بنادقه ورشاشاته المتوسطة. ورد الثوار على النار من بنادقهم الأتوماتيكية.

بعد دقائق وقع جندیان من العدو صريعين، وجرح آخر. مما أثر على معنويات البقية، فتراجعوا.

ـ سنحقق ما نُريده ـ قال إنتي بفرح ـ سنعيقهم هنا. موقعنا ليس سيئاً.

فكّر تشي قليلاً، إذ لم يكن القرار سهلاً. فإنني وبومبو من أكثر مقاتليه بأساً وقدرة. والمجموعة خسرت الكثير في الأيام الأخيرة. فهل يمكنه إبقاء أفضل مقاتليه هنا، من أجل إعاقة تقدم العدو؟ لكن، من جهة ثانية، هناك إمكانية للخروج من هذا الكمين.

ـ كوميندان، أخرج المجموعة من هذا الفخ. نبقى هنا أنا وبومبو.

وعندما يحل الظلام نخرج نحن ونلحق بكم.

وافق تشي، واتفقوا على مكان اللقاء فيما بعد:

ـ من على استعداد للبقاء مع مجموعة التغطية أيضاً؟ وافق كل من أوريانو وبينغو المجروح في كتفه، وداريو، وناتو إرنستو. احتلوا مواقعهم مباشرة. أما تشي والبقية فقد توجهوا للتسلل إلى خارج الحصار.

كانوا يركضون باتجاه دائرة الحصار بشكل مباشر. لكن، أدرك تشي الخطر بشكل متأخر، ولا مجال للتراجع.

ـ ابحثوا عن مكان للتمركز! تموّهوا واحداً واحداً! علينا الانتظار حتى حلول الظلام! قال تشي وهو يصرخ ويطلق النار على العدو. لكن لم يكن هناك مجال للاختفاء. بل حصل العكس، إذ كان جنود العدو غير مرئيين.

لم يعد تشي يرى رفاقه، لكنه يسمع فقط لعلعة الرصاص من المنخفض. فعلى ما يبدو لا يزال الرفاق يحتفظون بمواقعهم. حاول أن يحتمي بين الصخور. وقف مرتكزاً إلى صخرة، فهو يضمن بذلك أنهم لن يهاجموه من الخلف. لم يكن يعترف بعد أنه مهزوم. ألقى نظرة على الاحتياط من الطلقات، ثم جال نظره باحثاً عن العدو غير المرئي.

التصق بالصخرة أكثر، لأن الرشاش يطلق باتجاهه مباشرة.

ـ لا أقوى على الحراك. الخنازير اللعينة! صرخ إلتشينو بذلك وهو يطلق ناراً حاقدة باتجاه العدو.

لمح تشي خوذة أحد الجنود، فصوب نحوه بهدوء، مطلقاً رصاصة واحدة. سقط الجندي على الأرض ككيس فارغ. كان يريد أن يصل إلى إلتشينو، ليضمد جراحه. عند الضرورة سيحمي نفسه بنفسه باطلاق النار للتغطية. بدأ الجنود بقذف القنابل. فما كان من فيللي إلا أن فتح النار على المهاجمين:

اقتصد بالرصاص! صرخ تشي ـ غطّ لي كي أصل إلى إلتشينو.

أومأ فيللي بصمت، وعاد إلى اطلاق النار من جديد. حاول تشي أن يجري، لكنه تمايل وسقط أرضاً. وأحس بالشرر يتطاير من عينيه. لقد استقرت الرصاصة في العضل.

ضمّد تشي رجله، وشعر بدوار نتيجة النزيف. كان فيللي في هذه الأثناء يرمي على موقع المدفعية الخفيفة.

لم يستطع تشي الوصول إلى إلتشينو، بل كان بإمكانه المحافظة على موقعه فقط. لم يكن يشعر بالوقت. وربما مرّت عدة ساعات.

كان مطمئناً لأن لديه من الطلقات ما يكفي حتى حلول الظلام. فجأة، سقطت شظية حطمت بندقيته. ألقى بها بصورة غريزية، وتنازل الريفولفير الموجود على خصارته. لكنه كان خالياً من الرصاص. فأصبح الآن أعزل. حاول إعادة تضميد جرحه من جديد كي يتسنى له القفز إلى موقع آخر.

ـ هل جرحك صعب يا كوميندان؟

ـ إذا اعتمدت عليك بإمكاننا الخروج من هنا. لقد خسرت بندقيتي.

كانت الضمادة جاهزة في يده عندما بدأ جنود العدو هجومهم باتجاه الفدائيين. فصب فيللي نيرانه عليهم وأفرغ كل ما في مخزنه.

كان تشي يهتز من نوبة السعال التي داهمته. فالربو سيحطمه. نظر إلى البنادق المصوبة نحوه بإعياء. لقد أحاطت به مجموعة من الجنود.

ـ لقد أسرنا اثنين!

هرع الضابط، ولم يكن يعرف تشي، فسأله:

ـ مَن أنت؟

ـ أنا الكوميندان تشي.

ـ إياك أن تقوم بأية حركة! قال الكابتن.

كانت المعركة لا تزال دائرة على مقربة منهم. سمع في البداية أصوات المدافع والرشاشات، ثم بعدها صوت بنادق الفدائيين. فابتسم، لا تزال مجموعة التغطية تقاتلَ. إنهم من أروع المقاتلين، ولا يذهب رصاصهم سدى.

كان تشي يحتاج إلى كسب الوقت.

ـ لقد أصبت برجلي اليمنى. وأطلب إحضار الطبيب.

كانت قيادة الجيش تعلم أن تشي كان يقدم المساعدة الطبية للأسرى الذين وقعوا بين أيدي الثوار في المعارك السابقة. لكن الكابتن لم يتصرف على هذا النحو. نظر إلى جرح تشي، وصرخ:

ـ لا شيء يخيف. تحمَّل. لا شيء يخيف يا إرنستو تشي غيفارا!

ابتسم تشي لأنه لم يكن ينتظر رحمة من هؤلاء الأوغاد.

قام الضابط باجراء اتصال عبر اللاسلكي بقيادته الميدانية:

«توشي يتكلم، بابا عندي، حوّل».

ساتورن يتكلم. اعطني توشي حتى أتأكد من أن بابا عنده، حوّل».

«ألو، ساتورن! ارسلوا طائرة بأسرع وقت ممكن. ليس مستبعداً أن يهاجمونا، حوّل».

ستكون الطائرة في طرفكم خلال عشرين دقيقة، حوّل».

ـ لم يجمع الجنود هذا الحطب؟ تساءل فيللي.

ـ على ما يبدو أنهم يريدون إعطاء إشارة إلى الطائرة. إنهم خائفون بالفعل. ومنظرهم يثير الضحك. نحن عزّل من السلاح، جريحان، ويضعون مئة رجل لحراسة كل واحد منا. وبالرغم من ذلك يخافون منا.

سمعوا صوت الطائرة القادمة إلى المنطقة. فجأة اندفعت باتجاهها نيران كثيفة. فعادت الطائرة وغيّرت اتجاهها.

أخذ تشي يراقب محاولة هبوطها الثانية بفضول كبير. ثم جاءتها صليات جديدة أجبرتها على الابتعاد مرة ثانية.

ـ إذاً، سنجبركم على السير حتى «إغيرا»! قال الضابط مهدداً.

ـ لا داعي للتهديد! قال تشي مجيباً بتهكم.

بدأ الهبوط من الجبال إلى «إغيرا». كان السير بطيئاً لأن الجنود يحملون بعض الجرحى منهم.

كانت قسمات وجهه تعبر عن ازدرائه بأعدائه. لقد شعر أنه حرّ مرة واحدة فقط، عندما مرّ بجثث الرفاق: انطونيو، أرتورو، وباكو. لقد مُزّقت أجسادهم بالرصاص.

ـ ما الذي سيفعلونه بنا. هل سيقدموننا إلى المحاكمة أم أنهم سيقتلوننا مباشرة.

تساءل فيللي.

فكر تشي قليلاً، ثم أجاب بصوت منخفض:

ـ لن يقدمونا إلى المحاكمة. نحن بالنسبة لهم خطر كبير. سيقتلوننا. أو أنك تعتقد أنهم سيفسحون لنا المجال كي نوضح جرائم الإمبريالية الأميركية أمام المحكمة، في الوقت الذي تنشط فيه حملة واسعة في كل العالم لدعمنا؟ لا، فالموت ينتظرنا.

حاول فيللي الامساك بنفسه، ثم قال:

ـ الحيوانات! سنقتل. لكن الثورة لن تقتل!

ـ إذا علم إنتي وبومبو أن الكوميندان أسير، سيهاجمان حتى لو اضطرا إلى صرع ألف جندي.

أعرف ذلك، وهما سيتابعان طريقنا.

فجأة توقف تشي وصرخ:

ـ هه، أيها الكابتن! حل يدي! أنا جريح وأعزل من السلاح. أريد أن آكل. ما بك. ألا تزال تخاف منا؟

كان تشي يعلم أن الأمر لو توقف على الكابتن لقتله للتو. ومن المحتمل أنه يخاف من وجود مؤيدين للفدائيين بين الجنود. لذلك أخذ يهينه، وينعته بالجبان. كان على الكابتن أن يتأثر بشكل ما. وطالما هو جبان فلا يمكن للروح المعنوية للجنود أن تكون جيدة بالفعل، كان تكتيك تشي في محله. إذ وافق الضابط على فك قيود الأسيرين، لكنه كان يسير وسلاحه على أهبة الاستعداد.

لكن تشي يعرف ما كان ينتظره. فقد توقع أنه سيخضع للتحقيق في كل الأحوال. ويبدو أن ذلك سيكون من مهمة وكالة المخابرات المركزية الأميركية. حيث إن موظفيها يحرصون كل الحرص على أخذ معلومات منه قبل قتله. وهم يعرفون كيف يجبرون الناس على الاعتراف. فهو سيكون جاهزاً لهذه التجربة القاسية. كان يسير والألم يزداد في جرحه ويعيقه أثناء المسير. لذلك ارتكز إلى أحد الجنود، وأخذ يحدثه عن أسباب الجهل والأمية.

في «إغيرا» كانت توجد قاعدة حربية، ومركز للقيادة في مدرسة سابقة.

وصل قائد كتيبة «القوات الخاصة» على متن طائرة مروحية قادماً من فاليه ـ غرانده.

وضعوا تشي وفيللي في غرفتين منفصلتين في المدرسة. وعندما أدخلوا تشي إلى الصف، كانت امرأة شابة تقف أمام اللوح تكتب وظيفة اليوم التالي. كان من المتوقع أن يكون الجنود قد غادروا الغرفة في ذلك الوقت...

ـ أنت مدرسة من هذه المنطقة؟ سأل تشي.

أومأت برأسها، دون أن تنظر إليه.

أشار إلى اللوح ثم قال:

ـ أتعلمين أن هذه الكلمة غير واضحة، وبالتالي تكتب من دون إشارة مدّ!

احمر وجه المرأة خجلاً.

ـ لا داعي للخجل. فالمشكلة ليست عندك. إنما هي في نظام التعليم. في كوبا مثلاً لا يمكن تصور وجود هكذا مدارس في العالم.

ـ اختصر من الكلام! من الأفضل أن تختفظ بقوتك. الآن سيبدأ التحقيق معك! حذّره الضابط.

ـ طالما لم يضمد جرحي فلن أتفوه بكلمة واحدة. إضافة إلى ذلك، أطلب إعادة التنباك والغليون، وإحضار الماء.

ـ أوه، يا لك من هذا، أوتعترض أيضاً!

لم يعط تشي أهمية لهذا الجندي، فمن الأهم أن يشرح للمدرسة الشابة العلاقة بين الاصلاح الزراعي الحقيقي ونظام التعليم. كان يعي أنها الفرصة الأخيرة التي يمكنه أن يشرح فيها جدوى العمل الفدائي في بوليفيا.

ضمّدوا جرحه كيفما اتفق. وأعادوا له التنباك. فراودته فكرة أن عملاء المخابرات المركزية الأميركية يأملون في إرغامه على الحديث بمساعدة الضمادة وعلبة التنباك، فشعر برغبة في الضحك.

صرخ به أحدهم: «كفى ضحكاً».

ثم بدأ بالتحقيق معه أحد المهاجرين الكوبيين ويدعى غونسالس:

ـ لماذا تقاتل هنا؟ أنت أرجنتيني، فلماذا لا تناضل في بلدك؟

ـ لماذا أنت هنا؟ ألست كوبياً؟

ارتجفت يد غونسالس، وكان يريد توجيه لكمة لتشي بسبب جسارته. لكن، يبدو أن نظرة تشي المزدرية به أوقفته عن فعل ذلك.

ـ أجب عن سؤالي؟

ـ الثورة لا تعرف حدوداً. توجد المعركة حيث تقوم الإمبريالية الأميركية باضطهاد الشعوب. وإذا كنت ترغب في معرفة المزيد عن نظرية الحرب الفدائية والثورية ـ قال تشي متهكماً ـ فإنني أنصحك بالاطلاع على بعض كتبي في هذا المجال، والتي صدرت في كوبا، كما أوصيك أن تتعرّف على خطابات فيدل.

استمر هذا الوضع بين سؤال حانق وجواب مزدر لفترة من الوقت. حتى دخل أحد الضباط يدعى إسبيتوسا، الذي شد تشي من شعره، ووجه له ضربة قوية منتزعاً غليونه. فما كان من تشي إلا أن مد رجله إلى الأمام بشكل مفاجيء، وضرب إسبيتوسا بقبضة رجله، فارتجف الأخير وسقط أرضاً، ثم صرخ به بكل ما أوتي من قوة:

ـ اعد لي الغليون أيها الكلب!

استمر التحقيق عدة ساعات. لكنه لا يزال في حدود الحوار السياسي العام. تلقى العقيد سينيستا أيانا كلمة أخرى من تشي بعد اهانته له. فأطلق النار على يد تشي اليمنى. لكن هذا أيضاً، لم يجعل تشي أكثر صراحة في إجاباته.

فهم تشي من خلال الأحاديث التي كانت تعلو خلف الغرفة أن أنتي وبومبو وآخرين قد اخترقوا دائرة الحصار. فلا بد إذن أنهم في مكان ما قريب من هذه المنطقة. وعندما يصلون إلى المكان المتفق عليه للقاء، سيدركون أنني وفيللي في الأسر. لم يستبعد تشي احتمال قيامهم بهجوم على هذا المعسكر. لكن، لو فعلوا ذلك، فهذا ليس عقلانياً... لأنه من الصعب الوصول إلى نتيجة. وهذه الآلاف المؤلفة موجودة في هذا المعسكر. رغم أنه... ثم سمع أصوات الجنود السكارى.

أوه، إذا استمر هؤلاء الجنود على هذا النحو فستكون صحوتهم مريرة.

دخل الغرفة اثنان من عملاء المخابرات المركزية الأميركية نظراً إلى تشي بامتهان. . .

ـ هكذا، قال أحدهم، أنت هو ذاك الشخص العظيم؟ تشي غيڤارا الذي لا يهزم!

اقترب صاحب الوجه الحليق من تشي، وأخذ يحدثه كمن يتحدث إلى طفل.

ـ كم كانت البداية رائعة، أليس كذلك؟ لكنها النهاية. وصراعك الآن خاسر تماماً. فنحن بتقنيتنا العالية استطعنا تدبير الأمور حتى معك أنت، يا لك من مقاتل قدير كالشيطان. وللأسف أنك لا تقاتل في الجانب الآخر. لقد درسنا نظريتك في الحرب الأنصارية دراسة عميقة ودقيقة. إنك تعتبر نفسك إنساناً لا يقهر، أليس كذلك؟ لكننا تعلمنا الكثير. ألم تكن تؤمن أن النصر حليفك عندما ألحقت بالجيش عدة هزائم؟ ولم يكن من المستبعد أن تنتصر، لكن أولئك الرجال الذين كانوا يناوشونك تدربوا تدريباً خاصاً، كي نتمكن منك أنت بالذات وأنت حي. ألم تلاحظ في الأسابيع الأخيرة أن الفشل كان يلاحقك تلو الفشل؟ هذا لأنك كنت تواجه قواتنا المعدة خصيصاً لمقاومة الفدائيين. لقد كنا دوماً على علم بمكان وجودك. وذاك الفرن الفيتنامي الذي يعمل من دون دخان، لم يساعدك، بل على العكس، لقد اكتشفنا أمركم بواسطة أجهزة خاصة لها حساسية عالية ضد الدفء. وتكتشف المكان الذي يعمل فيه هذا الفرن.

فجأة وجه أحدهم لكمة قوية إلى وجه تشي.

أرى أنك تتعجب مما نقول. ألم تسمعوا هدير طائراتنا فوق رؤوسكم. كانت الأجهزة فيها. وهكذا تمكنا من محاصرة مجموعتك. إنه التكتيك الحديث الذي ينهي عصر الفدائيين إلى الأبد. أضف إلى ذلك أنه لم يكن لدينا شغل غيركم، إذ لم

تستطيعوا كسب السكان إلى جانبكم. فما هي النتيجة التي نصل إليها بعد كل هذا؟ إنكم لم تكونوا محظوظين. ففي فيتنام، وغواتيمالا، وكولومبيا، لا نزال نحن الملوك. ولا يلزمنا سوى التعود على أساليبكم في القتال. من الجبن أن تعض ثم تختفي. لكن، لن يكون لهذا أن يتكرر بعد الآن.

نظر تشي إلى المحقق دون حركة. شعر بغثيان من جراء الآلام المريرة في يده ورجله. لقد فقد الكثير من الدم.

ـ أتعلم ما هو أروع ما في المسألة؟ لقد كتبت الصحف عن مقتلك... نشرت «نيويورك ـ تايمز» على صفحاتها أمس تحقيقاً صحفياً مطولاً تحت عنوان «آخر معركة لارنستو تشي غيفارا».

فهكذا، خلال يوم كامل، ولساعات متواصلة، حاول عملاء المخابرات المركزية الأميركية أن ينتزعوا من تشي معلومات عن النضال التحرري في أميركا اللاتينية ولو قليلة. لكنهم أيقنوا في النهاية أن لا نتيجة من كل هذه المحاولات.

دخل تيران إلى الغرفة يترنم أمام تشي، وكان ثملاً حتى النهاية. في هذه الأثناء سمع تشي صراخ فيللي! «إنني فخور أن أموت معك يا تشي!». ثم دوت عدة طلقات. لقد قتلوا فيللي مع إلتشينو.

نظر تشي إلى قاتله الذي كان الرعب واضحاً في عينيه. فأيقن أن ساعة الموت دنت. لكن جلاده لا يزال متردداً.

ـ أطلق النار! قال له تشي. أنا لا أخاف منكم ولا من الموت.

لكنه لم يحسم أمره في إطلاق النار بعد. وما كان منه إلا أن غادر الغرفة.

سمع تشي صوت ضابطين يصرخان على قاتله، إنه لا يفهم بعد أي شرف هو قَتْلُ تشي. لكن، يبدو أنهما لا يرغبان بفعل ذلك

بيدهم لخوفهم من انتقام رفاق تشي. لذلك دفعوا بهذا العريف الثمل كي ينفذ مكانهما.

عاد تيران ودخل الغرفة، صوب نحو تشي وأطلق صلية من رشاشه، اخترقت الطلقات الجزء السفلي منه، فتكونت بقعة من الدم على أرض الغرفة الخشبية. لكنه بقي حياً. أصيب بجراح في بطنه زادت من آلامه. كان تشي ملقى على الأرض لفترة، وأخذ يفقد وعيه شيئاً فشيئاً، مما خفف عنه الآلام.

سمع أحدهم يصرخ:

ـ تيران، اذهب واجهز عليه!

دخل من جديد إلى الغرفة، وقف بالقرب من تشي طويلاً وهو يحدق به. ثم سحب مسدسه، وصوّبه إلى صدغ تشي.

كان تشي يثير الرعب في أعدائه، حتى جثته بعثت الرعب في قتلته. لقد اختفت الجثة من دون أثر. حتى المدرسة التي كان فيها جلادو تشي وفيللي وإلتشينو مسحت في اليوم التالي عن وجه الأرض. كان من المفروض أن لا يبقى أي أثر لذلك.

* * *

رغم وصوله إلى آخر دقيقة من حياة هذا الإنسان، إلا أنه لم يتوقف عن دراسة حياته. فلا تزال أمامه جبال من الأوراق، وحتى هذه اللحظة لم يستطع الإجابة عن كثير من الأسئلة.

لكن صورة تشي كانت تكتمل أمامه شيئاً فشيئاً، وأصبح أقرب إليه. لقد فهم الكثير، وبقيت أشياء كثيرة غير مفهومة. كان عليه أن يستمر في البحث، لأنه يريد الإحاطة بتلك المسائل التي لم يقم أحد بدراستها حتى الآن.

اختفت الغرفة، واتخذت أحلام تشي لنفسها مظهراً محدداً. أما نقاط الضعف التي كان الآخرون يشيرون إليها، لم تكن ذات أهمية. بل على العكس من ذلك، ظهرت نقاط الضعف تلك،

التي لم يرد الآخرون ملاحظتها، عندما أرادوا تكوين صورة من دون عيوب.

لقد برزت إلى السطح تلك الجوانب القوية بوضوح أكبر، مما جعله أقرب. لقد اتخذ تشي صفات إنسانية، ووعى أن قتل إنسان لا يعني قتل أفكاره وقناعاته. إن السلاح الذي سقط من يد تشي لم يبق في التراب. بل هناك الكثير الكثير من الناس ممن شعروا بالحاجة للالتقاطه.

كانت الهزائم كثيرة، لكن الانتصارات أصبحت أكثر. ولم يعد بالامكان قتل فكره.

لقد خلق إنساناً جديداً.

تبقى إشارة واضحة، وعميقة لا يمكن التغاضي عنها، وهي أن تشي خرج من المعركة منتصراً. وبقيت أحلامه نداء فخرٍ يقذف به الأعداء.

المحتويات